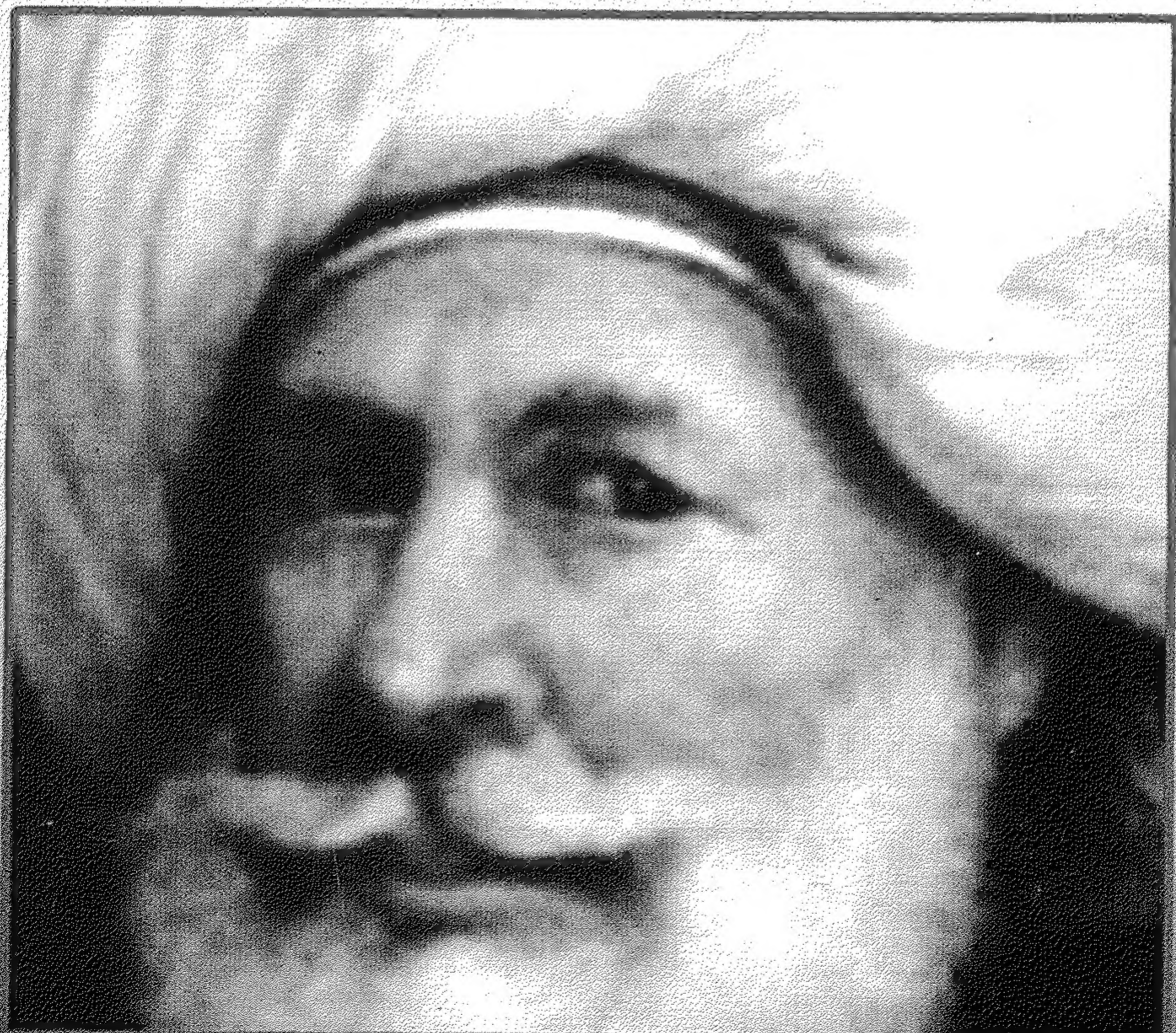


البعجة الوفیقة

فہ تاریخ مؤسس المائلة الفجیویة



تألیف: محمد فرید بك
تحریر و دراسة: د. أحمد زکریا الشلق

**الجمعية التوفيقية
فخ تاريخ مؤسس العائلة الطيوية**



البهجة الوفیفة فہ تاریخ مؤسس العائلة الفطیوة

تالیف: محمد فرید بک
تحریر ودراسة: د. أحمد زکریا الشلق

الطبعة الثانية

مطبعة دار الکتاب والاسناد الوطنیة بالجمهورية

(١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. محمد صابر عرب

محمد فريد ، بك ، 1868 - 1919.

البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة
الخدوية/ محمد فريد «بك»؛ دراسة وتحرير أحمد زكريا
الشلق .. ط 2 .. القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ،
2005.

261 ص ؛ 24 سم.

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك 0 - 0420 - 18 - 977

٩٦٢,٠٣١

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٨٧٤/٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 18 - 0420 - 0

محمد فريد وكتابه عن محمد على
"البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية"

دراسة

د. أحمد زكريا الشلق

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد فريد وكتابه عن محمد علي

"البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية"

سيرة دالة:

نود في البداية أن نشير إلى أن حياة مؤلفنا معروفة بما فيه الكفاية فهو الزعيم الوطني الكبير محمد فريد (١٨٦٨-١٩١٩)، رفيق مصطفى كامل وخليفته في قيادة الحزب الوطني المصري في العقدين الأولين من القرن العشرين، لكننا لا نرى بأساً من عرض مركز لحقائقها الأساسية بقصد إجلاء الظروف التي وضع فيها محمد فريد هذا الكتاب، مما يفسر الكثير من آرائه واجتهاداته بشأن الكثير من الأحداث خلال هذه المرحلة من حياته، ويكفي أن نشير في البداية أنه وضع هذا الكتاب عن محمد علي وهو موظف كبير في الجهاز الإداري لدولة يحكمها حفيد محمد علي، كما أنه نُسب إسم الكتاب إلى توفيق "البهجة التوفيقية" وهو يؤرخ لمؤسس "العائلة الخديوية".

وقد ولد مؤلفنا في يناير ١٨٦٨ لأب ميسور من كبار رجال مصر، كان ناظراً للدائرة السنية، هو أحمد فريد باشا، الذي ينتمي لأسرة من أصول تركية وفدت إلى مصر خلال سني الفتح العثماني لها، وظل أرباب هذه الأسرة يتوارثون وظيفة "كتابة العملة" التي كانت من أرفع وظائف الحكومة آنذاك، وقد تلقى والده تعليمه في المدارس التي أنشئت في عهد محمد علي وخاصة المدارس الحربية، ثم تقلب في وظائف الإدارة العليا، فتولى منصب المدير لمديريات عديدة، حتى صار ناظراً للدائرة السنية (١٨٨٦-١٨٩٤) خلال عهود حكام مصر من أسرة محمد علي، كما بلغ مكانة اجتماعية وسياسية عالية جعلت الخديوي عباس حلمي الثاني يستعين به في حل بعض الأزمات، وإن قدر له أن يحال إلى المعاش عام ١٨٩٤ عندما اتجهت الحكومة إلى بيع أملاك الدائرة

السنية لشركة أجنبية دون الوطنيين الذين عرضوا شراءها بثمن أكبر، ويشير الرافعي، ربما بقدر من المبالغة إلى انتقاد ناظر الدائرة لمسلك الحكومة وتضحيته بوظيفته.

وهكذا نشأ محمد فريد في أسرة يدين عائلها محمد علي بتعليمه الحديث ووظائفه التي تدرج فيها في عهد خلفائه، كما يدين لهؤلاء بتلك المكانة الاجتماعية المرموقة التي احتازها، مما وفر له حياة كريمة أتاحت له أن يدفع بابنه إلى المدارس الأميرية، فمدرسة الحقوق، التي كانت تسمى مدرسة الإدارة آنذاك، حيث حاز شهادتها عام ١٨٨٧، وهو دون العشرين، ليبدأ حياة الوظيفة مترجماً بقلم قضايا الدائرة السنية، في نفس العام بدعم من والده بطبيعة الحال، الذي كان ناظراً للدائرة السنية كما أشرنا، ثم يصبح وكيلاً لنفس القلم في العام التالي، ولينعم عليه الخديوي عباس حلمي برتبة البكوية عام ١٨٩١. أي بعد عام من إصدار كتابه الذي بين أيدينا "البهجة التوفيقية".

وقد انتقل محمد فريد من وظائف الدائرة السنية إلى وظائف النيابة العمومية مساعداً للنياحة، فخدم في محكمة مصر الابتدائية، فنيابة الأزبكية، فوكيلاً للنياحة من الدرجة الثالثة عام ١٨٩٣، ثم وكيلاً لنياحة الاستئناف عام ١٨٩٥، وأظهر كفاية ومقدرة عالية أهله لأعلى مناصبه الدولة، لولا أنه أثر الجهاد الوطني على الوظيفة وقيودها، فاستقال منها عندما أبدى تعاطفاً وطنياً ضد الحكومة وسلطات الاحتلال، عندما رفعت الحكومة قضية ضد الشيخ علي يوسف وصحيفة المؤيد - لسان حال الوطنيين آنئذ - وكذلك ضد أحد موظفي مكتب تلغراف الأزبكية، لنشرهما تلغرافات سرية للورد كتشنر تتعلق بما يلقاه الجيش المصري من متاعب صحية خلال حملة دنقلة، مما اعتبرته الحكومة إفشاء لأسرارها. ولما كان محمد فريد قد شهد نظر هذه القضية وجاهر، وهو وكيل نيابة بالاستئناف، بتعاطفه مع صاحب المؤيد وبمبوله الوطنية. وبمعارضته لسلطات الاحتلال وسياساتها، فقد أوعزت هذه السلطات إلى الحكومة لنقله إلى

الوجه القبلى، فلم يقبل ذلك واعتبره مساساً باستقلال القضاء وإهانة لشخصه،
وقدم استقالته التى قبلت على الفور عام ١٨٩٦^(١).

وربما كان محمد فريد مدفوعاً فى التعبير عن مشاعره الوطنية، إلى جانب
حسه الوطنى الخاص، بتلك الموجة التى سرت بين الشباب المتعلم آنذاك، والتى
شجعها الخديوى الشاب عباس حلمى الذى تولى الحكم فى بداية عام ١٨٩٢
وأراد أن يلعب دوراً وطنياً، وجمع الشباب حوله، وكان مصطفى كامل ولطفى
السيد ومحمد فريد فى طليعتهم، وجعل يتفق على جمعياتهم السرية، ويرسل
بعضهم إلى أوروبا للدعاية للقضية الوطنية، فضلاً عن تمويل صحفهم كما هو
معروف، غير أن المعتمد السياسى البريطانى اللورد كرومر تصدى له وأثار فى
وجهه عدة أزمات انتهت بالخديوى الشاب إلى إلقاء السلاح والإبتعاد عن
الحركة الوطنية والرضوخ لسياسة الإحتلال^(٢).

ويسجل لنا عبد الرحمن الرافعى بداية نضوج الشعور الوطنى لدى محمد
فريد، فيذكر أن ميوله الوطنية بدت عليه منذ حصوله على شهادة الحقوق واتجه
إلى خدمة الوطن بالكتابة والتأليف، ساعده على ذلك سعة ثقافته وشفقة
بالإطلاع وإجادته الكتابة باللغتين العربية والفرنسية، كما أنه كان يرأس
الصحف وينشر فيها مقالاته، وخاصة مجلة الآداب للشيخ على يوسف خلال
عامى ١٨٨٧-١٨٨٨، بينما كان والده يخشى عليه من الإشتغال بالصحافة
والسياسة خوفاً من أذى الانجليز والحكومة، وربما لأنه كان يعده لإنتقاء وظائف
الدولة^(٣). واستكمالاً لمسيرته ينبغى الإشارة إلى أنه انجذب، ككثير من مثقفى
عصره إلى الحركة الماسونية وتنظيماتها فى مصر، مأخوذاً بريق أفكارها الظاهرة،
فانضم إلى "محفل النيل" فى أواخر عام ١٨٩٢، كما كان عضواً فى الجمعية
الجغرافية، فضلاً عن عضويته النشطة فى الجمعية الخيرية الإسلامية.

لقد كان محمد فريد يميل بطبعه إلى التحرر من قيود الوظائف والمناصب
الحكومية، وقد كشفت تعليقاته على مذكراته عن تاريخ مصر التى سجلها منذ

عام ١٨٩١ عن ذلك، حيث كان ينسب إلى كبار الموظفين ممالأة سلطات الإحتلال وتأييد سياساتهم، ولعله كان يتوق إلى فرصة مناسبة ليحرر نفسه من تلك القيود وينطلق إلى ميدان الجهاد الوطني، وقد قُمّأت له الفرصة في أعقاب "حادثة التلغرافات" المشار إليها، والتي أدت إلى إستقالته من وظائف الحكومة عام ١٨٩٦، فتحرر من قيود الوظيفة وبدأ يشغل بالمحاماة منذ عام ١٨٩٧، ويروي فريد في مذكراته أنه بعد أن قدم استقالته من وظيفته في نوفمبر عام ١٨٩٦ أصدر الخديوي عباس حلمي أمراً في مايو عام ١٨٩٧ بتعيينه في وظيفة مستشار لقلم قضايا الأوقاف، غير أن السلطات البريطانية اعترضت على ذلك، وأرسل اللورد كرومر احتجاجاً على ذلك إلى رئيس الوزراء مصطفى فهمي باشا، مدعياً أن هذا التعيين، مع اشتهاار فريد بمعاداة الإنجليز ومجاهرته بذلك، يشجعه على انتهاج هذا السلوك ويشجع غيره على ذلك، ونجحت السلطات البريطانية في تعطيل أمر الخديوي.^(٤)

قيد محمد فريد اسمه في جداول المحامين أمام المحكمه الأهلية، ثم المحاكم المختلطة، ولبث يعمل في المحاماة لسبع سنوات، رأى بعدها أنها تصرفه عن الجهاد الوطني، فاعتزلها عام ١٩٠٤ بعد أن كانت صلته بالزعيم قد توثقت منذ عام ١٨٩٦ - وإن كان الرافعي يرجع بدايتها إلى عام ١٨٩٣ - وذكر فريد آنذاك إنه أراد أن يخصص من وقته "المقدار الكافي لخدمة بلادى وأبناء وطنى خدمة أعم وأنفع" فبدأ نشاطاً واسعاً في الحركة الوطنية المصرية، توج بالمشاركه في تأليف الحزب الوطنى مع مصطفى كامل الذى كان أكبر حزب جماهيرى عام ١٩٠٧، حيث صار وكيلاً للحزب، فرئيساً له منذ فبراير عام ١٩٠٨ في أعقاب وفاة مصطفى كامل.

ورغم ذلك عاد محمد فريد للإشتغال بالمحاماه مرة أخرى عام ١٩١١، عقب خروجه من السجن بعد أن ظل رهينه ستة أشهر حكم عليه بها في قضية بسبب كتابته مقدمة لديوان "وطنيقي" للشيخ على الغياتى، ورغم أنه أراد بعودته إلى

المحامية تعويض بعض خسائره المالية نتيجة جهاده المتواصل، إلا إنه لم يستمر طويلاً لكثرة مشاغله الوطنية، التي لم تترك له مجالاً للتوفر على هذه المهنة. ولما سافر لحضور مؤتمر السلام بأوروبا في سبتمبر عام ١٩١١، انتهز هذه الفرصة للتنقل بين مختلف الدول الأوروبية للدعاية للقضية المصرية، وعندما عاد إلى مكتبه في منتصف نوفمبر من نفس العام، لم يلبث أن حوكم للمرة الثانية على أثر خطبة ألقاها في المؤتمر السنوي للحزب الوطني في مارس عام ١٩١٢ اعتبرتها الحكومة تحريضاً على كراهيتها، وقدمته للمحاكمة تمهيداً لسجنه مرة أخرى، لذلك قرر الهجرة من مصر في نفس الشهر قبل أن تصدر الحكومة أوامرها بالقبض عليه وسجنه، ليبدأ في الخارج مرحلة جديدة من مراحل جهاده الوطني، سواء من عاصمة دولة الخلافة أو من عواصم الدول الأوروبية، داعياً لإستقلال وطنه، حتى توفي غريباً ببرلين في نوفمبر عام ١٩١٩، بعد أن سجل صفحات ناصعة في تاريخ الحركة الوطنية المصرية ومقاومة الاحتلال البريطاني، وقد حظى دوره بمؤلفات حزبية وعلمية لها قدرها، أرخت لنضاله الوطني سراً وعلانية، داخل مصر وخارجها كما هو معروف.

* * *

ينبغي الإشارة إلى أن محمد فريد ولد عام ١٨٦٨ وأن مصر احتلت من الإنجليز وهو في الرابعة عشرة من عمره، حيث لم يكن وعيه السياسي قد تشكل تماماً ونضج، ولأن والده كان يعمل في خدمة الخديوى، فمن الطبيعي أن يكون حريصاً على إبعاده عن العمل بالصحافة والسياسة، ليؤمن لمستقبله حياة رغدة وهادئة. كما نلاحظ أن فريداً ألف كتابه هذا عام ١٨٩٠، وهو في نحو الثانية والعشرين من عمره، مما يدل على اتجاهاته الثقافية والفكرية في هذه المرحلة من حياته، في الوقت الذي كان فيه، هو ووالده، يحتازان مراكز مرموقة في الحكومة المصرية مما جعلهما جزءاً من الصفوة الإجتماعية والسياسية آنذاك. فلم يكن فريد حتى بداية التسعينيات من القرن التاسع عشر قد انجذب إلى تلك الموجة الجديدة الناشئة من موجات الحركة الوطنية المصرية وهي الوجهة التي ظهرت

خلال عهد الإحتلال البريطاني كرد فعل لسياساته ومظالمه. والتي انخرط فيها فريد فيما بعد، وصار أحد زعمائها الكبار.

ولعل ما سبق يوضح كيف أن محمد فريد في بداية اكتمال وعيه السياسي كان معتدلاً أقرب إلى الإتجاه الذى مثله الإمام محمد عبده وأصدقاءه وتلاميذه في فترة ما بعد الإحتلال، ذلك الإتجاه الذى نظر، بواقعية من وجهة نظر أصحابه، إلى وجود الإحتلال وسياساته ووجوب تقبل إصلاحاته ومساعدة الإنجليز حتى تصبح مصر أهلاً للإستقلال والتقدم.. ويفسر هذا ما كتبه فريد في مذكراته في يناير ١٨٩١، عندما أراد أن يسجل تاريخاً لمصر منذ ذلك العام، معبراً عن إشادته بسياسة الإنجليز المالية والإقتصادية، بل إنه بالغ في هذا الإتجاه حين سجل أن الإنجليز لم يأتوا، حتى الآن، ما يوجب كراهاتنا لهم، وأنهم يعاملون الأهالي بالرفق والدعة، وأضاف أن حب الوطن يلزمنا تمني خروجهم من مصرنا العزيزة، دون عودتها إلى الدولة العثمانية، كما سجل، بدون مبالاة، أن مصر محتاجة لمساعدة الإنجليز مدة لا تقل عن خمسة عشرة سنة لتبلغ شأوها من التقدم والتمدن في سبيل المعارف، وعندئذ يمكنها أن تدبر أحوالها بنفسها.

لقد كان فريد خلال هذه المرحلة من حياته - أى حتى مطلع التسعينيات، يرى أن الإحتلال الإنجليزي أمر واقع حتمته الظروف، وأن على المصريين أن تستفيد من مساعدته ليتدربوا على حكم أنفسهم، وليتمكنوا بعد ذلك من التخلص منه ومنعه من التدخل في شئون مصر وإدارتها "على أن يتم ذلك شيئاً فشيئاً، لا مرة واحدة كما فعل العرايون عام ١٨٨٢ فعادوا بالخيبة" أى أنه كان يرى أن دورهم يجب أن يقتصر على دور الخبراء والمستشارين، لا دور ذوى السلطة المنفذين، الذى يجب أن يختص به المصريون وحدهم. وحسبما يلاحظ رؤوف عباس، أن فريداً لم يكن يتفهم الدوافع الموضوعية التى كانت تكمن وراء الإحتلال والتي كانت تستهدف المصالح الإستراتيجية لبريطانيا، التى

لم تكن مجرد رسول للتمدن وداعية للإصلاح وتدريب المصريين على حكم أنفسهم.^(٥)

وقد يلفت النظر أن فريداً بعد أن كتب ذلك، عاد في نفس مذكراته (التي لم ينشرها في حينها والتي أشرنا إليها) في مارس من نفس العام (١٨٩١) ينعى على الخديوى توفيق تحاذله أمام الإنجليز وعدم مقاومتهم حرصاً على عرشه مع أن من واجبه المحافظة على صالح الوطن ولو أدى ذلك إلى فقدانه هذا العرش، ذلك أن هذا الموقف الجديد من فريد يتناقض مع رأيه السابق الذى يذهب إلى عدم مواجهة الإنجليز والاستفادة من وجودهم ثم التخلص منهم تدريجياً.. غير أننا نلاحظ أن هذه الأفكار كانت بداية تحول حقيقى في قناعاته وأفكاره السياسية، مما يسجل بداية حقيقية لنضجه الوطنى، فقد كتب في نفس المذكرات في ديسمبر ١٨٩١ معبراً عن ضرورة عدم التعاون مع الاحتلال، ويعيب على النظار المصريين رضوخهم لإرادة الإنجليز، بدلاً من امتناعهم عن قبول الوظائف الكبرى في ظل تلك الظروف، ويرميهم بالحرص على مرتباتهم أكثر من الحرص على استقلال الوطن، بل ويتهممهم بصراحة بأنهم هم الذين ساعدوا الإنجليز على احتلال الوطن.^(٦)

ومن الواضح أن فترة التحول والنضج الوطنى في تفكيره السياسى هذه، التى بدأت مع بدايات عام ١٨٩١، قد غيرت من موقفه تجاه الخديوى توفيق أيضاً، فقد رأينا أنه كتب في مذكراته التى سجل فيها تاريخاً لمصر منذ ذلك العام - والتى لم تعرف إلا بعد وفاته عام ١٩١٩ - منتقداً الخديوى لتخاذله وضعف عزيمته على مقاومة الإنجليز وملايئته لهم حرصاً على عرشه مضحياً بمصلحة الوطن. وعندما تولى الخديوى عباس حلمى الثانى واتجه إلى مقاومة الإنجليز وتوثيق علاقاته بالسلطان العثمانى، بارك فريد هذا الاتجاه، وعبر عن ذلك فيما كتبه بمذكراته في شهر يوليو ١٨٩٣، ورأى في ذلك نهجاً قويمًا، وأشاد

بالخديوى الشاب الذى ترك "سياسة إسماعيل وتوفيق ومن قبلهما.. لما فى هذه السياسة العوجاء من تسهيل السبل لإحتلال الأجانب (لمصر) وامتلاكهم لها.."

ويتصل بذلك أيضاً تغير موقفه من الدولة العثمانية التى كان يتحمس لجهود محمد على فى الإستقلال عنها، فبعد أن كان يرى عدم عودة مصر إلى حظيرتها فور خروج الإنجليز منها، جعل يتمسك بالسيادة العثمانية عليها، ويرى أن استقلال مصر التام عنها، يجعلها مطمعاً للدول الأجنبية، ويلفت النظر - فيما كتبه بالملذكرات فى فبراير ١٨٩٤ - إلى أهمية تأييد روابط تبعيتها للدولة لكف الإنجليز عن ابتلاعها. وفى غضون نفس العام نشر فريد كتابه الشهير عن "تاريخ الدولة العلية العثمانية" الذى ذهب فيه إلى أن الإبقاء على دولة الخلافة الإسلامية إبقاء للإسلام نفسه، لأن الدولة العثمانية دافعت عن الإسلام ضد جميع دول أوربا المسيحية، وانتهى إلى أن المسألة الشرقية حلقة من حلقات الصراع بين الدولة العثمانية والقوى المسيحية، ومن ثم فهى مسألة دينية وليست سياسية. ويستمر فى السعى لتأكيد الولاء للدولة، حتى أنه يقيس الشعور الوطنى عند المصريين بمقدار ما يظهرون من الولاء للدولة العثمانية وتأييدها ضد أعدائها، فيشيد بحملة اكتتاب المصريين لمساعدة الدولة فى حربها ضد اليونان عام ١٨٩٧، ويرى ذلك دليل على زيادة الإحساسات الوطنية عند المصريين.^(٧)

وهكذا ظل فريد على قناعاته الجديدة بعد نضج فكره السياسى والوطنى، منذ استقال من وظائف الحكومة واشتغل بالمحاماة بين عامى ١٨٩٧ - ١٩٠٤، وحتى رغم انصراف الخديو عباس عن تأييد ودعم الحركة الوطنية، فارتبط بمصطفى كامل، وتحول من مجرد مثقف يحمل مشاعر وطنية متدفقة يتوق لتحرير بلاده من الإحتلال خلال هذه الفترة، إلى مناضل سياسى شديد المراس، يضحى بأمواله وبحياته الخاصة فى سبيل مقاومة الإحتلال، مؤيداً تبعية مصر للدولة

الخلافة متخذاً من ذلك حجة لدافعة الإنجليز، ومناضلاً، في إطار الحزب الوطني المصري، من أجل حياة دستورية لمصر والمصريين.

* * *

محمد فريد مؤرخاً:

ينبغي التأكيد على أن محمد فريد وُلج الحياة العامة باعتباره مؤرخاً، قبل أن ينخرط في السياسة بشكل عملي، وقبل أن يترك الوظائف والمحاماة، وأن عشق التاريخ والكتابة فيه لم يفارقه طوال حياته حتى بعد أن أصبح ذاته شخصية تاريخية أو من صنّاع التاريخ، فعندما أصبح مناضلاً وزعيماً سياسياً سجل مذكراته لثقتة أنها ستصبح يوماً ما مصدراً من مصادر التاريخ، وهو ما حدث بالفعل. وكان يرى أن "فن التاريخ عبء لمن اعتبر وتبصرة لمن تأمل واذكر.. له فوائد جمة، وثمرات مهمة، تعرب عما مضى من كوارث الأزمان والأوقات، وتكشف عن وجوه الحوادث قناع الشبهات، فلكثرة نفعه، وعظم وقعه، كان له في الكتاب المبين أصل قوى متين.. إذ لولا التاريخ لجهلت الدول، ومات في الأيام الآخر ذكر الأول.."^(٨) فالتاريخ عنده خبرة بالماضي وحوادثه ينبغي تأملها والإعتبار بها، كما أنه يكشف عما يحيط بهذه الحوادث من الشبهات من خلال تحقيقها، استجلاءً للماضي واستيعاباً لدروسه، وقد تمثل في صدر أول كتاب له في التاريخ بقول الشاعر:

ليس بإنسان ولا عالم من لم يع التاريخ في صدره
ومن درى أحوال من قد مضى أضاف أعماراً إلى عمره

وكان كتاب "البهجة التوفيقية.." عن محمد علي أول عمل تاريخي ينشر له حيث صدر في مارس عام ١٨٩٠، وهو ما سنعرض له بالتفصيل بعد قليل، وبعده شرع محمد فريد منذ عام ١٨٩١ يسجل وقائع عصره بشكل حولى فترك لنا مذكراته عن "تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية" والتي توقف عن كتابتها عام ١٨٩٧، وإن لم تر النور إلا بعد وفاته بزمان طويل^(٩)،

وفي تقديرنا أنه خلال تسجيله لها، لم يستهدف نشرها آنذاك، ثم ألف عمله التاريخي الثالث المهم وهو "تاريخ الدولة العلية العثمانية" الذي نشر طبعته الأولى في يناير عام ١٨٩٤. واستمر خلال التسعينيات على حبه للكتابة التاريخية عندما أنشأ عام ١٨٩٨، مجلة علمية نصف شهرية تسمى الموسوعات (بالاشتراك مع حافظ عوض ومحمود أبو النصر) نشر فيها فصولاً من تاريخ الرومان جمعها في كتاب صغير أصدره عام ١٩٠٢ تحت عنوان "تاريخ الرومان" شمل تاريخاً قصيراً لروما حتى نهاية الحروب البونية.. كما نشر "بالموسوعات" الكثير من مقالاته التاريخية عن سياسة إنجلترا وفرنسا في إفريقيا، وسياسة روسيا في آسيا، وحرب الترنسفال، ومطامع أوروبا في الصين.. إلخ وظل يتابع الكتابة في التاريخ إلى أن جذبته السياسة والحزب الوطني خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، ومع ذلك سجل مذكراته بين عامي ١٩٠٤ - ١٩١٩ التي أشرنا إلى أنها تعتبر مصدراً مهماً من مصادر تاريخ مصر خلال هذه الفترة.^(١٠)

والواقع أن محمد فريد قد ترك عملين تاريخيين مكتملين ومهمين بمقياس عصره، نشرأ في حياته، أولهما كتابه عن عصر محمد علي وهو "البهجة التوفيقية" والآخر عن الدولة العثمانية وهو "تاريخ الدولة العلية العثمانية"، وقد ملأ الكتابان ما يعد في ذلك الوقت فراغاً كبيراً، حيث لم يتوفر حتى وقت نشرهما عمل مخصص لأي من الموضوعين في مصر،^(١١) ومن ثم كان إسهام محمد فريد يدل على درجة عالية من الوعي والمقدرة.

أما كتابه عن الدولة العثمانية فقد اجتهد فيه ليثبت للقراء - حسب تعبيره - أن سبب تأخر المسلمين هو تفرق كلمتهم، وأن بين فضل الدولة في إبقاء الإسلام والدود عنه، وكيف أنها قاومت دول أوروبا المسيحية، وليبرهن على أن المسألة الشرقية مسألة دينية وليست مسألة سياسية.^(١٢) يضاف إلى ذلك أنه يربط بين دراسة التاريخ والوعي به وبين المدنية العصرية، باعتبار ذلك من متطلباتها، فكل جيل من الأجيال المتعاقبة يرث معارف وأخلاق وأعمال من

سبقه ليضيف إليها "من معلوماته الخصوصية، وتجاربه الذاتية فيكون بذلك مدنيته العصرية.." فضلاً عن أنه كان يرى أن دراسة التاريخ بشكل عام توقفتنا على أخبار كل أمة في جميع أطوارها "كأسباب ظهورها والروابط بين أفرادها والوسائل التي اتخذتها لنموها وارتقائها وحدود محكوميتها وحكامها، ووصف وقائعها وتحديد تخومها وأملاتها، وأطماعها وأسباب خذلانها وسقوطها.." (١٣)

وإذا كان محمد فريد في كتابه السابق على هذا (البهجة التوفيقية) قد انحاز وتحمس للسياسة الخارجية لمحمد علي والتي أدت إلى صدامه مع الدولة العثمانية بل إنه عند حديثه عن موقعة قونية انتقد الدولة صراحة وذكر أنها "لم تتمكن من التآليف بين قلوب رعاياها حتى تكون منهم أمة واحدة عثمانية بل لم يزل كل شعب محافظاً على تقاليدته وعوائده ولا تجمعهم مع باقي الشعوب إلا جامعة الخضوع لسلطان واحد ذى بأس وبطش" (١٤)، وربما كان مدفوعاً إلى ذلك برغبته في إرضاء الخديو توفيق، فإنه في هذا الكتاب قد أعاد النظر في موقفه من الدولة العثمانية على ضوء المتغيرات التي حدثت فيما بعد، فالدولة العثمانية ابتعدت عن صداقتها التقليدية لبريطانيا، مما كان في صالح تحسين العلاقات العثمانية - المصرية، كما أن بريطانيا وفرنسا توصلتا عام ١٨٩٠ إلى حل أغلب نزاعاتهما الإستعمارية، فلم يعد ثمة ما يجعل مصر ترتاب في علاقتها بالدولة العثمانية، ولذا أصبح الطريق ممهداً لنوع جديد من التفاهم العثماني-المصري المؤسس على الروابط الدينية القديمة والإحساس القوي بالولاء الذي يحسه المسلمون تجاه الخلافة.

وفي داخل مصر، بينما كان الخديوي توفيق يبدى خضوعاً للسياسة البريطانية في مصر، وهو ما تقبله محمد فريد آنئذ، مما يفسر رأيه عام ١٨٩١ بشأن المظاهر الإيجابية للإحتلال، فإن الصورة قد اختلفت عندما تولى الخديوي عباس حلمي الثاني وبدأ يظهر أمام المصريين باعتباره حاكماً وطنياً يتحدى الوجود البريطاني، مما أدى إلى صدامه مع اللورد كرومر، ولابد أن محمد فريد

قد تأثر بهذا الاتجاه الجديد للخديو عباس، وكان ثمة شكوك لدى الإنجليز بأن شبكة مركبة من العلاقات المصرية - العثمانية يجرى بناؤها.^(١٥) ويمكن فهم اتجاه محمد فريد صوب الدولة العثمانية وتأليفه هذا الكتاب عنها في هذا الإطار.

ومن الطبيعي أن يكون هذا العمل، الذي وضعه فريد بعد ما يقرب من أربع سنوات من كتاب "البهجة التوفيقية" أكثر نضجاً وأهمية، فقد تميز بقدر أعلى من التوثيق، وهو ما ظهر من اقتباساته الواضحة من نصوص المعاهدات والاتفاقيات والفرمانات والمراسيم، والتي وضعها في سياقها التاريخي، فضلاً عن نشر الكثير من نصوص هذه الوثائق كلما تطلبت الحاجة ذلك، بالإضافة إلى رجوعه إلى مؤلفات من سبقوه كعلي مبارك وجودت والجبرتي وفيليب جلاد وغيرهم.. وكان صادقاً مخلصاً لأمانة البحث التاريخي ومسئوليته، عندما ذكر بحق، أنه بذل غاية الجهد وأورد في هذا التأليف من مواقف التحقيق قدر طاقته، فضبط الأعلام بقدر الإمكان وشرح في حواشي الكتاب أسماء الملوك والأعيان وبعض البلدان معتمداً في ذلك كله على الأمهات المعتبرة والأصول الموثوق بها.. ويبقى أن نشير أنه في هذا الكتاب أظهر معرفة كاملة بتاريخ أوروبا الحديث وبما كان يدور في أروقتها السياسية، كما استطاع أن يتبع بمهارة التطورات الداخلية في الدولة العثمانية، ليترك لنا عملاً تاريخياً على جانب كبير من الأهمية، أظنه لا يزال يمثل مرجعاً مفيداً من مراجع تاريخها الحديث.

* * *

المؤرخ والباشا، كتاب البهجة التوفيقية:

أوضح محمد فريد أسباب تأليفه لهذا الكتاب فذكر أنه أراد به التاريخ لفضل ساكن الجنان (جنتمكان) محمد علي باشا الكبير، باعتباره "أكبر مؤسس لمصر وأشهر مهندس لخططها" وأنه أراد بذلك التعبير عن اعترافه بفضله، باعتباره أحد الذين تربوا في المدارس الخديوية، كما أوضح أنه وضعه كذلك لخدمة الوطن وتزويد المصريين بمعرفة تاريخهم وماضي بلادهم، وتقديم

الشكر للخديوى توفيق على نعمه، كما ذكر أنه تشجع في تأليفه للكتاب بانتشار المعارف والعلوم، فأراد به الإسهام في المعرفة التاريخية وتشجيع التسابق في ميدانها..

والواقع أن محمد فريد كان من أشد المعجبين بنشاطات محمد على وحملاته العسكرية، وكم أغدق عليه من الألقاب خلال صفحات كتابه، فهو مؤسس مصر الحديثة وأكبر مؤسس لديار مصرنا، محي مجد مصر، وعزيز مصر، وممدن مصرنا وعزيزها الأول، والعزيز محمد على باشا وأحياناً يلقبه بالخديوى، وكثيراً ما كان يكنى عن اسمه بهذه الألقاب، غير أنه لم يقدم تاريخاً كاملاً لعصره وسياسته الداخلية والخارجية بقدر ما قدم تاريخاً عسكرياً لحروبه وحملاته، حتى كاد هذا الكتاب أن يصبح مجرد تاريخ عسكري لحملات محمد على وحروبه، ونظرة سريعة على محتوياته تؤكد ذلك.

فالكتاب يبدأ بقصة مجي محمد على إلى مصر ضمن الحامية العثمانية التي جاءت لإستردادها من الفرنسيين في مارس ١٨٠١ ووصف كيف ارتقى عرش الولاية، ثم بدأ في تتبع جهوده ونشاطاته العسكرية منذ مقاومة حملة فريزر على الإسكندرية ورشيد عام ١٨٠٧، لينتقل بعدها إلى تسجيل حروبه في الجزيرة العربية، والتي سماها "حرب الحجاز"، وعالج بعد ذلك عملية بناء الجيش الجديد لمصر، وجهود سليمان باشا الفرنساوى "الكولونيل سيف" في هذا الشأن، وقد خص هذا بترجمة مستفيضة لما له من جهود عسكرية في بناء جيش محمد على وفي حملات هذا الجيش وحروبه، وانتقل مؤلفنا بعد ذلك لمتابعة حروب اليونان، وحروب إبراهيم باشا ابن محمد على في الشام وحكمه له، وثورات الأهالي ضد الحكم المصرى، وصراع الجيوش المصرية مع جيوش السلطان العثمانى خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وتدخل الدول الأوروبية وتطور المسألة المصرية، حتى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وإجلاء المصريين عن الشام.

ولم يعالج محمد فريد في كتابه موضوعات أخرى إلا في الجزء الأخير منه، حين سجل زيارة الدوق موبانسيه، ابن ملك فرنسا لويس فيليب إلى مصر عام ١٨٤٥، ثم رحلة إبراهيم باشا إلى أوروبا للعلاج والإستجمام (٤٥-١٨٤٦) حيث رواها بالتفصيل. ويبدو أن فريداً رأى أنه استغرق في تأليف هذا التاريخ العسكري، ولم يكتب شيئاً عن سياسة محمد علي الداخلية وبناء الدولة الحديثة، فاستدرك ذلك في فصل ختامي عاج فيه بشكل مركز ما أقامه "ممدن مصر من إصلاحات وتأسيسات" فكتب عن جهوده في تطوير التعليم والبعثات، والطب والمستشفيات، وبناء الأسطول والترسانات، والمصانع، وتطوير الزراعة، ومشروعات الري الكبرى.. ومن الواضح أن مؤلفنا أدرك أن هذه الإنجازات جميعاً كانت في سبيل تحقيق الأهداف العسكرية، وارتباطها بتأسيس الجيش الجديد ونشاطاته، فهو عندما تحدث عن إنشاء خطوط التلغرافات أضاف "لتصل إليه أخبار جيوشه المشتغلة بقتال اليونان في أقرب وقت..".

وعموماً استطاع محمد فريد أن يقدم وصفاً تفصيلياً دقيقاً، في معظم الأحيان، للمعارك التي خاضها الجيش المصري خاصة تحت قيادة إبراهيم باشا، الذي لم يدخر وسعاً في إغداق ألفاظ البطولة والشجاعة عليه، كما كشف عن إعجابه بشأن سياسة محمد علي في توسيع حدود مصر، وكان يرى أن ذلك من أسباب عظمة الدول وقوتها، والثابت أن محمد فريد أثبت مهارة واضحة في تتبعه سير المعارك وتبع حركة الجيوش، كما أظهر معرفة دقيقة بما دار في أروقة السياسة الأوربية بشأن المسألة المصرية، وتدخل هذه الدول في الصراع الدائر بين محمد علي والسلطان العثماني خلال حروب الشام، فكشف عن إدراك عميق لمدى تعارض المصالح الأوربية ودوافع وطبيعة تحالفاتها.

وفي المقابل، كان يمر مرور الكرام ودون تحليل نقدي، على الإخفاقات التي لقيها الجيش المصري في بعض المعارك في بلاد اليونان، وفي معارك الشام وأسلوب إدارته مما أدى إلى ثورات أهله ضد حكم إبراهيم باشا. ويتصل بذلك أيضاً أن محمد فريد رفض الاعتراف بأن ثمة خلافات حدثت بين إبراهيم باشا والكونونيل سيف "سليمان باشا" بشأن اتخاذ بعض القرارات العسكرية، وأرجع فريد التقارير الواردة بهذا الشأن إلى "الحسد والوشاية" وليس إلى اختلاف النظر في سير بعض المعارك..

وفي معالجته لمسألة هزيمة الجيش المصري في حرب اليونان ومعركة نوارين البحرية، قدم فريد دفاعاً هزياً، حين ذكر أن بقايا الجيش والأسطول المصري عادت إلى الإسكندرية متوجة بالنصر المبين والفوز العظيم، عندما ألزم إبراهيم باشا بإخلاء اليونان، ورأى أن مجرد وقوف قوة مصرية محصنة أمام إحدى هذه الدول العظام ليكسبها فخراً وشرفاً ولو خرجت من هذا الموقف الخرج مكسورة! كذلك لم يكن محمد فريد يتوقف ليحلل الظروف الموضوعية التي أدت إلى نشوب بعض الحروب، فبعد انتهاء حديثه عن حرب اليونان، انتقل فجأة للحديث عن حرب الشام ولم يذكر من أسبابها إلا سبباً ظاهرياً وهو هروب الفلاحين المصريين إلى الشام بسبب الضرائب المفروضة عليهم ولم يشأ أن يحلل الأسباب الأكثر أهمية..

وعندما انتقد المؤرخون إبراهيم باشا بسبب تعريض نخبة جيشه للموت من الجوع والعطش والحرارة في اقتفاء أثر الشيخ قاسم الذي قاد عصياناً كبيراً ضد الحكم المصري للشام، دافع عنه محمد فريد، وذكر أن هؤلاء المؤرخين فاقم أنه لو ترك الشيخ قاسم وشأنه لعثا في الأرض فساداً واعتبر الشاميون ذلك عجزاً منه وتجراًوا عليه..

وبالرغم مما وصف به موقف محمد فريد من انحياز واضح لبطولات محمد على وإنجازاته، حتى لقد اعتبر البعض كتابه نوعاً من الملاحم وقصص البطولة

أكثر منه تاريخاً^(١٦) إلا أننا لا نعلم أن نجد نقداً واضحاً لمحمد علي وسياسته من جانب مؤلفنا، فهو في حديثه عن هروب الفلاحين من مصر إلى الشام فراراً من الضرائب يذكر عبارة صريحة "ويسوؤنا أن نقول أن مصر مع كونها قد تقدمت في زمن المغفور له محمد باشا عما كانت عليه زمن المماليك مالياً وعسكرياً، لكن لم يصب الفلاح من هذا التحسين إلا كثرة الضرائب وأعمال السخرة لإتمام الأعمال العمومية، التي لم تعد بالفائدة على فلاحى ذلك الوقت، بل على من أتى من بعده..".

كما كشف محمد فريد عن أن محمد علي كان يضيق بالنقد ويحاسب من يمارسه بشدة، ففي حديثه عن قصة عزل الشيخ الدواخلى نقيب الأشراف، ذكر مؤرخنا أن الباشا طلب من المشايخ أن يحرروا محضراً يبينون فيه أسباب عزله ليرسله إلى نقيب الأشراف في استانبول باعتباره صاحب الحق في العزل والتولية بولايات الدولة العثمانية، وأضاف فريد "أنه لم يكن في الأسباب التي ذكروها السبب الحقيقي لعزل الباشا له، وهو في الحقيقة انتقاده على أحكام الباشا على مرأى ومسمع من المقربين إليه".

وعندما تدخلت الدول الأوروبية بين محمد علي والسلطان عام ١٨٣٧ بعد أن اقتربت جيوش إبراهيم باشا من استانبول، وقدمت مقترحات أولية لتسوية الأزمة، ورفض محمد علي هذه الشروط وعزم على المحافظة على ما فتحته الجيوش، وأخذ يستعد للقتال، أرسلت بريطانيا ودول أوربا، إلى محمد علي تحبره أنها سوف تستعمل القوة ضده دفاعاً عن الباب العالي، علق محمد فريد على موقف الباشا بقوله إنه "لم يعبأ بكل ما ورد إليه من هذه التهديدات ولم يرد عليهم، وورد نبأ سفره إلى السودان للبحث عن الذهب وترك حكومته وكأنها لم يكن بها شئ من التهديدات".

وفيما يتعلق بتوثيق الكتاب ومصادره، فقد استطاع مؤلفنا أن يطلع على مجموعات من الوثائق والسجلات المهمة بحكم مركزه الوظيفي، كما استفاد

من مجموعات عديدة منشورة من الوثائق الأوربية، وكذلك اعتمد على الكثير من كتابات المؤرخين السابقين واقتبس عنها وذكر ذلك في موضعه، فاستفاد من كتابات الجبرتي وكلوت بك وعلى مبارك، وكذلك كتابات هامون ومانجان، خاصة تقاريرهم عن مدرسة الطب والطب البيطري، وكذلك اعتمد على جريدة أركان حرب الجيش المصري ومجلة جورنال أزياتيك.. ورغم أنه كان يشير إلى الفقرات التي يقتبسها من مصادره في متن الكتاب، إلا أنه لم يسجل ذلك في حواشيه التي اختصها بترجمات لعدد من الأعلام الذين وردت أسماؤهم بالمتن، والتي كان حريصاً على كتابتها، بقدر من الإسراف أحياناً ودون تعليق من جانبه.. ولا ينبغي أن ينظر إلى هذا الكتاب من هذه الزاوية بمقاييس عصرنا وما تطورت إليه قواعد الكتابة العلمية وتقاليدها، ويكفي أن خطة المؤلف واضحة ومصادره واقتباساته مدونة، وآراءه وأفكاره جلية، بغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معه.

أما لغة الكاتب وأسلوبه فمن المسلم به أنه، رغم صغر سنه آنذاك وقلة خبرته في الكتابة (٢٢ عاماً) كان أفضل بكثير من الكتاب والمؤرخين الذين سبقوه، ورغم أنه استخدم مصطلحات هجرت بدلاً من مرادفاتها الحديثة (كدونانمة بدلاً من أسطول) واستخدم أكثر من إسم لعاصمة دولة الخلافة (استانبول، إسلامبول، القسطنطينية) إلا أنه لم يسرف في تكلف السجع، كما ذكر جاك كرابس، ولم يتضح هذا إلا في عنوان الكتاب وخطبته الإفتتاحية، وكذلك في نهاية خاتمته، أما في صلب الكتاب وسياقه، فقد كانت لغته سهلة وعصرية، قياساً إلى لغة من سبقوه من المؤرخين، وباستثناء عدد من أخطاء الإملاء والنحو، فإن الكتاب بشكل عام سليم في لغته وسلس في تعبيراته وواضح في أفكاره.

* * *

بقى على أن أوضح للقارئ ما الذي قصده بكلمة (تحرير) الكتاب هنا، وأود الإشارة إلى أن المؤلف وضع لكتابه حواش كثيرة للأعلام والبلدان، وطابق بعض التواريخ الهجرية بالميلادية، وأن الكتاب اتخذ شكل طباعة القرن التاسع عشر من حيث التصاق الكلمات والحروف، والتصحيح، وعدم تفكير الكتابة أو استخدام علامات الترقيم، مما يعيق القارئ كثيراً عن القراءة والمتابعة والفهم، كما أن النص به كثير من أخطاء الإملاء والنحو والصرف، وقد سجل فريد قائمة ببعضها في نهاية طبعته الأولى، كما أن الكتاب لم تقسم موضوعاته الرئيسية إلى فصول، رغم الفهرس التفصيلي الذي أورده.

لذلك اجتهدت في تحرير النص من ذلك كله، فقدمته بشكل الكتابة العصرية، وحررت النص من أغلاط الطباعة والتصحيح والإملاء واللغة وهفوات التحرير، وصوبت أخطاء النحو، مع ضبط بعض التعبيرات ليستقيم المعنى وأشارت إلى ذلك في الحواشي واستكملت مطابقة التواريخ، وأضفت بعض الحواشي الإيضاحية، واستخدمت علامات الترقيم، وأبرزت الموضوعات الرئيسية في شكل فصول، ملتزماً بخطة المؤلف كما هي. وإذا كان ثمة كلمة أو عبارة لم أستطع تبين معناها أشارت إليها في الحاشية بعبارة (هكذا في الأصل) تاركاً إياها لإجتهاد القارئ.. وعموماً حافظت للمؤلف على النص كاملاً واقتصرت على التصويب في الحواشي، وإن أصلحت الكثير من أخطاء الإملاء والكتابة الواضحة والتي لا لبس فيها، ولم أشر إلى ذلك في الحواشي حتى لا أثقل النص بكثرتها.

وأخيراً، لقد قدم محمد فريد كتاباً مهماً إذا نظر إليه باعتباره تاريخاً عسكرياً لعصر محمد علي، كشف فيه عن مؤرخ راسخ وواعد، لم تلبث الحركة الوطنية أن جذبت به إلى أتونها فأثر العمل السياسي والوطني المباشر والعمل، وإذا كنا قد خسرنا بذلك "مؤرخاً" فقد كسبت مصر زعيماً سياسياً ومناضلاً وطنياً مخلصاً، أصبح من "صناع" تاريخها الحديث والمعاصر.

الهوامش والمصادر

- (١) عبد الرحمن الرافعي: محمد فريد، رمز الإخلاص والتضحية، ط (٣)، النهضة المصرية ١٩٦٢ ص ١٦ - ٣٧.
- (٢) أحمد زكريا الشلق: حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩، ص ٢٩ - ٣٢.
- (٣) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص ٢٧ - ٣١.
- (٤) محمد فريد: تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ ميلادية، مذكرات محمد فريد، القسم الأول، تحقيق وتقديم رؤوف عباس، عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٥، ص ٢٩٢ (حوادث سنة ١٨٩٧).
- (٥) محمد فريد: المصدر السابق، دراسة رؤوف عباس ص ٥٤ - ٥٦.
- (٦) محمد فريد: المصدر السابق (أحداث ديسمبر ١٨٩١) ص ٩٦ - ٩٧.
- (٧) نفس المصدر: دراسة رؤوف عباس
- (٨) محمد فريد: البهجة التوفيقية في تاريخ العائلة الخديوية (المقدمة).
- (٩) وقد نشرها رؤوف عباس عام ١٩٧٥ بعد أن حققها وقدم لها بدراسة وافية عام ١٩٧٥.
- (١٠) وقد نشرها مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر تحت عنوان "أوراق محمد فريد، مذكراتي بعد الهجرة ١٩٠٤ - ١٩١٩" قدم لها بدراسة شاملة عاصم الدسوقي، هيئة الكتاب ١٩٧٨.
- (١١) جاك كرابس جونيور: كتابة التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر، دراسة في التحول الوطني، ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر، هيئة الكتاب ١٩٩٣، ص ٢٣١.
- (١٢) هذا ما كتبه محمد فريد في الجزء الأول من مذكراته في يناير ١٩٩٤، ص ١٩٣.
- (١٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية طبعة دار الجليل، بيروت ١٩٩٧، ص ٣ - ٨.

(١٤) جاك كراس: المرجع السابق، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

(١٥) محمد فريد: البهجة التوفيقية، راجع ما كتبه تحت عنوان "واقعة قونية".

(١٦) جاك كراس: المرجع السابق ص ٢٣٤.

نص كتاب

البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية

تأليف محمد فريد بك

وكيل قلم قضايا الدائرة السنية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم المؤلف

الحمد لله الذى جعل فن التاريخ عبرة لمن اعتبر وتبصرة لمن تأمل واذكر
والصلاة والسلام من الملك السلام على نبينا محمد سيد ولد عدنان القائل حبة
الوطن من الإيمان صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه، من خاضوا
الفيافي والقفار حتى جاء تاريخهم من أحسن الآثار.

﴿أما بعد﴾ فأقول وأنا المتوكل على مولاي المبدئ المعيد عبده محمد فريد
غفر الله له ولوالديه ولأرباب الحقوق عليه: لما كان لفن التاريخ فوائد جمة
وثمرات مهمة تعرب عما مضى من كوارث الأزمان والأوقات وتكشف عن
وجوه الحوادث قناع الشبهات فلكثرة نفعه وعظم وقعه كان له في الكتاب
المبين أصل قوى متين. قال الله تعالى: "يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما
أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون" استدل على بطلان دعوى
اليهود في إبراهيم أنه يهودى وبطلان دعوى النصارى أنه نصرانى بأن التوراة
والإنجيل إنما نزلا من بعده، والله الحجة البالغة والحكمة الدامغة إذ لولا التاريخ
لجهلت الدول ومات في الأيام الآخر ذكر الأول، عنى مع قلة بضاعتى
وكساد صناعتى أن أولف فى وطنى العزيز مختصر تاريخ وجيز يدل على فضل
جنتم كان محمد على باشا الكبير على الشأن من هو أكبر مؤسس لديارنا المصرية
وأشهر مهندس لخططها النيلية على أحسن الوجوه كما يشهد له بذلك الوجوه،
برّد الله مضجعه، وجعل فى رياض النعيم مرتعه.

وحيث كنت ممن تربى فى المدارس الخديوية ذات الشهرة المرضية رأيت أن
أعتنى بتأليف هذا الكتاب قياماً للوطن بواجب أداء الخدمة وشكراً لما للحضرة
التوفيقية على جميعنا من النعمة، حملنى على ذلك انتشار المعارف والعلوم التى

أصبحنا نتسابق في مضمار حليتها يوماً عن يوم، وانتزع ما كان اعتري هممنا من الفتور وخرجنا من الظلمات إلى النور بعناية خديو مصر الأعظم وعزيزها الأكرم ذي العلم الآصفى والحلم الأحقفي والذكاء الأياسى والرأى الذى هو لداء الأعداء الألداء، وإن أعضل أعظم آسى، الشهم القوى الجنان والسهم النافذ فى أكباد أهل العناد وإن كان مجبولاً على الرأفة والحنان، من تغنت بلابل الأفكار من أمداحه بفنون، وترغمت سواجع الأطيّار من الشاء عليه بما أرقص معاطف الغصون، المتحلى بآداب السنة والكتاب، المتخلى عن الميل مع الهوى وهو فى ريعان الشباب، ذى الفضل الجم والبيان الذى أفحم بلغاء عصره وأجم من سكنت هيئته ومحبته قلوب الخاص والعام وأغدق على أرباب دولته بالتشريف والانعام، فكان قبولها دليل إقبالها وتلقيها بحول الله وقوته أصل استقبالها، فكانت على الدوام هى أولى له وهو أولى بها ألا وهو سيد ولاية الأمصار، المعطر ذكره الذى ذاع فى سائر الأقطار، الجدير بالمدح على التحقيق، أفندينا خديو مصر «محمد باشا توفيق» حفظ الله دولته وأنجاله وحرس بعينه التى لا تنام نظاره الكرام ورجال دولته الفخام والله المرجو لبلوغ كل مرام ومنه جلت قدرته الإعانة فى المبدأ وعليه حسن الختام.

* * *

﴿المقدمة﴾

١ - مجئ محمد على إلى مصر وتوليته

ولد ممدّن مصر المغفور له محمد على باشا في مدينة قولة^(١) سنة ١١٨٢ هجرية الموافقة سنة ١٧٦٩ ميلادية وتوفي والده وهو في حداثة سنه وقام بتربيته بعده عمه طوسون أغا، كافل أمر ضبط هذه المدينة إلى أن قضى نحبه فقيض الله له أحد أصدقاء والده للقيام بكفالاته وكان ضابطاً بجيش الإنكشارية^(٢) ومقيماً بفرقة في مدينة (براوستا) بالقرب من قولة بصفة حاكم وجاب للخراج، فرباه مع ولده إلى أن بلغ أشده وصار يمرّنه على قضاء بعض مهماته التي تتعلق بوظيفته، فوجد منه عضداً ومعيناً فيها في بعض القرى التي لا تؤدي ما عليها إلا بالتهديد الشديد أو استعمال القوى العسكرية، فلم يزل كذلك حتى بلغ من العمر ثمان عشرة سنة وذلك يوافق (١٧٨٧) فزوجه بإحدى قريباته ليربطه بعائلته، وكانت زوجته ذات يسار فاشتغل بتجارة الدخان حيث كان يزرع في هذه الجهة كثيراً، وساعده على ذلك ما كان بينه وبين أحد التجار الفرنسيين من العلائق الودية فبرع فيها حتى ربح منها كثيراً ونال شهرة جليلة بين تجار هذا الصنف.

(١) هي بلدة في بلاد مقدونية وطن الإسكندر الأكبر واقعة على بحر الأرخييل وبها ميناء متسع وتجارها عظيمة ويبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة جلهم من المسلمين وتبعد ١٢٨ كيلومتراً عن مدينة سالونيك واسمها عند الرومانيين القنماء نيو بوليس أي البلدة الجديدة.

(٢) كلمة محرفة عن التركية كانت تطلق على فرقة من الجند اسمها السلطان لورخان سنة ١٢٨٩ مسيحية ثم طغت تلك الفرقة وتجبرت حتى صارت تولى السلاطين وتعزلهم تبعاً لأهوائها مع أنها كانت أقوى أسباب تقدم فتوحات الدولة العلية واستمرت على هذا الفساد إلى أن أمر السلطان محمود الثاني بإبطالها فقتل أغلبها في يوم ١٦ يونيه سنة ١٨٢٦.

مجيء محمد علي باشا إلى مصر:

لما احتل الفرنسيون مصر تحت قيادة بوناپرت^(١) في سنة ١٧٩٨ أرسل الباب العالي إلى الأقاليم والبلدان جميعها بتجهيز الجند لإخراجهم منها، وطلب أيضاً من حاكم (برواستا) ثلثمائة جندي فجمعهم، وجعل ولده علي أغا قائداً لهم والمرحوم محمد علي باشا قائم مقام له.

فسارت هذه الكتيبة مع الدونانمة^(٢) العثمانية إلى سواحل مصر حيث نزل الجيش بأبي قير في يوم ١٤ يوليو سنة ١٧٩٩. وكان الجيش العثماني مؤلفاً من ثمانية عشر ألف مقاتل ومعه مدافع كثيرة من الطراز الجديد يتولاها ضباط من الإنكليز، وبعد قليل انتشب الحرب بين بوناپرت والجيش العثمانية واستمر بينهما عدة أيام سجلاً، لثبات العثمانيين بموازة الدونانمة لهم ولعدم يأس الفرنسيين من الانتصار وبعد أن قتل عدد عظيم من الجانبين التجأ العثمانيون إلى مراكزهم، وكان ذلك في ٢ أغسطس سنة ١٧٩٩، ولبثوا فيها إلى أن تمكن الباب العالي والإنكليز من إخراج الفرنسيين من مصر بتقدم جيش تركي مركب من ثلاثين ألف مقاتل من جهة العريش فالصالحية فالقاهرة تحت قيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ونزول الإنكليز إلى الإسكندرية (أول مارث سنة ١٨٠١) ورشيد وصعودهم النيل إلى القاهرة على مراكب صغيرة أتوا بها من بلادهم لهذا الغرض.

وفي أثناء ذلك عاد علي أغا قائد الكتيبة المقدونية، فخلفه محمد علي باشا في رياستها ثم بعد أن أخلى الفرنسيون القاهرة بمقتضى الاتفاق الذي أبرم بين

(١) ولد هذا الرجل الشهير في ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ بمدينة (لاكسيو) بجزيرة (كورسيكا) من عائلة شريفة لكنها قليلة الثروة ثم دخل المدرسة الحربية بباريس سنة ١٧٨٤ وترقى إلى رتبة ملازم ثاني طوبجي سنة ١٧٨٥ واشتهر في استخلاص مدينة طولون من حوزة الإنكليز ثم تعيين قائداً للجيش المحارب في إيطاليا سنة ١٧٩٦ وبعد أن قهر الجيوش النمساوية عاد إلى باريس حيث كلف بفتح مصر فدخل الإسكندرية في ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ وهزم المماليك في واقعة الأهرام (٢١ يوليو سنة ١٧٩٨) ثم رجع إلى فرنسا في أواخر سنة ١٧٩٩ وتولى قيادة الجيوش وصار بعد قليل رئيساً للحكومة (قنصل) وفي سنة ١٨٠٤ نودي به امبراطوراً على فرنسا وقهر جيوش أوروبا التي تألبت عليه في عدة وقعت شهيرة وكان منتهى أمره أن هزم في واقعة واترلو (١٨ يونيو سنة ١٨١٥) ولرسل أسيراً إلى جزيرة سانت هيلانة حيث توفي في يوم ٥ مايو سنة ١٨٢١ (٢) يقصد بها الأسطول البحري (المحربي).

الجنرال (منو) قائد الفرنساوية، الذي ينسب مؤرخوهم خروجهم من مصر لسوء إدارته وعدم كفاءته، وبين الصدر الأعظم والأميرال كيث الإنكليزي في ٢٥ يونيه سنة ١٨٠١. وسافروا إلى بلادهم في أوائل سبتمبر من هذه السنة وتبعهم الإنكليز، وعادت بذلك سلطة الباب العالي إلى ما كانت عليه قبل دخول الفرنساوية، وعينت الدولة العلية خسرو باشا والياً من قبلها على الحكومة المصرية في ثاني عشر جمادى الأولى سنة ١٢١٦^(١) وكان بها إذ ذاك من الجنود أربعة آلاف من الأرناؤد، منهم فرقة تحت قيادة محمد علي باشا، فلما توسم فيه الإستعداد لمهمات الأمور وجه إليه التفاته ورقاه تدريجياً حتى وصل في وقت قريب إلى رتبة (سرشمه) أى رئيس فرقة مؤلفة من ثلاثة أو أربعة آلاف جندي، ومن ذلك العهد أخذ في استعمال الجند واستمالة قلوبهم إليه للإستعانة بهم عند سروح الفرصة.

أما الممالك فكانوا لا يزالون يجادلون ويحاولون الإستقلال، ويرغبون في عدم رجوع مصر إلى الباب العالي وصيرورتها كغيرها من الولايات، فلما بلغ الدولة هذا الخبر أصدرت أوامرها إلى خسرو باشا بأن يقاتلهم حتى يفتنوا عن آخرهم، وكانت قوتهم قد ضعفت لوقوع الشحناء بين رئيسيهم، وهما عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى، اللذان كانا يتنازعان السلطة ويودّ كل منهما لو انفرد بها بدون مشارك أو منازع، فوجه خسرو باشا جماعة من الأرناؤد ومعهم فرقة محمد علي باشا لمحاربة الممالك بالقرب من الجيزة وكانت الدائرة فيها على الأرناؤد قبل وصول محمد علي مع فرقته.

فلما حصل ذلك حنق قائد هذه الحملة غيظاً، وعزم على نسبة عدم انتصاره إلى تأخر محمد علي، وأنه اتفق مع الممالك، فسعى بذلك عند خسرو باشا فسرّ بهذه التهمة الباطلة ومع اعتقاده بطلانها أرسل للمرحوم محمد علي يطلبه ليلاً إلى سرايه بالقلعة محتجاً بأنه وردت إليه أوامر مهمة من دار الخلافة وأنه لابد أن

(١) ٢١ سبتمبر ١٨٠١.

يعلمه بها في الحال وأصرّ على قتله وأمر خدمة بذلك حين دخوله من الباب. فلما وصل الطلب إلى محمد على جزم بداهة بأن هذا الاستدعاء لم يكن إلا للإيقاع به، فتحير في أمره وعلم أنه إن لم يجب طلب الوالى عدّ ذلك عصياناً وإن امتثل وذهب كان في ذهابه ذهاب حياته، فبعد التروى في ذلك ظهر له أرجحية عدم التوجه وآثر نسبة العصيان إليه على قتله وبات ليلته يترقب ما يبدو له وقت الصباح.

فساعده الحظ الأوفر بقيام الجند على خسرو باشا ومأمور ماليته (خزنة دار) لعدم صرف مرتباتهم وكان هذا ناشئاً عن عدم تحصيل الخراج لإستيلاء الممالك على الوجه القبلى وجزء عظيم من الوجه البحرى بحيث لم يكن في حوزة الوالى إلا القاهرة وثمر الإسكندرية وما بينهما من القرى والبلدان.

ثم إن خسرو باشا أمر بإطلاق المدافع على الثائرين حتى خرّب جزءاً عظيماً من القاهرة، ولما علم أركان حرب الوالى المدعو طاهر باشا بذلك نزل من القلعة ليتوسط بين الفريقين، فآثمه الوالى بالإتحاد مع العصاة فاغتاظ طاهر باشا ومال مع الجند وحارب الوالى إلى أن ألزمه بالفرار إلى المنصورة ثم انتقل إلى دمياط وتحصن بها فاتخذ طاهر باشا هربه فرصة للحصول على الولاية، وجمع أعيان البلد وعلماءها وطلب منها أن يختاروه والياً على مصر حتى يعين الباب العالى خلفاً لخسرو باشا، فأقره المجلس على ذلك، لكنه لم يلبث الجند أن عصاه خصوصاً الإنكشارية لعدم صرفه مرتباتهم وصرف مرتبات الأرئود ليس إلا، فحاصروه في سرايه في يوم ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ وأرسلوا إليه اثنين من أغواقهم ليرفعا إليه شكواهم فلم يستعمل السياسة معهما، بل فھرهما على عصيانهما وطلب منهما أن يكونا مطيعين لأوامره فلم يرضيا بذلك واشتد الأمر بينهما وبينهما إلى أن جرد أحدهما سيفه وحز رأسه وألقاها من النافذة وكانت مدة ولايته ستاً وعشرين يوماً.

وبعد قتله رغب الإنكشارية في تولية أحمد باشا أحد أمراء الدولة وكان موجوداً بمصر أثناء توجهه للمدينة المنورة حيث عين والياً، فلم يقبل محمد علي باشا هذا التعيين بل صعد إلى القلعة ومعهُ أربعة آلاف من الأرنبود وأراد أن يقاوم الإنكشارية ولكنه لما علم أنه لا يقدر على المقاومة كاتب عثمان بك البرديسي المقيم بالصعيد وغيره من أمراء الممالك بأن يساعده على طرد الإنكشارية، ويرد مصر إلى حكمهم المطلق كما كانت عليه، فاجتروا بوعده وصاروا يأتون القاهرة أفواجا، حتى استجمع محمد علي باشا من القوة ما يقاوم بها الإنكشارية وزيادة فتل من القلعة وانضم معهم ثم تفرقوا في أنحاء القاهرة وأحرقوا بمنزل أحمد باشا المذكور وهددوه وخبروه بين أمرين: الخروج من مصر أو القتل، فامتل وخرج ثم فبت العساكر داره.

ثم حول محمد علي فكرته إلى الفتك بالإنكشارية خيفة أن يثوروا عليه كما فعلوا مع طاهر باشا فأوعز إلى الأرنبود بذلك فانقضوا عليهم كالسيل المنهمر وسلبوا أموالهم وقتلوا أعيانهم، فاجتمع الباقون منهم بمصر القديمة وعزموا على التوجه إلى الشام من طريق الصحراء فهجم عليهم الأرنبود وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق إلا من اختفى منهم، ففتشوا عليهم البيوت وغيرها ثم أطلوا أيديهم إلى الأهالي وتعدوا عليهم بالأذى وتفرقوا في النواحي وأكثروا من النهب خصوصاً في الوجه البحري.

وكان إذ ذاك محمد خسرو باشا مقيماً بثغر دمياط يقرر على أهلها ومن جاورهم الأموال الباهظة ويسومهم سوء العذاب ألواناً فتوجه محمد علي باشا وعثمان بك البرديسي لمقاتلته، فحارباه وأسراه بعد أن هزما من معه في ١٤ ربيع الأول سنة ١٢١٨^(١) وأرسلاه إلى مصر في سجن القلعة.

أما الأرنبود فارتكبوا من أنواع السلب والنهب وغير ذلك ما يعجز عن وصفه الواصفون، ويكل عن إحاطته العالمون، ثم عاد محمد علي باشا إلى مصر

(١) ٥ يوليو ١٨٠٣.

وتوجه البرديسي إلى رشيد لمحاربة من فيها من العثمانيين فهزمهم وأسر على باشا القبطان، وحصل برشيد ما حصل بدمياط وكان الأرئود كلما مروا بقرية فهبوا أموالها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وآذوا مردانها ولما وصل خبر هذه الفوضى إلى دار الخلافة وعلم الباب العالي فوضوية مصر وأن لا والي لها يؤيد سلطته، أرسل إليها على باشا الجزائري والياً عليها لإخماد هذه الثورة ومعاقبة أمراء الممالك وكل من كان سبياً في عزل خسرو باشا.

فلما وصل إلى الإسكندرية اشتغل بتدريب من أتى معه من الجند على النظام الأوربي، وأظهر له أمراء الممالك الميل والطاعة والإمتثال لأوامر الدولة ودعوه للحضور إلى القاهرة فاغتر بذلك الوعد وخرج من الإسكندرية قاصداً العاصمة فخرج عليه الأرئود في الطريق وقتلوا من كان معه من الجنود العثمانية وأسروا الباشا وأتوا به إلى مصر أسيراً لا أميراً، ومحكوماً لا حاكماً، ثم أخرجوه الأمراء بقصد إرساله إلى الشام من طريق الصحراء وأمروا من رافقه من الجند بقتله في الطريق فقتلوه قبل أن يصلوا إلى الصاحية.

وفي أثناء هذه المدة عاد محمد بك الألفي من انكلترا، التي كان قد ذهب إليها ليطلب منها مساعدته على الإستقلال بمصر وإبادة الباقي من الأمراء العاملين على معاكسته ويقال أنه وعدها بتسليمها بعض الثغور لو نال مرغوبه بمساعدتها. ولما علم محمد على باشا بقدوم الألفي خشي من اتحاده مع البرديسي فيضيع عمله سدى، فعمد إلى توغير صدر البرديسي على محمد بك الألفي فنجح في مسعاه حتى هم بالفتك به غدراً ولولا هرب الألفي إلى الصعيد لقتل بدسياسة البرديسي ومحمد على وبعد هرب الألفي إلى مصر العليا هاج الأرئود على البرديسي لطلب مرتباتهم (وربما كان ذلك بإيعاز من محمد على) فأمر البرديسي بضرب الضرائب الشديدة على أهالي العاصمة وخصوصاً الأغنياء من بينهم لإرضاء الجند فتدمرت الأهالي من هذا الظلم الدائم وشكوا أمرهم إلى محمد على باشا، لما كانوا يرونه فيه من الميل إليهم والحنو عليهم فتلقاهم بالبشر

والإيناس ووعدهم بالمساعدة على دفع المظالم، ثم بعد قليل اتحد الأهالى مع الأرثود وهاج الكل على البرديسى وحاصروه بمزله وأرادوا قتله لكنه تمكن من الفرار وحارب مماليكه الجند وقاوموهم مقاومة عنيفة، فصعد محمد على باشا إلى القلعة وأحكم مدافعه على الجهة التى بها منزل البرديسى فخرّب أكثر منازلها وانجلت هذه المعركة عن خروج كافة أمراء المماليك من القاهرة فنهبت بيوتهم وسبيت نساؤهم ويتمت أطفالهم.

فصفا الجوّ لمحمد على باشا، لكن لحسن سياسته لم يرغب إظهار ما يكُنّه صدره من الإنفراد بالحكم والإستقلال بولاية مصر بل تربص حتى تساعده الفرص فينال مرغوبه بلا عناء ولا نصب.

تعيين محمد على باشا والياً على مصر:

لما خرج عثمان بك البرديسى وكافة الأمراء من القاهرة، دعا المرحوم محمد على باشا أعيان البلد وعلماءها وقال لهم أنه لا يليق بقاء مصر بدون وال يواليتها ولا سائس يسوسها ولا راع يراعيها، وأن الأولى إخراج خسرو باشا من سجنه بالقلعة وجعله والياً فأقر المجلس على ذلك وأخرج الباشا من السجن. لكن بعد يوم ونصف ثار عليه رؤساء الأرثود وطلبوا من محمد على إخراجهم من مصر وطرده منها فأذعن لطلبهم وأرسله تحت الحفظ إلى رشيد ومنها إلى اسلامبول، ثم طلب محمد على من الأرثود أن يعين أحمد باشا خورشيد والياً على مصر فرضى الكل بذلك بشرط تولية محمد على قائم مقام له وبذلك انحسم النزاع وحرر بذلك محضر وأرسل للباب العالى للتصديق عليه فصدق على ما حصل وأرسل بذلك فرماناً مع مخصوص من طرفه فقام خورشيد باشا من الإسكندرية وانتقل إلى القاهرة وحصل بعد ذلك وقائع لها وقع بين الجند والمماليك الذين كانت سلطتهم مبسوطة على الصعيد إلى الجيزة. وبينما محمد

على مشغل بمحاربتهم استحضر خورشيد باشا طائفة من الدلاة^(١) ليجعلهم حرساً لنفسه وذلك لتوجسه خيفة من محمد على وجنوده الأرئود وعدم ثقته بهم، لا سيما وكان الأهالي يميلون كل الميل إلى محمد على لإستعماله اللطف واللين معهم خصوصاً مع العلماء والأعيان.

فلما علم محمد على بحضور هؤلاء الدلاة عاد بسرعة إلى القاهرة واشتغل بمقابلة علمائها وصار يشنع لهم على الدلاة وما ارتكبهه وكانوا قد انتشروا في البلد كالجراد ينهبون وفي العالم يقتلون وفي النساء يهتكون ويأخذون أموال الناس ظلماً وبهتاناً وصار محمد على يحرض الناس على رفع شكواهم إلى الوالي فاتبعوه وتظلموا لخورشيد باشا، فكان يعدهم بالنظر في شكواهم والتأمل في بلواهم ولا يمكنه الوفاء بوعدته مراعاة للجند حتى ملّ الأهالي من إزدياد الجور والتعدى وانتشر الهياج في كافة أنحاء البلد وخاف كل فريق من الآخر.

وبينما هم على ذلك إذ ورد فرمان بتولية محمد على باشا على جدة فأظهر الإمتثال وأخذ يتأهب للسفر فاضطرب العسكر والأهالي لعدم رضا الأهالي بمفارقتهم، وفي أثناء ذلك صادف أن طلب الجند صرف مرتباتهم فأحاهم محمد على باشا على الوالي ولما لم يكن بيده ما يسدّ به عوزهم، صرح لهم بنهب القليوبية فتفرقوا فيها شذر مذر ونهبوها وسبوا النساء وباعوا الأولاد فتغيرت قلوب الأهالي وأبغضوا الوالي ومالوا إلى محمد على لما كانوا يرونه فيه من الحزم والمساعدة فألح العلماء والأعيان، وجلوا على محمد على باشا بعدم السفر إلى جدة وانتخبوه والياً عليهم ثم أرسلوا إلى خورشيد باشا بذلك فقال لهم إني مولى من طرف السلطان فلا أعزل إلا بأمره، وتحصن في القلعة، أما جميع القوى العسكرية من أرئود ودلاة وغيرهم فأنحازت إلى محمد على إلا القليل وكتبوا

(١) قال الجبرتي أن الدلاة طائفة تنتسب إلى طريقة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأكثرهم من نواحي الشام وجبال الدروز والمتولة يركبون الأكليش وعلى رؤسهم الطرايطير السود مصنوعة من جلود الغنم الصغار طول الطرطور نحو ذراع وهذه الطائفة مشهورة في دولة العثمانيين بالشجاعة والإقدام في الحروب ويوجد فيهم من هم على طريقة حميدة ومنهم دون ذلك وقليل ما هم اهـ

باشترأكهم مع العلماء إلى الباب العالي يطلبون تولية محمد على على مصر فأجاب الباب العالي طلبهم أملاً في حسم النزاع وأصدر بذلك فرماناً وصل إلى القاهرة في ٩ يولييه سنة ١٨٠٥.

لكن لم يقبله خورشيد باشا بل ظنه إفكاً افتراه أعداؤه فحاصره محمد على في القلعة ورتب على أبوابها الحفر من الأرثوذكس إلا أنهم لم يفعلوا ما أمروا به لعدم صرف مرتباتهم فتركوه وتفرقوا في البلد ينهبون ويسلبون، إلا أن ذلك لم يؤثر في عزيمته بل رتب بدلهم خفراء من الأهالي وقلدهم بالسلاح.

وبعد قليل حضر قبطان باشا من قبل الدولة العلية ومعه أوامر مشددة بإخراج خورشيد باشا، فامتل وخرج مع بعض الدلاة إلى الجهات البحرية يعثو في الأرض فساداً فأرسل خلفهم محمد على بعضاً من جنده فلحقوهم وأجلوهم عن مصر، فذهبوا إلى الشام واستقل محمد على بولاية مصر ولم يكن له فيها منازع إلا من بقى من المماليك بعد هذه المناوشات والحروب.

ثم إن الإنكليز طلبت من الباب العالي عزل محمد على أو نقله إلى ولاية أخرى لأمر بدا لها في ذلك، سنأتى على تفصيله قريب، فسمع الباب العالي مقالها وأرسل إلى مصر دوناتمة تحت إمرة قبطان باشا ومعه فرمان بتولية محمد على باشا سلايك وتعيين من يدعى موسى باشا مكانه، فأتى الإسكندرية ومعه فرقة من العساكر المنتظمة وأمر بإعادة أمراء المماليك إلى ولاية الأقاليم. ولما بلغ هذا فرمان إلى محمد على باشا لم يظهر عدم الإمتثال بل استعد للسفر فاجتمع عليه العلماء والقواد والجنود وأخبروه أنهم لا يرضون بخروجه، وأنهم يحررون خطاباً للباب العالي ويرسلونه مع ولده إبراهيم بك ويكون مضمونه إظهار رغبتهم في بقاءه عليهم والياً لما رأوه منه من مراعاة جانب الأهالي ومنع مظالم الجنود عنهم واتباعه مشورة العلماء في الأمور المهمة، ولما وصل إبراهيم بك إلى الإسكندرية رجع معه قبطان باشا بمراكبه ومعه موسى باشا الذى أتى ليكون والياً فلما وصلوا إلى إسطنبول وعرض الأمر على الباب العالي، قبل السلطان

ما طلبه المصريون وأرسل إلى مصر فرماناً بشييت محمد علي باشا على ولايته فوصلها فرمان في أواخر شعبان سنة ١٢٢١ (٧ نوفمبر سنة ١٨٠٦).

لكن لم ينقطع أذى الجند عن الأهالي بل كان الخلاف عاماً في جميع الأنحاء والشغب ضارباً أطنابه بين صفوف العساكر، فالأرتود تخالف الإنكشارية وتقاتلها، والدلاة تعادى كل فرقة وتنازعها، والكل معاد للأهالي عاص للوالى يعيشون ويعربدون في أنحاء القاهرة وينهبون الأهالي ويطردونهم من منازلهم ويسكنونها واستعملوا في النهب والسلب أنواع الحيل فيما لم يجدوا إليه سبيلاً فربما جلس العسكرى على حانوت رجل بدعوى الإستراحة أو اشتراء شئ ثم يقوم ويعود ثانياً قائلاً إني نسيت وتركت هنا كيساً، ويجعل ذلك سبيلاً لإهانة صاحب الحانوت ونهب ما عنده وربما زاد على ذلك ما لا يخطر بالبال ولم يحصل مثله عند الأمم الجائلة في ظلمات التوحش وفيافي الهمجية. فشاركوا الباعة في عروضهم وساهموا فيما يربحون من أموالهم، هذا والأهالي يتحملون كل هذه الشدائد ولا يهتمون بمنعها بل يتجلدون بالصبر والتضرع إلى الله في أن يخلصهم مما نزل بهم من شرور هذه الفئة الباغية فكانوا متقلين على جهرات البلايا في بحار الرزايا تضيق صدورهم ولا تنطلق ألسنتهم.

ولما أتى إلى محمد علي باشا فرمان المؤذن ببقائه في ولاية مصر أخذ في استعمال الوسائل لإراحة البلاد من شر هؤلاء الطغاة تارة بالملاينة وأخرى بالحاربة، حتى أذعن له أمراء الممالك فأقطعهم البلدان والأقاليم وأعطى لشاهين بك إقليم الفيوم وثلاثين بلداً من أقاليم البهنسا وعشرة من الجيزة - ومما ساعد على استتباب الأمن موت محمد بك الألفى الذى كان من أكبر أمرائهم جسارة وإقداماً، وعقب موته مات عثمان بك البرديسى فكانت وفاة الأول في ديسمبر سنة ١٨٠٦ والثاني في يناير سنة ١٨٠٧، ثم حضر إليه نعمان بك من أمرائهم فأكرمه وزوجه إحدى جواريه وأعطاه بيت المهدي بدرب الدليل. وهكذا صار يكرم كل من أتى إليه منهم كعمر بك وغيره ثم أتى إليه إبراهيم بك الكبير

فولاه إقليم جرجا وهذه الحالة لم يعد محمد على باشا شاغل من جهة الأمراء ولا أتباعهم، لكنه لم يزل يخشى غدرهم وخيانتهم عند حصول أقل أمر يغضبهم وتيقن أن لا راحة له إلا بعد استئصال جرثومتهم الخبيثة وتطهير القطر المصري من دنس وجودهم، ولقد ساعده الحظ على تتميم ذلك وتمكن من إبادتهم كما سيجي.

* * *

٢ - دخول الإنكليز مصر

لما علم الإنكليز بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر يتسوا من نوال مرغوبهم بالطرق السلمية وعمدوا إلى استعمال القوة وأرسلوا إلى الإسكندرية إسطولاً بحرياً مركباً من سبعة عشر مركباً حريباً يقل جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف جندي تحت قيادة الجنرال (فريزر) لإحتلالها فوصلت إلى الثغر في أول المحرم سنة ١٢٢٢ (١٠ مارث سنة ١٨٠٧) وأرسل قائد الجيش إلى حاكم المدينة أن يأذن لهم بالتزول إلى البر، لأنهم يريدون احتلال الثغر محافظة على مصر من الفرنسيين خوفاً من أن يعيدوا الكرة عليها فأجابهم الحاكم بأنه لا يأذن لهم بذلك إلا إذا كان معهم أمر من الدولة العلية، فلما وجد الإنكليز أنه لا بد من التزول إلى البر عنوة تأهبوا للقتال وأمهلوا المدينة أربعاً وعشرين ساعة، وقبل انقضاء هذا الميعاد سلم حاكم المدينة، المدعو أمين أغا من ضباط الإستانة، المدينة بدون أن يتعرض لمنع خروج العساكر إلى البر ولا لمنع تقديمهم نحو المدينة، بل قبل العار وسلم نفسه ومن معه من العساكر من غير أن يرمى شيئاً من المقذوفات عليهم وبهذه الكيفية تمكن الجنرال الإنكليزي من أخذ هذه المدينة الشهيرة بدون أن يفقد أحداً من عساكره^(١) فاحتلها الإنكليز في صبيحة يوم الجمعة ١٠ محرم سنة ١٢٢٢.

وذكر الجبرتي أنهم شرطوا مع الأهالي أنهم لا يسكنون البيوت قهراً عن أصحابها بل بالمؤاجرة والتراضي، ولا يمتنعون المساجد ولا يعطلون الشعائر الإسلامية وأعطوا أمين أغا نظير خيانتة أماناً على نفسه ومن معه من العساكر وأذنوا لهم بالذهاب إلى أي محل أرادوه ومن كان له دين على الديوان يأخذ

(١) الإسكندرية مدينة بحرية واقعة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وتبعد عن القاهرة بمسافة ١٣٢ كيلومتراً أسسها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ قبل المسيح واشتهرت بمكتبتها الشهيرة التي ينسب حرقها إلى عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو خطأ بين كما يشهد التاريخ ثم فتحها الرومانيون سنة ٣٠ قبل المسيح ودخلها المسلمون سنة ٦٤٠ مسيحية (سنة ٢٠ هجرية) ثم استولى عليها السلطان سليم الأول العثماني سنة ١٥١٧ ميلادية.

نصفه حالاً والنصف الثاني مؤجلاً ومن أراد السفر في البحر من التجار وغيرهم يسافر في خفارتهم إلى أى جهة أراد ما عدا إسلامبول، وأما إلى الغرب والشام وتونس وطرابلس ونحوها فطلق السراح ذهاباً وإياباً وأن محكمة الإسلام تكون مفتحة الأبواب للمتقاضين تحكم بشريعتها الإسلامية ولم يكلفوا أهل الإسلام بإقامة دعوة عند الإنكليز بغير رضاهم. اهـ بتصرف.

واقعة رشيد:

أما الجنرال الإنكليزى، فمن بعد أن استراح بضعة أيام وجهاز ما يلزم، أمر بتوجيه بعض عساكره إلى رشيد ليكون له في القطر موقع آخر وكان عدد من أرسل من الجند إلى ثغر رشيد ألفى جندي منهم مائتان من البحرية، ولم تكن حامية رشيد مؤلفة إلا من بضع مئتين يرأسهم شخص ذو صداقة وشجاعة يسمى على بك، فلم يقلد أمين أغا حاكم الإسكندرية في تسليمه المدينة بل صمم على المدافعة والمكافحة عن المدينة بكتيبة قليلة العدد والعدد على قدر الإستطاعة، ثم أمر عسكره وشدد عليهم بأن لا يطلقوا بنادقهم مطلقاً حتى يشير إليهم ولما شاهد عساكر الإنكليز ما شاهدوه من هذه الحالة ظنوا أنهم لا يجدون مدافعة بل يدخلون ثغر رشيد كما دخلوا الإسكندرية وكانوا في تعب من السير فدخلوا البلد بدون احتراس وانتشروا في أسواقها حيث وجدوها خالية خاوية، ثم بحثوا عن أمكنة يلتجأون إليها ويستريحون فيها وأغلبهم رموا أسلحتهم وناموا في الطرق، فلما رأى ذلك على بك وتحقق التمكن منهم، خرج عليهم بقليل من العسكر وأطلق النار على كل جهة كانوا موجودين فيها، فنالهم من ذلك دهشة عظيمة كأنما بعثوا من القبور وأخذ الفشل فيهم ومما زاد في ارتباكهم إطلاق العسكر بنادقهم عليهم من الأبواب والشبابيك وأسطحة البيوت فبعد قليل من الزمن فرت الجنود الإنكليزية هاربة بدون انتظام إلى جهة الإسكندرية بعد أن هلك اللواء القائد لها وكثير أيضاً من الضباط ومائة جندي وأخذ منهم مائة وعشرون أسيراً ومدفعان، أما الهاربون فلم يزالوا يتحملون عناء السفر حتى وصلوا إلى الإسكندرية.

وذكر الجبرتي أنه في يوم الأحد السادس والعشرين من محرم سنة ١٢٢٢^(١) أشيع بالقاهرة خبر وصول رؤس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق فهرع الناس بالذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم لملاقاهم وطلعوا بهم إلى البر ومعهم جماعة العسكر المتسفرين، فأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا بهم من باب النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم ضابطان وهما راكبان على حمارين والباقي مشاة في وسط العسكر ورؤس القتلى معهم على نابيت وقد تغيرت وأنتت رائحتها وكانت عدة الرؤس أربعة عشر والأحياء خمسة وعشرين ولم يزلوا سائرين بهم إلى بركة الأزبكية، وضربوا عند وصولهم شكاً وطلعوا بهم إلى القلعة وفي اليوم التالي وصل أيضاً إلى القاهرة عدة من الرؤس وثلاثة عشر أسيراً من الإنكليز وساروا بهم إلى القلعة بمثل ما حصل بهم في اليوم الذي قبله.

ولما وصل إلى محمد علي باشا خبر وصول الإنكليز إلى الإسكندرية وكان بالصعيد يحارب المماليك كتب إليهم بالصلح وأرسل إليهم المشايخ، يخشونهم على الاتفاق معه لمحاربة الإنكليز فلم يقبلوا الصلح بل قالوا: لو تحققنا الأمن والصدق من مرسلكم لما حصل منا خلاف ولا حاربناه ولا قاتلناه ولكنه كثيراً ما يعدنا بمثل هذه المواعيد عند الإحتياج إلينا ثم لا يفي بما وعد، وحيث أنه قد قُدمت دورنا وتفرق شملنا ولم يبق لنا ما نأسف عليه ونتحمل المذلة من أجله وقد ماتت إخواننا ومماليكنا فنستمر على ما نحن عليه حتى نفنى عن آخرنا ويستريح باله من جهتنا، فلاطفهم المشايخ وأقنعوهم بالصلح وقالوا لهم أنه أولى من تداخل الأجانب بينكم فقبل الكل وساروا إلى القاهرة.

وفي اليوم الثاني من شهر صفر سنة ١٢٢٢^(٢) عاد محمد علي باشا وأخذ في تحصين القاهرة بمساعدة قنصل فرانسوا واستمر الأهالي في قلق واضطراب والجند

(١) ٧ أبريل ١٨٠٧.

(٢) ١١ أبريل ١٨٠٧.

في تأهب وسفر إلى يوم ١٤ منه، فوردت الأخبار بانتصار المصريين على الإنكليز في ضواحي رشيد وقد عادوا إلى مهاجمتها بعد انهزامهم أول مرة. وفي يوم ١٥ منه وصل إلى القاهرة من أسر في هذه الواقعة ورؤس بعض القتلى فأطلقت المدافع من الأزبكية والقلعة استبشاراً ثم أمر الباشا بإرسال الأطباء إلى القلعة لمعالجة الجرحى من أسراء الإنكليز والإعتناء بهم وتمييز الضباط عنهم في المأكل والمشرب ورتبت لهم المرتبات وقضوا مدة أسرههم في مصر بغاية الإكرام.

وإليك تفصيل هجوم الإنكليز على رشيد نقلاً عن جريدة أركان حرب الجيش المصري وذلك أنه لما وصل الإنكليز إلى الإسكندرية وجرى ما أسلفناه اغتاز الجنرال (فريزر) مما حصل لجنده في رشيد فشكل سرية أخرى وأرسلها إليها وكانت مركبة من ثلاث آلاف نفر وستة مدافع وأربعة قطع من الهوآن تحت قيادة الجنرال (استيوارت) فلما وصلت تلك السرية إلى رشيد في ١٨ إبريل سنة ١٨٠٧ وضع الجنرال المذكور بطريقتين في القطعة المرتفعة من ناحية أبي مندور وتمكن من قرية الحماد ووضع فيها خمس بلوكات لأجل محافظة ووقاية الخلف، ثم ابتداء المحاصرون، أي الإنكليز، في ضرب النار فكلما تذكر المحصورون الظفر الذي نالوه في الوقعة الأولى صبروا وتجلدوا وكانوا يرهبون الحاصرين في غالب الأحيان بخروجهم إلى خارج البلدة وهجومهم عليهم فمكث ضرب النار أسبوعين بلا ثمرة وفي آخر تلك المدة أي في ٢١ إبريل تعجب الفريقان من الإمدادية التي أتت على حين غفلة من طرف محمد علي باشا فاستبشر المحصورون بذلك، وكان مقدار الإمدادية المذكورة ألفاً وخمسمائة سوارى وأربعة آلاف بيادة، وفي الحال انقسمت تلك العساكر إلى فرقتين إحداها صغيرة واتخذت موقعها أمام الحماد والثانية كبيرة تحت رئاسة الكيخيا واتخذت موقعها في برنبال^(١) وكان عساكر الفرقتين يشاهد بعضهم بعضاً.

(١) هي قرية بمديرية الغربية بمركز دسوق على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد في شمال قرية مطوبس بينها وبين رشيد نحو ساعتين ومنها إلى فوة ٤ ساعات تقريباً وهي قرية مبنية بالآجر واللبن وبها جوامع ومنارات وأطيانها متصلة ببحيرة البرلس ويزرع فيها الأرز كثيراً وسائر الأصناف المعتادة وكان لمحمد علي باشا بها قصر ينزله وفيه توفي ولده الأمير أحمد باشا الشهير بطوسون ليلة الأحد ٧ ذي القعدة سنة ١٢٣١ هجرية.

وعند فلق صباح اليوم التالي هجمت الفرقة الصغيرة على مدفع الإنكليز الذي كان بالحماد بعساكر البيادة والسوارى لكنها تقهقرت فتبعها أحد بلوكات الإنكليز إلى مسافة بعيدة حتى انفصل البلك المذكور عن بقية الجيش وحينئذ رجع سوارى المصريين بالهجوم على ذلك البلك ففرقه وقتلت منه عشرين نفراً وأسرت خمسة عشر، وفي الليلة التالية اقتحم الكيخيا بعساكره نيران الإنكليز واجتمع مع قائد الفرقة الأخرى وفي هذه الليلة أخذ الجنرال (استيوارت) عساكر قره قول الحماد بخمس بلوكات فصار جميع القبول ٨٥٠ نفراً تحت قيادة الأميرالاي (مكليود) وكان الأميرالاي المذكور يظن حينئذ أنه لم يكن أمامه خلاف الفرقة الصغيرة لكنه لما رأى في الصباح أن جميع الجيش اجتمع أمامه وأخذ في السير لمهاجمته أمر بالتقهقر، إلا أنه غلط في تقهقره بسبب تجزئة قوته إلى سرايات فجعل أولها مركبة من ثلاث بلوكات تحت رئاسة البيكباشي (مور) وثانيها من بلوكين تحت رئاسته والثالثة من خمس بلوكات ومدفعين تحت رئاسة البيكباشي (وجلستر) ثم لم يسير أيضاً تلك السرايات مع بعضها بل جعلها منفصلة عن بعضها بمسافات بعيدة، فعند ذلك انتظرت السوارى المصرية سرية البيكباشي (مور) حتى انفصلت من السريتين الآخرين وأحاطت بها من كل جانب ومكان حتى لم ينج من القتل إلا من أسر وهو البيكباشي (مور) وقليل من الأنفار، ولما بعد الأميرالاي (مكليود) مسافة نصف ميل أراد الرجوع والاجتماع مع سرية البيكباشي (وجلستر) لكن كان ذلك صعب المنال لأن السوارى المصرية لم تمهله بل أحاطت به فالتزم بأن يشكل سريته بهيئة قلعة وتمكن بذلك من صد السوارى المصرية إلا أن عساكر البيادة أطلقت عليه ناراَ مدراَراً وقتلته وكثيراً من الجند، فأخذ اليوزباشي (ماكي) مكانه من الرئاسة وصمم على اقتحام وسط المصريين كي يلحق بإخوانه لكن لم تزل نيران بنادق المصريين تنهال عليه كالسيل، حتى لم يصل إلى البيكباشي (وجلستر) إلا بنفر قليل مقداره سبعة أشخاص، وأما البيكباشي (وجلستر)

فدافع بعد وصول الميرالاي (مكليود) بشجاعة وإقدام، لكنه التزم في آخر أمره أن يسلم نفسه ومن معه.

هذا وأما الجنرال (استيوارت) فأسرع في تسمير المدافع الكبيرة وحرق الذخيرة ثم قفل راجعاً إلى الإسكندرية مع ألفى نفر بقيت ممن كان معه من الجند وبعد الهزيمة الثانية التي حصلت للإنكليز أمام رشيد لم ير الجنرال (فريزر) من الحكمة أن يهاجم رشيد مرة أخرى حتى يحضر له إمداد من انكلترا، وخاف من هجوم عساكر الوالي عليه فأخذ في تحصين المدينة. اهـ بتصرف.

ولما رجع الإنكليز إلى الإسكندرية بعد هزيمتهم ثاني مرة أمام مدينة رشيد قطعوا جسر أبي قير الحائل بين مياه البحر المالح وأرض البحيرة لقطع المواصلات بين الإسكندرية وداخل القطر فعم الماء أغلب جهات البحيرة وخرّب بلادها وأتلف أرضها ومزروعاتها وأعدم منها نحو مائة وأربعين بلداً بقي أغلبها إلى الآن وهي ما تراه بين إتكو وبحيرة المعدية إلى المحمودية وما جاور بحيرة مريوط ممتداً بالقرب من دمنهور.

خروج الإنكليز من مصر:

وفي وسط جمادى الثانية سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧م) سافر الباشا بنفسه إلى دمنهور وتكررت بينه وبين الإنكليز المكاتبات في شأن إخلاء الإسكندرية وتم بينهما الاتفاق على إخراجها وتعهد محمد علي باشا بتسليم ما أخذ من عساكرهم أسرى في أثناء الحرب. وفي ٥ رجب أتت أوامر الباشا إلى العاصمة بإرسال الأسرى فأرسلوا إلى الإسكندرية، وبمجرد وصولهم نزل الإنكليز مراكبهم ورجعوا إلى بلادهم وكان ذلك في ١٠ رجب سنة ١٢٢٢ (٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) ولما وصل إلى القاهرة خبر زوال الخطر من احتلال الإنكليز الثغر الإسكندري ودخول محمد علي باشا بها، أطلقت المدافع من القلعة ثلاثة أيام متوالية في الأوقات الخمس.

* * *

٣- حرب الحجاز

وفي آخر شهر ديسمبر من السنة المذكورة أتى فرمان لمحمد علي باشا من الدولة العلية يؤيده على ولاية مصر ويأمره فيه بإرسال تجريدة من مصر إلى العرب الوهابيين الذين تملكوا بلاد العرب ومدينتي مكة والمدينة المنورة وصاروا يؤذون حجاج بيت الله الحرام واتسع حكمهم وتفاقم أمرهم حتى خشيت الدولة العلية بأسهم وجردت الجيوش لهم فعادوا بالخبية والوبال.

ولقد أردت قبل تفصيل ما جرى بين المصريين وبينهم من الحروب أن أذكر نبذة من مذهبهم عثرت عليها بالجملة الفرنسية المسماة (جورنال آزياتيك) نشرت في هذه المجلة باللغة العربية وها هي بحروفها:

إن الوهابيين قوم من العرب تمذهبوا بمذهب عبد الوهاب وهو رجل ولد بالدرعية، وهي مدينة بأرض العرب من بلاد الحجاز، وكان من وقت صفوه تظهر عليه النجابة وعلو الهمة والكرم وشب على ذلك واشتهر بالمكارم عند كل من يلوذ به وبعد أن تعلم مذهب أبي حنيفة في مدارس بلاده سافر إلى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ عنهم حتى اتسعت معلوماته في فروع الشريعة وخصوصاً في تفسير القرآن ثم عاد إلى بلاده في سنة ١١٧١ هجرية (١٧٥٧م) فأخذ يقرّر مذهب أبي حنيفة مدة ثم أدته ألمعيته إلى الإجهاد والاستقلال فأنشأ مذهباً مستقلاً وقرّره لتلاميذه فاتبعوه وأكبوا عليه ودخل الناس فيه بكثرة وشاع في نجد والإحساء والقطيف وكثيراً من بلاد العرب مثل عمان وبنى عتبة من أرض اليمن، ولم يزل أمرهم شائعاً ومذهبهم متزايداً إلى أن قبض الله لهم عزيز مصر محمد علي باشا فأطفأ سراجهم في سنة ١٢٣٢ (١٨١٦م) وكسر شوكتهم وأخفى ذكرهم وهالك رسالة من كلامهم تدل على بعض مذهبهم ومعتقداتهم:

اعلموا رحمكم الله أن الحنيفة ملة إبراهيم عليه السلام وهي أن تعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فإذا عرفت أن الله سبحانه وتعالى خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحديث إذا دخل في الطهارة كما قال تعالى "ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه من جلب خير أو دفع ضرر فقد أشرك في العبادة كما قال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين" وقال تعالى "والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير" فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يا رسول الله أو يا ابن عباس أو يا عبد القادر زاعماً أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه فهو المشرك الذي يهدر دمه وماله إلا أن يتوب من ذلك، وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذي يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجئ إلى غير الله أو يستعين بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو أيضاً مشرك، وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذي قال الله فيه "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" وهو الذي قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين وأمرهم بإخلاص العبادة كلها لله سبحانه وتعالى.

ويصح ذلك أي التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله في كتابه أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرّون أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت

ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون" وقوله تعالى "قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون" فإذا اعترفوا بذلك ثم توجهوا إلى غير الله يدعونه من دونه وهو لا يملك كشف الضر عنهم ولا تحويله فلا بد أن يشركوا.. القاعدة الثانية أنهم يقولون ما نرجوهم إلا لطلب الشفاعة عند الله سبحانه وتعالى ونحن نريد من الله لا منهم ولكن بواسطتهم وشفاعتهم وهذا شرك أيضاً والدليل عليه قول الله تعالى "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون" وقال تعالى "الذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار"، فإذا عرفت هذه القاعدة أيضاً فاعرف القاعدة الثالثة وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تبرأ من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محظوراً" ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين بل حكم على الجميع بالكفر وقتلهم حتى يكون الدين كلمة الله، وإذا عرفت هذه القاعدة فعليك بالقاعدة الرابعة وهى أنهم يخلصون لله في الشدائد وينسون ما يشركون به والدليل على ذلك قوله "فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون" وأهل زماننا يخلصون الدعاء في الشدائد لغير الله سبحانه، فإذا عرفت هذه القاعدة فسلم القاعدة الخامسة وهى أن المشركين في زمن النبى أخف شركاً من عقلاء مشركى زماننا لأن أولئك يخلصون لله في الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم في الشدة والرخاء ولم يعلموا قوله عليه السلام تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة والله أعلم بالصواب.

هذا ولما أتى ذلك الفرمان إلى محمد على باشا بذل جهده في تجريد العسكر وجمع لهم ما يلزم من مؤن وذخائر مع صعوبة هذا الأمر في الوقت الذي كانت فيه الممالك متحزبة عليه، فضلاً عن أن خزينته خالية إذ ذاك من النقود ولما كان على يقين من أن السفر بطريق البر صعب يهلك فيه كثير من العساكر وبهائم النقل أيضاً، أصرّ على أن يتخذ طريقه البحر الأحمر حيث كان سهلاً لنقل جنوده إلى فرضة جدّة، ولم يغيره عن هذا العزم عدم وجود مراكب له لنقل الجند بل أصدر أوامره إلى سائر جهات القطر المصري بجمع الأخشاب وما يلزم لإنشاء خمسة عشر سفينة^(١) فوردت ووضعت في الترسانة ببولاق مصر القاهرة وتجهزت للتركيب ثم نقلت على ظهور الجمال إلى ميناء السويس، فركبت هناك وبينما هو آخذ في التجهيز إذ حضر رسول من قبل السلطان إلى القاهرة ومعه سيف برسم طوسون باشا ولد المرحوم محمد على باشا المعين لقيادة الحملة المزمع إرسالها إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين، وجواب من الباب العالي يحثه على الإسراع في إرسال تلك الحملة، فسافر إلى السويس لإنجاز تلك التحضيرات وبينما هو مقيم بها إذ اكتشف مكيدة من الممالك لإختطافه أثناء عوده من السويس إلى مصر، ولما كان دائماً يدبر في طريقة للتخلص من شرهم قبل سفر الجند إلى بلاد العرب خوفاً من قيامهم عليه والفتك به، انتهز هذه الفرصة لإتمام ما ينويه لهم منذ دخوله مصر ولأجل أن لا يقع في أيديهم ركب هجيناً جيداً أوصله إلى القاهرة في ليلة واحدة وليس معه إلا خادم واحد حتى نجا بنفسه من تلك المهلكة وشرع في تنفيذ ما عزم عليه.

(١) قال الجبرتي في حوادث سنة ١٢٢٤ أن محمد على باشا لما عزم على حرب الوهابيين شرع في شهر ذي الحجة في إنشاء مراكب لبحر القلزم فطلب الأخشاب الصالحة لذلك وأرسل المعينين لقطع أشجار التوت والنبق فتجمعت من جهتي القطر القبلي والبحري وجعل بساطل بولاق ترسخانة وورشات وجمعوا أرباب الصنائع كالنجارين والنجارين وغيرهم ليهيؤوها وكانت تحمل الأخشاب على الجمال وتركبها الصنائع بالسويس ويقلطونها ويبيضونها في البحر فعملوا أربع سفن كبار إحداها تسمى الإبريق وخلاف ذلك ودلوات لحمل المسافرين والبضائع.

واقعة القلعة:

تفصيل ذلك على ما جاء في الجبرتي إن العزيز محمد علي باشا لما قلد ابنه طوسون سر عسكر الركب المتوجه إلى الحجاز وخرجت جيوشه إلى قبة العزب ونوه بتوجيه العساكر إلى جهة الشام لتمليك يوسف باشا محله الذي كان عزل عنه، وجعل رئيسهم شاهين بك الألفي واختار يوم الجمعة للسفر (٥ صفر سنة ١٢٢٦ الموافق أول مارث سنة ١٨١١) فلما كان يوم الخميس طاف ألى جاويش بالأسواق على الهيئة القديمة في المناداة للمواكب العظيمة وهو لابس الضلمة والطبق^(١) على رأسه، وراكب حمراً عالياً وأمامه مقدم بعكاز وحوله قبجية ينادون بقولهم (يارن ألى) يريد بذلك إعلامهم بحصول الموكب ويكرّرون ذلك في جميع أنحاء المدينة وطاقوا بأوراق التنبيهات على كبار العسكر والأمراء المصريين الألفية^(٢) وغيرهم يطلبونهم للحضور في باكر النهار إلى القلعة ليركب الجميع بتجملائهم وزينتهم أمام الموكب.

فلما أصبح يوم الجمعة ركب الجميع في الساعة الخامسة وطلعوا إلى القلعة وطلع المصريون بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم فدخل الأمراء عند الباشا وحيوه وجلسوا معه مدة من الزمن وشربوا القهوة وتضاحك معهم، ثم سار الموكب على الوضع الذي رتبوه فسارت طائفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون على ومن خلفهم الوالى (حاكم القاهرة) والمحتسب والأغا والوجاقلية والألداشات^(٣) المصرية ومن تزيأ بزيهم ومن خلفهم طوائف العسكر الخيالة والمشاة والبكباشيات وأرباب المناصب وإبراهيم أغا (أغا الباب) وليمان بك البواب يذهب ويحى ويرتب الموكب.

(١) الضلمة لباس قديم مفتوح من الأمام يشبه الجبة يصنع من الجوخ والطبق لابس للرأس (المحرر).

(٢) أتباع محمد بك الألفي (المحرر).

(٣) للوجاقلية تعنى رجال اللواقط أى الفرق العسكرية والألداشات تعنى رفاق الطريق وتطلق على أعضاء الجماعة الواحدة (المحرر).

وكان العزيز قد أصرّ على قتل جميع الأمراء المماليك وأتباعهم ليتخلص من شرهم ويريح القطر من أذاهم وسلبهم ونهبهم وأسرّ ذلك إلى حسن باشا وصالح قوج والكتخدا فقط، وفي صبح ذلك اليوم أسرّ به إبراهيم أغا (أغا الباب)، فلما سار الموكب وانفصل الدلاة ومن خلفهم من الوجاقلية والألداشات المصرية عن باب العزب، أمر صالح قوج عند ذلك بغلق الباب وعرف طائفته بالمراد فالتفتوا ضاربين للمصريين (يقصد بذلك المماليك) وقد انحصروا بأجمعهم في المضيق المنحدر، وهو الحجر المقطوع في أعلى باب العزب، فيما بين الباب الأسفل والباب الأعلى الذي يتوصل منه إلى سوق القلعة، وكانوا قد أوقفوا عدّة من العسكر على الحجر والحيطان فلما حصل الضرب من أسفل، أراد الأمراء القهقري فلم يمكنهم ذلك لأنّ نظام الخيول في مضيق النقر وأخذهم ضرب البنادق والقرايين من خلفهم أيضاً ولما علم الواقفون بالأعلى المراد ضربوا أيضاً، فلما رأى المصريون (المماليك) ما حل بهم ارتبكوا في أنفسهم وتحيروا في أمرهم، ووقع منهم أشخاص بكثرة فترلوا عن الخيول واقتحم شاهين بيك وسليمان بيك البواب وآخرون وعدة من مماليكهم راجعين إلى فوق، والرصاص ينصب عليهم من كل فج ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة ولم يزالوا سائرين شاهرين سيوفهم حتى وصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة وقد سقط أكثرهم وأصيب شاهين بيك وسقط إلى الأرض فقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى الباشا ليأخذوا البقاشيش، وكان الباشا عندما سار الموكب قد ركب من ديوان السراى إلى بيت الحريم وهو بيت إسماعيل أفندى الضربخانة، وأما سليمان بيك البواب فهرب من حلاوة الروح وصعد إلى حائط البرج الكبير فتبعه الجند بالضرب حتى سقط وقطعوا رأسه أيضاً، وهرب كثير إلى بيت طوسون باشا فقتلوهم وأسرف العسكر في قتل المصريين (المماليك) وسلب ما عليهم من الثياب وقتلوا معهم من رافقهم من طوائف الناس وأهالى البلد وكل من تزيا بزيهم وقبضوا على من

أدرك حياً وقتلوهم في حوش الديوان واستمر القتل من ضحوة النهار إلى مضي جزء من الليل على المشاعل.

هذا ما حصل بالقلعة وأما أسفل المدينة فإنه عندما أغلق باب القلعة وسمع من الرميعة صوت الرصاص وقعت الكبسة في الناس واتصلت بأسواق المدينة وأغلق الباعة حوانيتهم وانتشرت العساكر إلى بيوت الأمراء المصريين ومن جاورهم كالجراد وهبوا نهياً بليغاً حتى حلى النساء، وركب الباشا ضحوة ثانياً يوم ونزل من القلعة بموكب حافل ومنع النهب ودخل بيت الشرقاوى وجلس عنده ساعة لطيفة، وكذا ابنه طوسون دخل البلد ومنع العسكر من الإفساد والنهب وأرسل الباشا إلى القرى والبلدان بضرب عنق من وجدوه بها من الكشاف التابعين للمصريين (المماليك) فضربت أعناقهم ومات في هذه الواقعة نحو الألف ما بين أمير وكاشف وجندى وكانوا يحملونهم على الأخشاب ويرمونهم عند المغسل بالرميلة وقد جردوهم من ثيابهم وألقوهم بحفرة من الأرض، قيل إنها بقره ميدان، ولم ينج من الألفين إلا أحمد بيك زوج عديلة هانم فإنه كان غائباً بناحية بوش وأمين بيك تسلق من القلعة وهرب إلى ناحية الشام، ومن قتل من مشاهيرهم شاهين بيك كبير الألفية ونعمان بيك وحسين بيك الصغير ومصطفى بيك الصغير ومراد بيك الكلارجى ومرزوق بيك بن إبراهيم بيك (انتهى ملخصاً ببعض تغييرات) وكان موثقهم رحمة للعباد وعمارة للبلاد وأمنت بعدهم السبل براً وبحراً.

أما ما تواتر على الألسن من أن أمين بيك عندما حصلت المذبحة هم بجواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو فقط فذلك أمر مبالغ فيه إن لم يكن محض اختلاق.

ولما خلاص من شرهم بقتلهم أخذ في تجهيز التجريدة بكل جد واجتهاد فجمع ستة آلاف من البيادة وألفين من السوارى ومثلهما من الطوبجية وجعل قيادة هؤلاء لنجله طوسون باشا كما مر وفي شهر شعبان سنة ١٢٦٦ نزلت

البيادة في المراكب وسافرت قاصدة فرضة ينبع، وأما السوارى سافرت عن طريق البر تحت قيادة طوسون باشا، فلما وصلت الدونانمة المصرية إلى ينبع قابلها السكان بغاية الفرح وأما قائدهم الأعظم فقد وصل لهم بعد قليل مع من كان بصحبته من السوارى ولما كان طوسون باشا شاباً ذا جسارة وجراءة اعتمد على بأس عسكره وحسن أسلحتهم بالنسبة لأتباع الوهابى وأجناده ولم يستعمل مع قبائل العرب ما يجذب قلوبهم إليه، بل ابتدأ بالسير نحو المدينة المنورة فتجمع الوهابيون ووقفوا له بالقرب من مدينة بدر الشهيرة بانتصار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على كفار قريش فهجموا على المصريين بشدة وعادوا بالغلبة إلا أنهم تفهقروا بغاية النظام واحتموا في متاريس أقاموها هناك لكن لم يثن ذلك طوسون باشا عن عزمه بل أمر حالاً بالهجوم عليها فتقدمت البيادة بقوة على تلك الخطوط حتى إنهم أخذوا الخط الأول من هذه المتاريس ثم تقدمت نحو الخط الثانى الذى كان آخذاً من المائة مكاناً عظيماً ودافعت عنه الوهابيون بغاية القوة والشجاعة حتى اضطر المصريون إلى القهقري، ثم وقع الخوف في صفوف المصريين وفروا من أمام العدو عائدين إلى فرضة ينبع بصفة غير منتظمة وهلك منهم خلق عظيم من شدة الجوع والعطش وجهلهم بالطريق ولولا قلة عدد الوهابيين الذين لم يتمكنوا من اتباع أثر المصريين لما نجا منهم أحد.

ولما علم محمد على باشا بهذا الإنكسار الذى لم يخطر له على بال أرسل المدد إلى ولده طوسون باشا ومقداراً عظيماً من المؤن والذخائر لتعويض ما فقد منه في واقعة بدر وأمر بعزل ونفى أغلب رؤساء العسكر الذين هربوا وقد تحصن طوسون باشا بعد ذلك في مدينة ينبع وبادر بترتيب عساكره وفي هذه المرة لم يهمل في إجراء الطرق اللازمة لجذب قلوب ومودة القبائل التى كانت غير راضية بأحكام الوهابيين، وبعد أن تحقق من مصافاة وموالات القبائل القاطنة بين ينبع والمدينة ومن انتظام جيشه خرج قاصداً المدينة المنورة فوصلها بدون أن يصادف أدنى معارضة في الطريق وابتدأ الحصار لكنه لم يرغب في استعمال المدافع لإجراء فتحة في سور المدينة لدخول الجند خوفاً من أن تصيب بعض

مقدوفاتها حيطان الحرم النبوي، فاستعمل اللغم حتى إذا جهزه أرسل لسكان المدينة بأن كل من لم يكن وهابياً فليتزى بزى مغاير لزي هذه الطائفة وبعد ذلك أطلق اللغم فهدم جزءاً عظيماً من السور يمكن الجيش الدخول منه، فأمر طوسون باشا إذ ذاك بمهاجمة المدينة ودخولها عنوة فهاجمتها الجيوش المصرية ودخلتها لكن بعد عناء كثير واستخلصت المدينة المنورة من يد هذه الفئة العاتية الخارجة عن طاعة أمير المؤمنين.

ثم أخذ طوسون باشا بعسكره في تحصين خط الرجعة إلى مدينة ينبع التي هي قاعدة أعماله وبعد ما تم هذا العمل سافر إلى فرضة جدّة حيث كان الشريف غالب مقيماً ففتحت له أبوابها بغاية السهولة والسرور والإنشراح ومن هناك سار السر عسكر بجيشه نحو مدينة مكة لإستخلاصها من أيدي الوهابيين فوصلها ودخلها بدون قتال لقيام الأهالي على الفرقة المحافظة وطردها إياها حينما علموا بقدوم الجيوش المصرية. فحينئذ كتب السر عسكر المصري لوالده أن طريق حج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه السلام صار آمناً وسهلاً للقاصدين ووصل هذا الخبر أولاً إلى مصر ثم إلى اسلامبول في شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٧^(١)، ثم أراد طوسون باشا أن يحتل مدينة الطائف لأهميتها بالنظر لمكة المشرفة، ولهذا السبب كان قد حصنها سعود زعيم الوهابيين وأودع فيها السلاح وجعل فيها مخازن ممتلئة من الذخائر ووضع فيها ما ينيف على ألف شخص من أجود جنوده وأشدّهم بأساً وأكثرهم دربةً وعلماً بفنون الحرب.

لكن لما علم السردار أن ما معه من الجنود لا يكفي لفتح هذه البلدة عنوة، أرسل فريقاً من جيشه لمحاربتها ومنع وصول المدد إلى حاميتها حتى إذا أته النجدة من مصر هاجمها بكل قواه، لكن لحسن حظه لم يلبث قائد الحامية الوهابية أن ترك مركزها هارباً بمجرد وصول الجند المصري المرسل لمحاصرته، وتيسر بذلك للمصريين دخول هذه النقطة المهمة بدون قتال ولا جدال، فاغتاز

(١) نوفمبر ١٨١٢.

لذلك سعود زعيم الوهابية وخشى من تقدم المصريين فجمع كل ما كان عنده من القوى وقسمهم إلى فرقتين عظيمتين كل منهما تزيد عن المصريين عدداً، ومؤلفة من أناس أقوياء وذوى بأس شديد وجعل نفسه رئيساً على إحدى هاتين الفرقتين وجعل الأخرى تحت قيادة ولده المدعو فضل الله وأرسلها إلى ثربة ليجعلها قاعدة لأعماله ومستقراً لمؤنته وذخائره، وكان هو ومن معه من جنود الفرقة الأولى متجمعين في شمال ثربة ومستعدين لمساعدتها إذا اقتضى الحال ذلك، وفي أثناء هذه المدة كانت سوارى الوهابيين تناوش الجنود المصرية وتقتل كل من تأخر منهم في المسير.

ولما علم طوسون باشا بهذه الحركات العدوانية جمع ما تفرق من جنوده وتأهب لصد الوهابيين على قدر الطاقة ريثما يأتيه المدد، لكن سبقه سعود وهاجم فجأة مدينة الحناكية واضطر قائد حاميتها المدعو عنان كاشف إلى التسليم بعد عدة هجمات عنيفة، لكن أطلق سعود سبيله وسبيل الحامية بشرط أن يسلموا أسلحتهم ويتوجهوا إلى بغداد ويقسموا بأن لا يحملوا السلاح أبداً في مواجهة الوهابيين ثم أرسل طوسون باشا فرقة عظيمة تحت قيادة أحد قواده المشهورين إلى مدينة ثربة لاستخلاصها من أيدي الوهابيين، لكن بمجرد قربهم من تلك المدينة خرج عليه الوهابيون وهجموا عليه من كل حذب وناحية حتى اضطر إلى التقهقر والعود إلى الطائف واقتفى الوهابيون أثره حتى دخل المدينة، وكان ينعم بها طوسون باشا فأحرقوها وقطعوا المواصلات بين المسدن التي شغلها بعساكره فكتب لوالده بإرسال المدد.

سفر محمد علي باشا إلى الحجاز:

فعزم محمد علي باشا عند ذلك على السفر بنفسه إلى بلاد الحجاز لقطع دابر الوهابيين وسافر من مصر بجيش عظيم على طريق السويس فوصل جدة في يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٨١٢ وسافر حالاً إلى مكة وقبل أن يشرع في عمل ما أصر على القبض على الشريف غالب الذي مكن الوهابيين من الاستيلاء على

مدينتي مكة والمدينة بهروبه والتجائه إلى جدة وكان مذبذباً بين الوهابيين والمصريين ليرى أيهما يفوز بالنصر ويتبعه.

القبض على الشريف غالب:

وكيفية القبض عليه على ما جاء في الجبرتي أنه لما ذهب الباشا إلى مكة استمر هو وابنه طوسون باشا مع الشريف غالب على المصادقة وبساط المصافاة، وجدّد معه العهود والمواثيق والإيمان في جوف الكعبة بأن لا يخون أحد صاحبه وكان الباشا يذهب إليه في قلة، والآخر يأتي إليه وإلى ابنه كذلك واستمروا على ذلك مدة، وفي خامس عشر ذي القعدة دعاه طوسون باشا فأتى إليه في قلة كالعادة فوجد بالدار عساكر كثيرة عندما استقر المجلس ووصل عابدين بيك في عدّة وافرة وطلع إلى المجلس فدنا منه وأخذ الجنيبة من حزامه وقال: أنت مطلوب للدولة فقال: سمعاً وطاعة ولكن صبراً حتى أقضى أشغالي في مدة ثلاثة أيام وأتوجه إليها، فقال عابدين بيك لا سبيل إلى ذلك والسفينة حاضرة في انتظارك، فحصل في جمعية الشريف وعبيده رجة، وصعدوا على أبراج السراية وأرادوا الحرب فأرسل إليهم الباشا يقول لهم إن وقع منكم حرب أحرقت البلد وقتلت أستاذكم، وأرسل أيضاً لهم الشريف يكفهم عن ذلك وكان بهذه السراية أولاده الثلاثة فحضر إليهم الشيخ أحمد تركي وهو من خواص الشريف وحزبه، وقال لهم لم يكن هناك بأس وإنما والدكم مطلوب في مشاورة مع الدولة ويعود لكم بالسلامة وحضرة الباشا يريد أن يقلد كبيركم نيابة عن أبيه إلى رجوعه ولم يزل يكرر حتى انخدع كبيرهم لكلامه، وقاموا معه فذهب بهم إلى محل غير الذي به والدهم ووضعوا تحت الحفظ وفي الوقت نفسه أحضر الباشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه وقلده إمارة مكة ونودي في البلدة باسمه وعزل الشريف غالب حسب الأوامر السلطانية واستمر الشريف غالب عند طوسون باشا حتى أركبوه وأصبحوا معه عدة من العسكر وذهبوا به وبأولاده إلى بندر جدة وأنزلوهم السفينة وساروا بها من ناحية القصير إلى صعيد مصر.

ثم ذكر الجبرتي في حوادث شهر محرم سنة ١٢٢٩ خبر وصول الشريف غالب إلى القاهرة فقال وفي يوم الأحد سابع عشرة وصل السيد غالب شريف مكة إلى مصر القديمة وقد أتت به السفينة من القلزم إلى مرفأ ثغر القصير فتلقيه إبراهيم باشا وحضر معه إلى قنا وقوص ثم ركب النيل بمن معه من أولاده وعبيده والعسكر الواصلين معه وحضر إلى مصر القديمة فلما وصل الخبر إلى كتخدا بيك ضربوا عدة مدافع من القلعة إعلاماً بوصوله وإكراماً لمقامه، على حدّ قوله تعالى "ذق إنك أنت العزيز الكريم" هذا وبعد سفر الشريف غالب إلى مصر أمر محمد علي باشا ولده طوسون باشا بالمسير إلى مدينة تربة لكنه التزم بالبقاء في بلدة تدعى (الكلخة) بين الطائف وتربة عدة أيام لتأخر الشريف راجح في إحضار الجمال التي كلفه الباشا بإحضارها للحملة.

ولما علم طوسون باشا أن المؤن كادت أن تنفذ أمر بالسفر نحو مدينة تربة وهي لا تبعد عن الكلخة إلا مسافة أربعة أيام، ولكنه أبطأ بهم راجح في الطريق حتى نفدت، فحينئذ اضطر للرجوع خوفاً من موت عساكره جوعاً فعند ذلك انضم الشريف راجح إلى عساكر الوهابيين لأنه كان متفقاً معهم على خيانة المصريين والإيقاع بهم، فلما تفهقروا المصريون عاد مع الوهابيين للهجوم عليهم فقابلهم طوسون باشا وصدّهم وفي أثناء ذلك ورد له المدد والمؤن فعاد بالكرة إلى تربة ولم يتمكن من فتحها، بل رجع ثانياً إلى الكلخة ومنها إلى الطائف وكتب إلى والده بمكة يخبره بأنه تفهقروا بسبب خيانة العرب ورئيسهم الشريف راجح وأنه التزم بإحراق الخيم التي كانت معهم وكثير من لوازم العسكر حتى لا تقع في أيدي العدو.

ولقد أرسل محمد علي باشا فرقة أخرى على طريق البحر لإحتلال مدينة (قنفذه) فرضة إقليم العسير تحت قيادة المدعو زعيم أوغلي فاحتلها بدون معارضة، ثم تركها عند مهاجمة العرب له. وتفصيل ذلك على ما جاء في الجبرتي أن المصريين طلّعوا عليها وملكوها بدون ممانع ولا مدافع وليس بها غير أهلها

وهم أناس ضعاف فقتلوهم وقطعوا آذانهم وأرسلوها إلى مصر ليرسلوها إلى إسلامبول فعندما علم العرب ويقال لهم عرب العسير بمجئ المصريين تركوها وتنازلوا عنها، ولهم رئيس يسمى طامي، فلما استقر المصريون ومضى عليهم نحو ثمانية أيام رجعوا عليهم وأحاطوا بهم ومنعواهم الماء فعند ذلك ركبوا عليهم وحاربوهم فانهمزموا وقتل الكثير منهم ولم ينج إلا نحو سبعة أشخاص وزعيم أوغلي، فترلوا في سفينة وهربوا فغضب الباشا لأنه كان أرسل لهم نجدة من الخيالة فحاربتهم العرب ورجعوا منهزمين من ناحية البر. اهـ.

لكن لم تؤثر هذه الهزيمة على عزيمة محمد علي باشا بل أمر عابدين بيك بالسفر مع فرقته لإحتلال إقليم زهران منعاً للتعدى الحاصل من أهاليه على القوافل ولعدم اجتماع قوات اليمن مع جنود الوهابيين فاحتلها بعد محاربة عنيفة استمرت ثلاثة أيام متوالية وبعد قليل أتى إلى العدو المدد من الدرعية التي هي قاعدة الوهابيين ومن بلاد اليمن، ولمعرفة العرب بالطرق ومفاوز الجبال لم يتمكن عابدين بيك من محاربتهم محاربة أصولية بل صاروا يكمنون له في المضائق ويمنعون جنوده من أخذ العلف لخيولهم من المراعي المجاورة لهم ولهذا هلك خلق كثير من جنود المصريين حتى اضطر آخر الأمر عابدين بيك للتقهقر إلى الكلخة ولم يلبث بها إلا قليلاً لأن الوهابيين ألزموه بالرجوع إلى الطائف حيث كان طوسون باشا مقيماً وحاصره الوهابيون فيها.

فلما أرسل لوالده بجدة ليعلمه بما هو فيه من الضيق قام في الحال مع قليل من الجند قاصداً، مدينة الطائف لفك الحصار عنها وطرد الوهابيين ولما وصل إلى جبل يقرب من الطائف أراد الإستراحة وإمضاء الليل وفي أثناءه قبض محافظوه على أعرابي آت من الطائف، فأيقظوه فاستفهم منه عن قوة المحاصرين ولما علم منه ما كان يريد أعطاه مكافأة جزيلة ولم يعلمه بحقيقة أمره بل قال له أنه قائد لمقدمة عساكر المصريين، وأن محمد علي باشا قادم خلفه بجيش عرمرم لمحاربة الوهابيين، ثم دفع إليه خطاباً وكلفه بتوصيله إلى طوسون باشا فشكره الأعرابي

وأوصل الخطاب للمرسل إليه وكان فيه إخبار طوسون باشا بوجود والده بالقرب من المدينة وأمره بالخروج منها بكل قواه لملاقاته.

ففى أصيل اليوم التالى أطلقت المدافع من المدينة استبشاراً بهذا المدد غير المنتظر وخرج طوسون باشا وعابدين بيك من المدينة فظنّ الوهابيون أنهم سيكونون بين جيشين لما بلغهم من الأعرابي من قدوم محمد على باشا وجيشه فولوا الأدبار ولجؤا إلى الفرار وبذلك نجح تدبير الباشا وخلص جيشه وابنه بدون قتال ولا حرب ولا نزال.

وبعد أن تم النصر لمحمد على باشا بدون إهراق دم عاد إلى جدّة ومكث فيها شهرين جهز في أثنائهما ما يلزم لتتميم فتح بلاد العرب وتخليصها من الوهابيين وأحضر من مصر ما يلزم من العساكر والذخائر وأرسل ولده طوسون باشا إلى ثغر ينبع لجمع الجيش اللازم لاحتلال مضايق (الصفراء) وأمره أيضاً باستعمال الرفق واللين مع العرب وبذل المهمة في كل ما يمكن استمالتهم به إليه.

فلما وصل طوسون باشا إلى ينبع ابتداء بطلب مشايخ القبائل فلبّوا دعوته وحضروا بين يديه فأحسن وفادتهم وأجزل إليهم العطايا حتى خرجوا من عنده مسرورين ثم أرسل إلى مشايخ قبيلة حرب، النازلة بين ينبع ومضايق الصفراء، وبعث لهم من عنده رهائن كى لا يخشوا المجئ إليه وطلب منهم مقابلته في مدينة بدر وزحف إلى هذه النقطة بمدفعين وأربعة آلاف عسكرى من المشاة فلما وصلها وجدها خاوية على عروشها لا ترى بها صغيراً ولا كبيراً، لأن أهلها حينما علموا بقدوم المصريين هاجروا منها وتركوها كما علمت فكتب إليهم بالعودة وعمّهم بنواله حتى استعملهم في نقل المؤن إليه من ينبع وكان يعطيهم على ذلك أجرة معينة وبعد قليل أتى إليه مشايخ حرب وتظلموا بين يديه من تعدى حاكم المدينة عليهم وقتله شيخهم الأكبر بغير حق فاعتذر لهم بما وقع من هذا القائد وأعلمهم بأن ذلك لم يكن بعلم والده وأنه لابد أن يذيقه ما ذاق كل ظلم جزاء على ما كان منه، ثم أعطاهم من الخلع ما ينيف على ألفين وثلاثين

كشميراً وصادف ذلك ورود الخبر بموت هذا الحاكم، فأبهم عليهم الأمر طوسون باشا، وأخبرهم بأنه قتل ياذن والده جزاء على ما أتاه جنده من القتل والنهب فانشرحت لذلك صدورهم واطمأنت خواطرهم ومما زاد في تعلقهم بالحكومة المصرية صدور أمر محمد على باشا بتعيين أحد مشايخهم المدعو غانم بن مدين حاكماً على المدينة المنورة.

وبعد ذلك قام طوسون باشا وجيشه لاحتلال مضائق الصفراء والجديدة فاحتلها بدون ممانع وأحدث قلاعاً في أولها وآخرها وحصنها بالمسدافع وأودع فيها ما يلزم من أنواع الذخائر والمؤن ثم سافر قاصداً المدينة المنورة وكان ذلك في أوائل شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٩ فأقبل الحجاج من كل فج.

وبعد أن أدى محمد على باشا ومن معه فريضة الحج وعاد الحجاج إلى أوطانهم شاكرين همته على ما أتاه من إقامة شعائر الحج وإعادة ما كانت عليه أرسل الباشا عدداً عظيماً من الجند إلى مدينة الطائف للإستعداد لمحاربة الوهابيين لما رأى فيهم محمد على باشا من الضعف المبين بسبب موت زعيمهم سعود في ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٢٢٩ الموافق (١٧ إبريل سنة ١٨١٤).

وكان الوهابيون قد تجمعوا زهاء عشرين ألفاً بالقرب من مدينة تربة فهاجمتهم الجيوش المصرية ولم يكن النصر لأحد من الفريقين وفي صبيحة ذلك اليوم الموافق (١٠ يناير سنة ١٨١٥) وصل إلى المعسكر محمد على باشا بنفسه ومعه بقية الجيش ووجه كل قواه أولاً لمحاربة الجيش الآتي من جهة اليمن، فهزمه ثم قهر الجيش الوهابي الذي تحت قيادة فيصل بن سعود، ولما لم يبق أمامه من يعوقه في السير تقدم نحو مدينة تربة فاحتلها واحتل أيضاً مدينة بيشة ورينة وكان لإنتصاره هذا وقع عظيم في قلوب الوهابيين فانضم إليه كثير منهم ومن قوادهم وصار يقطعهم المدن والقرى ليزيد ارتباطهم به وإطاعتهم له.

ثم توجه الجيش إلى بلاد العسير الواقعة في جنوبي مكة وحارب جنود الأمير طامى الذى حارب المصريين في قنفذة على البحر الأحمر واضطر زعيم أوغلى إلى اختلائها، ثم صار القبض عليه بمساعدة حسن بن خالد قائد جيوش أمير قهامة وأرسل إلى مصر ومنها إلى إسلامبول حيث قتل.

وذكر الجبرتي في أخبار سنة ١٢٣٠ وصول الأمير طامى إلى مصر فقال وفي يوم الجمعة ثامن عشر شهر جمادى الأولى وصل طامى إلى البركة والمحمل إذ ذاك بها، فخرجت جميع العساكر في ليلة الإثنين الحادى والعشرين منه وساروا في صبيحتها طوائف وخلفهم الحمل وبعد مرورهم دخلوا بطامى المذكور وهو راكب على هجين وفي رقبته الحديد والجزير مربوط في عنق الهجين وصورته رجل شهم عظيم اللحية وهو لابس عباءة عبدانية وكان يقرأ وهو راكب وعملوا أيضاً شنكاً وضربوا مدافع. اهـ.

وبعد أن استتب الأمن في جهة العسير وما جاورها عاد الجيش إلى المدينة واستعدّ طوسون باشا إجابة لرغبة والده للزحف على بلاد نجد وقام من المدينة ووصل إلى قرب مدينة الرسّ فأتى إليه مشايخها وطلبوا منه ألا يحتل مدينتهم بشرط أن لا يصرحوا للوهابيين بالدخول إليها وأن يقدموا لجيشه كل ما يلزمه من المؤن بالثمن الملائم فقبل ذلك منهم طوسون باشا رغبة في عدم تعريض جيشه للحرب وحفظاً له من فوائده بدون ضرورة شديدة داعية إلى ذلك ولا احتياج كلى، ثم انتظر بالقرب من الرسّ ريثما تأتيه الجنود اللازمة ليزحف على الدرعية عاصمة الوهابيين.

وفي أثناء انتظاره الجنود دخل المدينة بقصد أداء فريضة الصلاة فدعاه أحد مشايخها لتناول القهوة عنده وكان (طوسون باشا) قد أمر أنه في ذلك الوقت تدخل العساكر وتحتل المدينة أثناء اشتغال الأهالي بالصلاة فقاموا بما أمروا به واحتلوا المدينة بهذه الحيلة بدون حرب فلما احتلوها أمر بهدم أسوارها حتى لا تعود صالحة لإقامة الوهابيين. وبعد مناوشات خفيفة احتل طوسون باشا في

خلالها عدداً عظيماً من مدن نجد أرسل إليه عبد الله بن سعود، الذي تولّى بعد والده سعود على طائفة الوهابيين، رسولاً يدعى الشيخ أحمد الحنبلى يطلب الصلح والطاعة ويكون تحت طاعة أمير المؤمنين ومدعناً لجميع أوامره فجوابه طوسون باشا أنه لا يمكنه قبول ذلك منه إلا بعد استشارة والده محمد على باشا وأن يمنحه هدنة مدّة عشرين يوماً حتى يخبر والده بذلك فقبل منه عبد الله بن سعود وبطلت كافة الحركات العدوانية وبقي كل جيش في مكانه ينتظر انتهاء الهدنة لإتمام الصلح أو استمرار القتال.

وفي أثناء هذه الهدنة وصل إلى طوسون باشا خطاب من والده يخبره بأنه سافر إلى مصر لأشياء ضرورية وأنه ترك عدداً عظيماً من الجند بين رجالة وركبان تحت قيادة خزنداره ويوصيه فيه بالإسراع في الزحف على الدرعية لإستئصال شأفة الوهابيين وإراحة العباد من مكايدهم، وكان السبب في رجوع محمد على باشا إلى مصر على عجل هو علمه برجوع نابوليون من منفاه الأول إلى فرانساً وتحقيقه من طمع هذا الرجل في احتلال مصر وجعلها مستعمرة فرنساوية على طريق الهند الإنكليزية لما بين الدولتين من العداوة الوراثة وكان وصول عزيز مصر إلى القاهرة على طريق القصير فقنا فمصر في يوم ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ (اليوم الذى انهزم فيه نابوليون في واقعة وترلو) وقد ذكر الجبرتى وصول العزيز إلى القاهرة في أخبار شهر رجب سنة ١٢٣٠ فقال: وفي يوم الأربعاء سادسه وصلت هجانة من ناحية قبلى وأخبروا بوصول الباشا إلى القصير فخلع عليهم كتخدا بيك كساوى ولم يأمر بعمل شنك ولا ضرب مدافع حتى يتحقق صحة الخبر وفي يوم الجمعة ثامنه قبل العصر ضربت مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وذلك عندما ثبت وتحقيق وصول الباشا إلى قنا وقوص وفي ليلة الجمعة خامس عشره وصل الباشا إلى الجيزة ليلاً فأقام بها إلى آخر الليل ثم حضر إلى داره في الأزبكية. اهـ.

هذا ولما وصل إلى طوسون باشا جواب أبيه أرسل إلى الخزنदार يستقدمه وجيشه إلى مدينة الرسّ قبل انتهاء الهدنة فأتى إليها بسرعة وبعد مشاورات طويلة مع رؤساء الجيوش المصرية والقبائل المتحاربة، قبل طوسون باشا الصلح بشروط أهمها أن الجيوش المصرية تحتل الدرعية وأن عبد الله بن سعود يؤدّ كل ما أخذ من الحجرة النبوية من المجوهرات وغيرها وخصوصاً الكوكب الدرّي الذي زنته مائة وثلاثة وأربعون قيراطاً من الألماس وأن يكون تحت أمره حتى إذا طلب منه السفر إلى أىّ جهة كانت يكون مطيعاً لذلك وأن يؤدّي لطوسون باشا رهائن من أقاربه إلى صدور تصديق محمد على باشا على هذه المعاهدة.

فلاح من عبد الله بن سعود امتناع من إنفاذ هذه المعاهدة خصوصاً لما طلب منه أن يسافر إلى إسلامبول كي يرى نفسه لما نسب إليه من الخروج عن حدّ الديانة المحمدية فكتب إليه العزيز محمد على باشا بما مضمونه إنه إذا لم يعمل بمقتضى الشروط التي عقدها على نفسه يبعث إليه عسكرياً جرّاراً يخرب بلاده، فلم يرد إليه من الوهابيين إلا محاولات تفيد عدم الإمتثال، فجهز الباشا عليهم تجريدة جديدة تحت قيادة ابنه البكرى إبراهيم باشا.

ولنذكر ما حدث بالقاهرة من تمرد لطيف باشا على ولي نعمته وموته شر ميتة وعصيان الجند على محمد على باشا قبل أن نأتى على تفصيل ما حصل بين إبراهيم باشا والوهابيين من الحروب فنقول:

تمرد لطيف باشا:

إنه حصل بالقاهرة أثناء تغيب العزيز بالأقطار الحجازية أمر مهمّ لو لم يتداركه الكيخيا بعزم وهمّة لكان من ورائه تفويض سلطة محمد على باشا وزوال ملكه، نريد بذلك تمرد لطيف باشا وطلبه ولاية مصر واختلاسها من عزيزها الذي لم يصل إليها إلا بركوب الأهوال والأخطار وإضاعة الدرهم والدينار، وبيان ذلك أنه لما أعاد طوسون باشا الأمن إلى طريق الحجّاج واستخلص المدينة المنورة من أيدي الوهابيين أرسل محمد على باشا لطيف باشا

المذكور إلى القسطنطينية لإبلاغ هذا الخبر إلى الدولة العلية فاستقبل هناك بغاية الترحيب والإجلال نظراً لمقام مرسله ولأهمية مأموريته.

فلما عاد إلى مصر داخله الكبر وظن أنه لو اغتصب الولاية من محمد على باشا ربما يروق ذلك في أعين ولاية الأمر في إسلامبول فأخذ في جمع الجند حول داره وإجزال العطايا للكشاف ورؤساء الجند من أرنبود ودلاة، فلما رأى الكيخيا ذلك دخله الخوف وخاف سوء المنقلب وأراد أن يخلص بلاده من شره قبل تفاقم أمره فجمع ديواناً بالقلعة وأرسل إليه يستدعيه فأبى الحضور لعلمه بالملكيدة ثم أرسل إليه الكيخيا يطلب منه إما الإطاعة أو الخروج من القاهرة فقبل الخروج، لكن وجد الجند من الأرنبود متربصين له في الطرق الموصلة إلى داره فناوشهم واستمر إطلاق البنادق بين الطرفين إلى نصف الليل بل وبعده، ولما رأى لطيف باشا أن العسكر أهدقت بمزله وهددته بالدخول فيه والقبض عليه اختفى في مخبأه مع ست من الجوارى التركيات ومملوك مخلص له ولم يعلم بمحله إلا أحد خصيانه وبعد قليل دخل الجند داره وفتشوها ولما لم يلقوا له على أثر فبوها وسبوا نساءه وسراريه وبحثوا عنه أيضاً في الدور المجاورة لها ثم اكتفوا بحفظ الطرقات وفي مساء ذلك اليوم خرج لطيف باشا من المخبأة وتسلق الأسطحة حتى وصل إلى دار خزن داره واختفى هناك، ففي اليوم التالي أخبر الخصي بالمخبأة التي بالبيت ففتحوها ولم يجدوا بها إلا الجوارى والمملوك فأخذوا يقررونهم عنه وأين ذهب ولكن لم يجد ذلك شيئاً ثم خطر ببال لطيف باشا أن يذهب من بيت خزن داره إلى أحد البيوت المجاورة له من السطح ليهرب وينجو بنفسه إلا أنه لسوء حظه ودنو أجله رآه أحد الجند المعينين فوق الأسطحة لمنعه من الهرب، فلما رآه أسرع بالصياح على إخوانه وعند ذلك أطلق فيه لطيف باشا رصاصه قتله فاجتمع الجند واحتاطوا به وقبضوا عليه وسجنوه في بيت محمود بيك الدويدار، حتى إذا أصبح اليوم التالي عقدوا ديواناً للحكم عليه بالقلعة حضره أكابر الحكومة وأعيانها وحكموا عليه بالقتل ثم أرسلوا من يستحضره فجاء مع محمود بيك الدويدار إلى القلعة وهناك قبض عليه وضرب

عنقه وعلقت رأسه على باب زويلة طول نهاره وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٢١ من ذى الحجة سنة ١٢٨٨ (٨ نوفمبر سنة ١٨١٣) أما لطيف باشا المذكور فكان جرجى الأصل ومملوكاً لعارف بيك ابن خليل باشا الذى كان قاضياً بمصر، أهداه إلى العزيز فاختره لما تفرس فيه النجابة وقربه إليه ورقاه إلى رتبة اختر أغاسى^(١) أى صاحب المفتاح وصار له حرمة زائدة وكلمة عند الباشا.

عصيان الجند بالقاهرة:

وأما ما حصل بمصر غير تلك الحادثة من الأمور المهمة فهو عصيان الجند وتمردهم على العزيز بعد عودته من الأقطار الحجازية وذلك أنه لما عاد إلى مصر في يونيو سنة ١٨١٥ شرع في ترتيب عسكره على النظام الأوربى لتزداد بذلك قوتهم لكن لم يوافقهم على ذلك قواد جنوده فقضى مدة في إقناعهم بدون ثمرة ولما رأى منهم عدم موافقته على مشروعه عزم على تنفيذه رغم أنفهم، وابتدأ بالفعل في تمرين الفرقة التى هى تحت قيادة ولده إسماعيل بيك في يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨١٥، وأعلن بأن كل من لم يقبل هذا النظام الجديد سواء كان من الأنفار أو من البيكوات يجرد ويطرده من مصر فتحزب الجند واتفقوا مع قوادهم على الغدر بالباشا.

واتفق في هذا الوقت أن عابدين بيك أولم وليمة في ليلة الجمعة ٢٨ شعبان سنة ١٢٣٠ احتفالاً بقدوم العزيز محمد على باشا من بلاد الحجاز سالماً فاجتمع بداره جماعة من أكابر الجند، فيهم حجوب بيك وعبد الله أغا صارى جلّه وحسن أغا الأرزنجلي، فتكلموا في هذا الشأن واتفقوا على الهجوم عليه في داره بالأزبكية عند طلوع الفجر ولما استشعر عابدين بيك بما يقصدونه من الخيانة بالوالى خرج خفية من داره مسرعاً إلى الباشا ليخبره بما اتفق عليه أعداؤه ثم عاد إلى أصحابه بدون أن يعلم أحد بخروجه وهنالك ركب الباشا حالاً وتوجه

(١) لو اختار أغاسى وهو من العاملين في خدمة السلطان داخل السراى ويشرف على جميع العاملين والمرومين وكان لكل باشا من حكام مصر العثمانيين اختر أغاسى (المحرر).

إلى القلعة مستصحباً معه عساكر طاهر باشا وغيرهم ممن يثق بهم وترك عدداً عظيماً من الجند يحرسون منزله بالأزبكية، ولما علم المتآمرون أن الباشا وقف على حقيقة حالهم وجليه أمرهم، لم ينشوا عن مقصدهم، بل قصدوا منزله بالأزبكية لنهبه فمنعهم من كان به من الجند وتراموا بالرصاص ولم يتمكنوا من شئ ثم ساروا إلى القلعة واجتمعوا بالرميلة ولما لم يجدوا للهجوم عليها سبيلاً لتسلط أفواه المدافع عليهم انتشروا في البلد للسلب والنهب لينضم إليهم من خالفهم في الرأي، وتقوى شوكتهم بذلك فيعودوا إلى القلعة بقوة عظيمة فنهبوا الغورية والسكرية والحمزاوى إلا خان الخليلي فإنه لم يردّهم عن نهبه إلا قوة بنادق من به من ترك وأرنؤد وكذلك دافع المغاربة عن الفحامين والشوّاين والكعكيين واستمر النهب ساعات وكان ذلك في يوم جمعة ولم تصل فيه لشدة ما كان.

وفي وقت المساء استدعى الباشا السيد محمد المحروقي وأمر بتحرير قوائم مشتملة على ما نهب من التجار ليدفعه لهم فحررت القوائم وظهر أن ما خص الغورية مائة وثمانون كيساً والسكرية سبعون والحمزاوى ثلاثة آلاف فصرفها الباشا لأربابها بعد تزييل شئ يسير وبعد أداء اليمين الشرعية على ما سلب منهم فبذلك أطمأن الناس واستبشروا بانتشار العدل وانقضاء أيام الظلم، ثم أخذ الباشا يستميل قلوب الجند ويوزع النقود والعلاطف عليهم، وترك مشروع تدريبهم على النظام الأوربي، حيث أدى إلى ما حصل، منتظراً فرصة أخرى وبعد انقضاء عيد الفطر نزل الباشا من القلعة وهذا خاطر الأهالي وأراح بالهم وشرح صدورهم، وزار يوسف باشا المعزول من ولاية دمشق واجتمع مع العلماء والأعيان ووعدهم بأن يريح العباد من عود الجند إلى مثل ذلك.

رجوع طوسون باشا إلى مصر:

ولما بلغ طوسون باشا خبر ثورة العسكر بالقاهرة ونهبهم لها سافر من المدينة إلى ينبع ومنها إلى جبل الطور فالسويس بحراً وكان وصوله إليها في غاية شهر

ذى القعدة سنة ١٢٣٠. وجاء في الجبرتي أنه في يوم الإثنين رابع شهر ذى الحجة سنة ١٢٣٠ (٧ نوفمبر سنة ١٨١٥) نودى بزينة الشارع الأعظم لدخول طوسون باشا سروراً بقدومه، فلما أصبح يوم الثلاثاء خامسه احتفل الناس بزينة الحوانيت بالشارع وعملوا له موكباً حافلاً ودخل من باب النصر وعلى رأسه الطيلسان وشعار الوزارة وطلع إلى القلعة وضربوا في ذلك اليوم مدافع كثيرة وشنكاً وحرائق وفي ليلة الجمعة الخامس عشر سافر طوسون باشا إلى الإسكندرية ليرى أباه ويسلم عليه وليرى أيضاً ولداً له ولد في غيبته يدعى عباس بك أخذه جدّه مع حاضنته إلى الإسكندرية وسنه دون سنتين وفي يوم السبت العشرين منه حضر طوسون باشا إلى مصر راجعاً من الإسكندرية.

حبس المعلم غالى:

ولخلوّ الخزينة من النقود وعدم وجود موسرين بالبلد يؤخذ منهم ما يحتاج إليه على سبيل القرضة أو غيرها وتأخير المعلم غالى باش "محاسبجى" في ستة آلاف كيس، أصدر الباشا أمره إلى كيخيا بك بطلب هذا المبلغ أو حبسه حتى يفقه فطلبه الكيخيا فاعتذر بأن هذا المبلغ متأخراً على الأهالي وأنه ساع في تحصيله وطلب مهلة قليلة فلم يقبل منه الكيخيا وأمر بحبسه وحبس أخيه المسمى فرنسيس و"خزنده" المدعو سمعان، ثم وشى به عند الكيخيا طائفة من الأقباط وعرفوه بأنه إذا حوسب يظهر عليه ثلاثون ألف كيس، فاشترط عليهم الكيخيا أنه إن لم يظهر على المعلم غالى هذا المبلغ يكونوا ملزمين بالباقي، فقبلوا هذا الشرط وهم المعلم جرجس الطويل ومنقريوس البتنوى وحنا الطويل ولما أبطأ المعلم غالى في دفع ما طلب منه أمر الكيخيا بضرب أخيه أمامه وبضربه هو أيضاً وضرب خزنده، ثم أفرج عن أخيه وخزنده ليسعيا في تحصيل المطلوب. أما سمعان فمات على أثر الضرب لأنه ضرب ألف كرجاج وأما فرنسيس أخو المعلم غالى فسعى في أداء المطلوب ببيع ما يملكونه من منقول وعقار، ثم توسط له لدى الباشا المسيو (بوزارى) طبيه الخاص فقبل منه الباشا ذلك وأمر بإخلاء سبيل المعلم غالى بشرط أن يدفع أربعة عشر ألف كيس وألزم معارضيه جرجس

الطويل ومنقريوس البتوني بدفع أربعة آلاف كيس. ولقد رأى بعد ذلك محمد على باشا أن يخرج الجند من القاهرة منعاً لما يحصل منهم من الشغب والهيّاج فأمر ولده طوسون باشا الخروج إلى جهة قوّة^(١) مع عساكر الدلاة وعابدين بيك إلى جهة المنصورة مع عساكر الأرتود ولم يبق بالقاهرة إلا حاشية الباشا وأتباع خواصه وعساكر الشرطة.

عزل الشيخ الدواخلي:

وفي أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٢٣١ في يوم مولد النبي عليه الصلاة والسلام طلب الباشا المشايخ فحضرُوا ولما استقر بهم المجلس أظهر الباشا رغبته في عزل الشيخ الدواخلي نقيب الأشراف من منصبه واستشارهم في تولية خلف له فأقر الجميع على تعيين الشيخ البكري ورضوه، فألبسه الخلعة وانصرفوا وفي اليوم الثاني صدر أمر من الباشا بنفى الشيخ الدواخلي إلى دسوق فسافر في الحال إلى منفاه، وطلب الباشا من المشايخ أن يحرروا محضراً يبينون فيه أسباب عزله ليرسله إلى نقيب الأشراف في إسلامبول، الذي من خصائصه عزل وتولية نقيب الأشراف بولايات الدولة العلية فحرر المشايخ ذلك الحضر ونسبوا له فيه أشياء كثيرة، منها أنه تناول على السيد منصور اليافي لفتوى أفتاها مستنداً على قول ضعيف، ومنها أنه يعارض القاضي في أحكامه، وذكرُوا أسباباً آخر غير ذلك لم يكن فيها السبب الحقيقي في عزل الباشا له وهو في الحقيقة انتقاده على أحكام الباشا على مرأى ومسمع من المقرّبين إليه.

(١) في الخطط الجديدة لسعادة على باشا مبارك أن قوّة بضم الفاء وتشديد الواو بالقرب من الإسكندرية واقعة على أنشاطى الشرقى لفرع رشيد وفي شمال دسوق على بعد ساعتين واشتهرت في أيام العزيز محمد على باشا بالمعمل الذي أقامه فيها لعمل الطربوش فكان طربوشها يشبه في الجودة للطربوش المغربي أو يقاربه وكان يتحصل من ذلك كل شهر مائة وأربعة وعشرون ألف طربوش وكان الصوف يجلب إليها في الغالب من بلاد الإفرنج وقد بطل ذلك الآن ويبلغ سكان هذه البلدة ثمانية آلاف وكمسوراً كلهم من المسلمين وأطيانها ثلاثة آلاف وستمائة وواحد وثلاثون فدناً يزرع بها الأرز والقطن وباقي المزروعات المعتادة وكان اسمها عند قدماء المصريين متيلين وكانت على البحر المالح ثم بعد عنها البحر بسبب رسوب الطمي حتى صار بينها وبينه تسعة فراسخ تقريباً.

سفر إبراهيم باشا إلى الحجاز:

لنرجع إلى الكلام على الحملة التي كان جارياً تجهيزها لمحاربة الوهابيين تحت إمرة إبراهيم باشا فنقول أن محمد علي باشا لما عزم على معاقبة الوهابيين لعدم قيامهم بما تعهدوا به، أمر بجمع ما يلزم من المراكب بساحل بولاق لنقل المؤنة والدخائر إلى مدينة قنا لتنقل منها على ظهور الجمال إلى ثغر القصير ثم إلى ثغر ينبع من طريق البحر الأحمر فلما صار تجهيز كل ما لزم لسفر الحملة سافر إبراهيم باشا من بولاق في يوم ١٢ شوال سنة ١٢٣١ (٣ سبتمبر سنة ١٨١٦) فوصل ينبع في ٩ ذى القعدة سنة ١٢٣١ (٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦) ثم سار قاصداً المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فوصلها بعد عشرة أيام وفي اليوم الرابع من عيد الأضحى قام إبراهيم باشا وعسكره من المدينة وأقام في مدينة تدعى الصويدة واقعة على مسافة متساوية بين فرضتي جدة وينبع وجعلها مركزاً لأعماله لقربها من هاتين الفرضتين، ثم أخذ في جمع ما يلزم من الجمال للزحف على بلاد نجد لكنه لم يجد مساعدة من العرب المجاورة لها الذين اتحدوا مع الوهابيين على محاربة المصريين، وشرعوا في مناوشة القوافل بين الصويدة والموانئ البحرية، فأرسل إبراهيم باشا لمحاربتهم ألفى جندي من مشاة وفرسان فقابلوهم على بعد يومين وهزموهم شر هزيمة.

فلما لم يروا من الوهابيين أقل مساعدة أتوا إلى معسكر المصريين وأذعنوا بالطاعة لرئيسهم وتعهدوا بإحضار كل ما يطلب منهم من جمال وغيرها ثم قام إبراهيم باشا من الصويدة قاصداً مدينة تدعى الحناكية وسار منها إلى مدينة الرّسّ فحاصرها، وفي أثناء ذلك جمع عبد الله ابن سعود جميع ما عنده من القوة والرجال فكانت زهاء أربعين ألفاً من فرسان العرب ومجربّيها في الحروب ومن سوء سياسة عبد الله بن سعود أن استجلب كراهة القبائل لمحاربتهم إياهم واضطهادهم خصوصاً عرب حرب النازلين بين المدينة المنورة والحناكية فزرع العداوة معهم وكان قريباً منهم الأمير "أوزون علي الأورفه لي" الكردي قائد مقدمة جيوش إبراهيم باشا ومعه نحو مائة وخمسين من فرسان الأكراد المشهورين

بالمهجوم، فلما تقدم عبد الله بن سعود نحو مقدمة المصريين هجم عليه أوزون بعسكره القليلة العدد الكثيرة القوة وزحف بخيله في وسط عسكر عبد الله بن سعود ولحقه عرب حرب مساعدين له لما ذاقوه من الوهابيين من النهب والسلب، ونزل رصاص الأكراد على عرب ابن سعود مثل المطر، ودهمهم مثل القضاء المبرم لحسن سلاحهم، فمسافة ما يفك الوهابي بندقيته من جرابها ويولع الفتيلة يكون قد أصابه خمس رصاصات على الأقل. فما مضت برهة من الزمن إلا وقد انكسرت مقدمة عساكر عبد الله بن سعود ورجع القهقري ومن هذه الواقعة عرف إبراهيم باشا أن لا صبر ولا جلد للوهابيين أمام الرصاص والنار، بل هم رجال يحاربون بالرماح والسيوف على الطراز القديم ومعهم بنادق بالفتيل لا تفيدهم شيئاً أمام بنادق المصريين ومدافعهم.

وبعد هذه الواقعة تحصن عبد الله بن سعود داخل مدينة عنيزة - أما إبراهيم باشا فحاصر مدينة الرس، وكان قد احتلها الوهابيون بعد عودة طوسون باشا إلى مصر، وأقام حولها الإستحكامات القوية وعززها بالمدافع وابتدأ في إطلاقها على سور المدينة بدون أن يسلم العدو، ولما عيل صبر إبراهيم باشا من الانتظار بعد أن استمر إطلاق القنابل على المدينة ستة أيام متوالية، أمر بالمهجوم عليها ليلاً، فهجمت المشاة ومنعت الخيالة الأهالي من الخروج لكن لم تنجح العساكر المصرية في هذه الدفعة والتزمت بالرجوع بعد استمرار القتال أربع ساعات.

وبعد أن استمر الحصار ثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً بدون فائدة تصالح مع أهل المدينة على أن يرفع الحصار عن مدينتهم بشروط أهمها: أن لا يدخل المدينة أحد من جنوده وأن لا يقدم لهم الأهالي شيئاً من المؤنة وأنه إن استولت الجيوش المصرية على مدينة عنيزة تسلم إليه مدينة الرس بدون قتال وإن لم ينجح أمامها تستأنف المحاربة ثانية.

ثم قام إبراهيم باشا بجيشه قاصداً مدينة عنيزة فصادف في طريقه بلدة تدعى (الخبراء) فدخلها بعد أن دهمها بمدفعه عدة ساعات، وبعد أن أراح جيشه أحد

عشر يوماً سافر إلى (عنيزة) فوصلها وبعد أن حاصرها ستة أيام سلمها له حاكمها المدعو محمد بن حسن بشرط أن يجوز لعساكر الوهابية الذهاب إلى أى جهة أرادوا ويتركوا في البلد كافة ما لديهم من الأسلحة والذخائر، فقبل ذلك إبراهيم باشا ودخل المدينة وأرسل فرقة لإحتلال مدينة الرس كما تقدم لك.

ثم إنه ارتحل من عنيزة ونزل ببلدة تدعى (بُرَيْدَة) ودخلها بعد قتال قليل وكان صاحبها يقال له (حُجَيْلَان) بضم الحاء وفتح الجيم فنفاه الباشا إلى المدينة حيث توفي بعد أيام قلائل ومنها ذهب إبراهيم باشا لمحاصرة بلد تدعى (الشُقْرَاء) فوصلها في يوم ١٣ يناير سنة ١٨١٨ الموافق أوائل شهر ربيع أول سنة ١٢٣٣ وابتدأ في محاصرتها بدون إمهال وأقام حولها بطاريات المدافع واستمر في إطلاقها حتى طلب الأهالي التسليم واشترط من بها من جنود الوهابيين أنهم بعد أن يسلموا سلاحهم إلى إبراهيم باشا يباح لهم الذهاب إلى أى جهة ساروا، فقبل منهم ذلك وقيده بأن يتعهد هؤلاء الجند بأن لا يحملوا السلاح مرة أخرى في وجه المصريين وأنهم لو خالفوا هذا الشرط عوقبوا بالقتل.

وعقب هذا الاتفاق فتح الأهالي أبواب المدينة ودخلها بطل مصر إبراهيم باشا في ٢٢ يناير سنة ١٨١٨ الموافق ١٤ ربيع أول سنة ١٢٣٣ ثم ترك بالمدينة الحامية الكافية وذهب لفتح (الدرعية) عاصمة الوهابيين وكانوا يسمونها دار الهجرة وكان كلما مرّ على قرية ودخلها لا يتعرض لأهلها بسوء ويمنع عساكره من التعرض لهم ويكتفى بطاعتهم له.

لكنه لم يتوجه تَوّاً إلى مدينة الدرعية بل عرّج على مدينة يقال لها (درمة) لما بلغه من وجود كثير من المؤن بها وعدد عظيم من الخيول فوصلها وأحرق جزءاً كبيراً منها بالمدافع، حتى تحصن حاكمها وأتباعه في قصره ولما لم يرغب إبراهيم باشا في هدم قصره بالمدافع خوفاً من إتلاف ما به من الأشياء الثمينة والخيول

العربية المطهمة، قبل أن يخرج الحاكم من البلد بشرط أن لا يأخذ شيئاً معه مما في القصر فسر الحاكم بذلك ونجا بنفسه.

فتح الدرعية وتسليم عبد الله بن سعود:

ثم توجه إبراهيم باشا بجيشه إلى ناحية الدرعية فوصل أمامها في تسع وعشرين خلت من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٣٣ الموافق ٦ إبريل سنة ١٨١٨ وكان جيشه مؤلفاً من خمسة آلاف جندي من المشاة والفرسان واثني عشر مدفعاً، ولما لم يكن هذا العدد كافياً لحصار المدينة بأجمعها لإتساعها، أشار على الباشا أحد أركان حربه الفرنسيين المدعو مسيو (فسير) بحصار القرى الأربع المحيطة بالمدينة الواحدة بعد الأخرى، حتى إذا احتلها حاصر المدينة الأصلية بكل سهولة، فاتبع إبراهيم باشا رأيه ومع ذلك استمر الحصار ستة أشهر، ولا حاجة لذكر تفاصيله، ولما رأى عبد الله بن سعود سقوط ثلاث قرى من ضواحي المدينة في أيدي إبراهيم باشا وأنه لا بد من التسليم عاجلاً أو آجلاً مال للتسليم وأرسل إلى إبراهيم باشا في يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ يطلب منه إيقاف القتال ريثما يتم بينهما الاتفاق فأوقفه، وأتى عبد الله بن سعود إلى معسكر إبراهيم باشا فأكرمه، وبعد محادثة طويلة تم الاتفاق على أن تسلم الدرعية إلى الباشا وتعهد بعدم إضرار الوهابيين وأقاربهم، وأن يسافر عبد الله بن سعود إلى القسطنطينية كما هي رغبة السلطان فلبى إجابته وتوجه إلى داره ليتأهب للسفر إلى مصر ومنها إلى القسطنطينية.

ولما بلغ محمد علي باشا خبر انتصار نجله على الوهابيين وتبديده إياهم ودخوله عاصمتهم أطلقت المدافع من القلعة، وذكر الجبرتي في أخبار سنة ١٢٣٣ أنه في سابع شهر ذى الحجة الحرام وردت بشائر من الحجاز برسالة من عثمان أغا الورداني أمير ينبع بأن إبراهيم باشا استولى على الدرعية، فسر الباشا بهذا الخبر سروراً عظيماً وانجلي عنه الضجر والقلق وأنعم على المبشر، وعند ذلك ضربت مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية وانتشر

المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش، وفي ثاني عشرة وردت مكاتبات بذلك من إبراهيم باشا نفسه فأكثر من ضرب المدافع من كل جهة واستمر الضرب من العصر إلى المغرب بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع وصدرت الأوامر بتزيين المدينة ثلاثة أيام متوالية وفي كل يوم يطوف المنادى ويكرر المناداة بالشوارع على الناس بالسهر والوقود والزينة وعدم غلق الأبواب ليلاً ونهاراً. (اهـ ملخصاً).

وصول عبد الله بن سعود إلى القاهرة:

ثم تم بالسرور وكل الجور بوصول عبد الله بن سعود إلى القاهرة وكان وصوله إليها في يوم الإثنين سابع عشر محرم سنة ١٢٣٤ الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٨١٨ فدخل من باب النصر ومعه عبد الله بكّاش قبطان السويس وهو راكب على هجين وأمامه طائفة من الدلاة فذهبوا به إلى بيت إسماعيل باشا ابن الباشا فأقام يومه وذهبوا به في صبيحة اليوم الثاني إلى عزيز مصر بسراى شبرا فلما دخل عليه قام إجلالاً له وقابله بالبشاشة وأجلسه بحذائه، وحادثه في أمر الحرب فقال له الوهابي إن الحرب سجال قال له: وكيف رأيت إبراهيم باشا قال: شجاعاً مقداماً بذل همته، وقد دافعنا عن ديارنا دفاع الأبطال حتى كان ما قدره الله، فوعده الباشا بالسعى لدى الباب العالي ليعفو عنه فانصرف الوهابي وعاد لمزل إسماعيل باشا ثم سافر إلى القسطنطينية في يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر محرم سنة ١٢٣٤ الموافق ١٩ نوفمبر سنة ١٨١٨ وقتل عند وصوله للقسطنطينية.

أما المجوهرات التي أخذها الوهابيون من الحجرة النبوية حين دخلوا المدينة المنورة سنة ١٢٢٠ فردّها عبد الله بن سعود إلى إبراهيم باشا منها الحجر الأملس المسمى بالكوكب الدرّي فأعاده الباشا إلى محله وأما ما نقص منها فادعى الوهابي أنها بيعت وصرف ثمنها في الحروب، ووزع جانب منها على رؤساء القبائل فبدّدوها.

موت طوسون باشا:

ومما حصل في أثناء هذه الحروب من الأمور المهمة التي ينبغي ذكرها موت المرحوم طوسون باشا نجل الباشا فتوفى في برنال أمام مدينة رشيد في ليلة الأحد سابع ذى القعدة سنة ١٢٣٢ الموافق ٦ يوليه سنة ١٨١٦ عقب مرض أتاها فجأة ولم يمهلها إلا عشر ساعات فغسل وكفن ووضع في صندوق خشب وسير به من طريق النيل إلى القاهرة، هذا ولم يتجاسر أحد بإخبار والده ولبس الكل سربال الخيرة وصاروا في حيرة من تبليغ هذا الخبر المشؤم إلى والده فدخل عليه كتخدا بيك آخذاً في البكاء والانتحاب فعلم الباشا حقيقة الأمر وحزن لفقده حزناً شديداً، ثم أمر بإعادة الجنازة حسب العادة فجهزت وسير بها إلى الإمام الشافعي وواره التراب في المقبرة التي أعدها الباشا لنفسه وعائلته وسار والده خلف نعشه ينظر إليه ويبكى.

وتوفى طوسون باشا رحم الله الجميع، وهو في مقتبل العمر ولم يبلغ عمره إلا عشرين سنة وكان أبيض ذا جسم، بطلاً شجاعاً جواداً له ميل للمصريين قائماً بأوامر الديانة الإسلامية تخشاه العسكر وحقابه مع المحبة الزائدة لأنه كان يكافئ ذا العمل الصالح بالبر والإحسان وذا العمل السيئ بالذل والهوان، اقتداء بقوله عز وجل "إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها" وقلما يوجد مثل هذا الشهم المسدد الرأي الذكي الفطرة، وعلى فراقه يحق للعيون أن تدمع وللقلوب أن تجزع وللأحشاء أن تتميز وللأكباد أن تحترق. ولما انتهى الحرب وانتشر لواء الأمن في جميع الجهات الحجازية ونجد عاد الأمير إبراهيم باشا إلى مصر من طريق القصير فقنا فالنيل إلى القاهرة فوصلها في يوم الخميس ٢١ صفر سنة ١٢٣٥ وهاك ما ذكره الجبرتي في قدومه:

قال: وعند وصول إبراهيم باشا نودى بزينة المدينة سبعة أيام بلياليها فشرع الناس في تزيين الحوانيت والدور والخانات بما أمكنهم وقدروا عليه من الملونات والمقصبات، وأما جهات النصارى وحرارتهم وخاناتهم فإنهم أبدعوا في عمل

تصوير مجسمات وتمائيل وأشكال غريبة، ولما أصبح يوم الجمعة دخل إبراهيم باشا في موكب حافل من باب النصر وشق المدينة وعلى رأسه الطيلسان السليمي من شعار الوزارة، وقد أرخى لحيته بالحجاز وحضر والده إلى جامع الغورية بقصد التفرج على موكب ابنه وطلع بالموكب إلى القلعة ثم رجع سائراً بالهيئة الكاملة إلى جهة مصر القديمة ومر على جسر من مراكب أقيم على النيل بين مصر القديمة وجزيرة الروضة وذهب إلى قصره واستمرت الزينة والوقود والسهر ليلاً وعمل الحراقات وضرب المدافع في كل وقت من القلعة، ومغان وملاعب في مجامع الناس سبعة أيام بلياليها في مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الأخطاط.

وبعد ذلك أخذ محمد علي باشا في إصلاح أحوال المصريين زراعية وصناعية وعلمية وغيرها، واستدعى لهذه البغية كثيراً من الإفرنج وكذلك شرع في ترتيب الجيش على النظام الجديد وبينما هو يفكر في المسائل المؤدية إلى هذه البغية إذ قدم إلى مصر رجل فرنساوى يدعى (سيف) من ضباط الجيش الفرنساوى، فاستخدمه لهذا الغرض ولما كان لهذا الرجل شأن عظيم في كافة الحروب التي حصلت في بلاد اليونان والشام أردنا أن نأتى بترجمته وكيفية مجيئه إلى مصر قبل الشروع في تفصيل هذه الحروب وما نشأ عنها من تداخل الدول الأوربية.

٤ - ترجمة سليمان باشا الفرنساوى*

ولد والد هذا القائد الشهير في ٢٦ يولييه سنة ١٧٥٤ وكان أبوه مزارعاً مقيماً بضواحي مدينة (ليون)^(١) من أعمال فرنسا واسمه (انسلم سيفوس) وشب بين أهله حتى بلغ سن المراهقة فلم يرض بصنعة أبيه فتركه وذهب إلى رجل كان يصنع البرانيط ليتعلم منه ومكث عنده حتى برع في هذه الصناعة ثم سافر إلى مدينة (ليون) واتخذ له فيها حانوتاً يعمل به البرانيط واشتهر صيته بذلك خصوصاً في الجهات المجاورة لها، وصار كل من لا يستعمل برانيطه لا يعد في ذوى الذوق والكياسة فاتسعت ثروته اتساعاً عظيماً حتى طمح نظره إلى المعالي فاشتغل بصناعة الآلات وازدادت ثروته، وتزوج في سنة ١٧٨٦ بابنة أحد الطحانين وكانت فقيرة لا تقدر على دفع مهرها كما هي عادة الإفرنج ولم يكن لها إلا شباهاً وعفافها وجمالها، فساعدته مساعدة عظيمة في أشغاله الكثيرة وصارت تفرح لفرحه وتحزن لحزنه شأن الزوجة الصالحة التي تشارك زوجها في السراء والضراء وكانت ولوداً فلم تأت عليه سنة ١٧٩١ إلا وكان له منها خمسة أولاد ثانيهم المترجم واسمه (يوسف) نسبة لشبيته الذي حضره وقت العماد وكانت ولادته في ١٧ مايو سنة ١٧٨٨.

وفي أثناء هذه المدة ابتدأت الثورة الفرنسية الشهيرة في الظهور وكان من دأب حكام ذلك الوقت قتل الأشراف وهدم قصورهم خصوصاً المشيدة البنيان القوية الأركان التي كانت تشبه القلاع لأنهم كانوا يصطنعونها ليحتملوا فيها

* أترنا أن نجعل هذا موضوعاً لفصل لأنه يشكل موضوعاً مستقلاً استطرد فيه المؤلف بشكل خاص، وإن كان له صلة بالموضوعات التالية (المحرر).

(١) ليون هي مدينة من أعمال فرنسا واقعة على ملتقى نهري السون والرون أسست سنة ٤١ قبل المسيح تقريباً في زمن الدولة الرومانية واتسعت عمارتها في أيام الإمبراطور أوغسطس وخلفائه ثم اتسعت تجارتها لأهمية موقعها لكن اضمحل حالها حين أغارت عليها الأمم المتبربرة التي قوضت أركان الدولة الرومانية في الجيل الرابع للمسيح لكن ما لبثت أن عاد إليها مجدها الأثيل وروقتها القديم ولم تنزل في تقدم وارتقاء إلى يومنا هذا وبلغ عدد سكانها نصف مليون تقريباً وهي أهم المدن بفرنسا بعد باريس وقد اشتهرت بصناعة الحرير والإتجار به إلا أن تلك الصناعة قد قلت من يوم سابقتها لألمانيا والسويسرة في حلبة هذا المضمار وقد نبغ منها عدد عظيم من علماء فرنسا مثل (تبير) العالم الذي ساعد كثيراً على اكتشاف التلغراف للكهربائي والمسيو (جكا) مخترع آلة النسيج وغيرهما.

أحياناً عند شن الغارة عليهم، كما كانت عادتكم في تلك الأعصر، وكان بجوار مدينة (ليون) شريف يدعى الماركيز (دى بارال) له قصر باذخ به قلعة فتظاهر بالدخول في حرب الجمهورية خيفة من أن يضطهده الجمهوريون وشرع في بيع قصره حتى لا يكون ثمة داع لإضطهاد الجمهوريين إياه، فلما علم والد المترجم بنوايا الماركيز اشترك مع ثلاثة من الفلاحين واشتروا القصر مع قلعته بثمن بخس على شرط هدمه فقبل هدمه، ثم شرع (انسلم سيفوس) هو وشركاؤه في بيع ما كان فيه من الأمتعة الثمينة والأثاث الفاخرة والأسلحة القديمة فربح من ذلك مبالغ جسيمة، ثم ابتدأ في هدم القصر حسب شروطه فساعدته الحظ بقتل الماركيز، الذي قتله الجمهوريون عند وقوفهم على حقيقة حاله وكنه خبره، فتخلص بذلك (انسلم سيفوس) من تنفيذ شرطه الذي ربما استغرق جلّ ما ربحه من بيع الأثاث.

هذا وكان (يوسف سيف) المترجم حادّ الطبع شكس الأخلاق لا يقبل نصائح والده ولا أوامره ولا يطيع إلا هوى نفسه، وكان في ذلك ضرره فلما أراد والده أن يمرّنه على أشغاله لم يجد منه إلا أذناً صماء وكان يترك منزل والديه ويرتفع في الفلوات مع الصبيان، وحين كان يعود إلى والده وقد رأى منه عدم الهداية والإمتثال يذيقه أنواع الأذى كالضرب المؤلم والشتم الفظيع فحين يرى ذلك من أبيه يهرع ثانياً إلى ما كان عليه وهلم جرا... ولما يئس والده من إصلاح أخلاقه وتقويم ما اعوج من طباعه أدخله المدرسة البحرية في أواخر سنة ١٧٩٩ الموافق (٢ فاندмир سنة ٧)^(١) من التاريخ الجمهوري وكان عمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام.

(١) لما استولت الأحزاب للمتطرفة على أنمة الحكومة للفرنساوية سنة ١٧٩٢ أرادت هدم أركان الهيئة القديمة برمتها ومما غيرته التاريخ المسيحي واستعاضته بتاريخ جديد ابتدأه يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وغيرت أيضاً أسماء الأشهر بأسماء توافق حالة الفصل من حر أو برد أو هواء أو مطر أو تلج إلى غير ذلك وجعلت الشهر ثلاثين يوماً ينقسم إلى ثلاثة أعشار (نيكاد) وجعلت خمسة أيام أو ستة نسيئاً في آخر السنة.

فلم تذب طباعه صعوبة أحكام القانون البحري ولذلك لم يرتق في الرتب بل بقي في درجة صف ضابط مع أنه كان متصفاً بالشجاعة وسكون الجأش عند الخطر، فحضروا واقعة (ترافلجار)^(١) سنة ١٨٠٥ ولم يبلغ من العمر وقتئذ إلا سبع عشرة سنة وهو في رتبة صف ضابط في الألاى الثانى من الطوبجية البحرية ولم ترعه مخاوف هذه الواقعة الهائلة التى انتصر فيها الأميرال (نلسون)^(٢) الإنكليزى على دونمات فرنسا وإسبانيا معاً وجرح في ذراعه الأيمن جرحاً غير ذى بال ولما شفى منه توجه مع الدونمة الفرنسية إلى جزائر (أسور) وجزائر (كناريا) وبقي مدة سنتين فى السفن الطرّادة عن شواطئ إفريقيا الغربية وأوربا، ومع ذلك لم تؤثر هذه الصعوبات الشاقة فى طباعه بل استمر على ما كان عليه من عدم طاعة رؤسائه والإذعان لأوامرهم، حتى غضب عليه فى يوم من الأيام أحد الضباط ورفع عصاه ليضربه فأخذها منه وطقق يضرب ذلك الضابط بها حتى كسرها، فوضعت لذلك فيه الأغلال، وسجن إلى أن يحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص كما هو حكم القانون العسكرى ولكن لم ينفذ هذا الحكم عليه لأن أحد رؤساء الجيوش وكان قد خلّصه المترجم من الموت فى إحدى الوقائع سعى فى حصول العفو عنه من الإمبراطور نابوليون الأول فلم ينجح سعيه فى العفو عنه، فتحيّل له فى خروجه من السجن وأرسله إلى أحد أصدقائه وكان أميرالاً من الفرنسيين الموجودين إذ ذاك فى إيطاليا فقبله فى ألابه بصفة نقر عسكرى وذلك فى ٢ مايو سنة ١٨٠٧ وغير اسمه من ذلك العهد (بانسلم سيف) على اسم والده لئلا يعرف ولم يزل هذا القائد مساعداً له حتى حصل

(١) للطرف الأغر (المحرر).

(٢) ولد هذا الأميرال الشهير سنة ١٧٥٨ ودخل البحرية ولم يبلغ من العمر إلا اثنتى عشرة سنة وامتناز بين أقرانه وتقدم بسرعة حتى عين وكيل أميرال سنة ١٧٩٧ وفى ١٧٩٨ حاول الإستيلاء على جزيرة (تريف) إحدى مجمع جزائر (كناريا) التابعة لإسبانيا فلم ينجح ولما سافر بونابرت وجيشه من تولون فى مايو سنة ١٧٩٨ بقصد فتح مصر تبعه (نلسون) بعمارته فلم يلحق مراكبه إلا بعد أن نزلت الجنود إلى البر فأحرقها فى فرضة أبى قير فى ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ وبعد عدة مواقع غير مهمة تقابل مع عمارتى فرنسا وإسبانيا بالقرب من رأس (ترافلجار) قريباً من بوغاز جبل طارق وانتصر عليهما وأغرق عدداً عظيماً من مراكبهما وقتل نلسون فى هذه الواقعة (٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥) ثم نقلت جثته إلى مدينة لندن حيث احتفل بتشييع جنازته احتفالاً عظيماً ودفن فى كنيسة وستمنستر المخصصة لدفن ملوك انكلترا ومشاهير رجالها.

على رتبة أونباشى بعد أن دخل الجيش بثلاثين يوماً في ٢ يونيو سنة ١٨٠٧ ولم يتعرض أحد لهذه الترقية لأنه كان محبوباً عند هذا الجيش للطفه وحسن أخلاقه في نظرهم وشجاعته لا سيما في استعمال كافة أنواع الأسلحة، وقوته كانت تغرس مهابته في قلوب أقرانه.

ولم يزل في رتبته التي أعطاها لم يتعدّها إلا بعد مدّة وذلك أنه في إبريل سنة ١٨٠٩ كان الألاى الفرنساوى السادس الذى فيه المترجم معسكراً في شمال مدينة (مينينج)^(١) وفي ١٥ إبريل من هذه السنة أرسل قائد هذا الألاى أربعة من الجند منهم (انسلم سيف) للإستكشاف تحت إمرة أحد الضباط فتوغلوا في البر حتى وقعوا في كمين من الأعداء كان يتربص في هذه الجهة فرصة فأحاط به الأعداء إحاطة الهالة بالقمر فسقط في أسرهم وقد أصيب بثلاث جراح وطلق نارى بعد أن قتل حصانه تحته فحرم لذلك من حضور الوقائع المهمة التي انتصر فيها نابوليون على النمساوية نصراً ميبناً وسبق مع الأسرى إلى بلاد (هنكاريّا)^(٢) حيث ضمدت جراحه ولم يمض عليه زمن طويل حتى نقه ولما بلغ تمام الشفاء دخل في خدمة أحد أمراء المجر فكان يعامله كصاحب مخلص لا كعدوّ أوقعه الحرب في ربة الأسر ولذلك لم يتمكن من الرجوع إلى فرنسا إلا بعد أن أقام سنتين أسيراً.

ولما عاد إليها لحق بألايه وكان معسكراً في مدينة (فيزول) من أعمال فرنسا وترقى إلى رتبة جاويش مكافأة له على ما قاساه من عناء الحرب وشدة الأسر وكان ذلك في ١٦ يوليو سنة ١٨١١ ثم سافر ألايه إلى بلاد (هانوفر) بألمانيا في نوفمبر سنة ١٨١١ وانتظم في سلك الجيش المعدّ للهجوم على روسيا وكان مؤلفاً من ستمائة ألف مقاتل ما بين فرنساويين وألمانين وإيطاليين وغيرهم من

(١) مينينج وتسمى بالألمانية (منكن) لو ميونخ لجمل بلاد ألمانيا وهي تحت مملكة (بافاريا) الدخلة ضمن إمبراطورية ألمانيا أسست سنة ٩٦٢ ميلادية وتشتهر بعمل الليرا وبها مبان عمومية في غاية الإنتظام وكثير من المدارس ومما يستحق الذكر دار كتبها التي تحوى على نيف وأربعمئة ألف نسخة من الكتب المطبوعة وعشرة آلاف نسخة من كتب خط اليد ويبلغ عدد سكانها ٢٧٠ ألف نسمة.
(٢) المجر (المحرر).

كافة ممالك أوروبا الخاضعة لفرنسا فعبر نهر (نيمين) في ٢٤ يونيو سنة ١٨١٢ ونهر (دنيبر) في شهر أغسطس التالي، وكانت الجيوش الروسية تنسحب متقهقرة أمام الجيوش الفرنسية بدون قتال، كأنهم لا يريدون المدافعة عن وطنهم وما كانت هذه القهقري إلا حيلة أرادوا بها أن يطمعوا الفرنسيين في الدخول إلى داخل السهول الروسية ثم يقطعون عنهم خط الرجعة بلا تعب ولا نصب، ولقد نجحت هذه الحيلة وتوغل نابوليون في البلاد الروسية حتى وصل مدينة (موسكو) ودخلها عنوة بعد واقعة (موسكوا) التي كانت سبباً لتخليد اسم (المارشال ني)^(١) في التواريخ في ٧ سبتمبر سنة ١٨١٢، لكن آلى الروس على أنفسهم أن لا يسلموا المدينة للفرنساويين إلا بعد أن يحرقوها ولم يتيسر للفرنساويين حينئذ المكث مدة الشتاء داخل هذه المدينة ولما لم يكن في البلاد المجاورة لها ما يكفي مؤنة هذا الجيش الجرار لا سيما وأن الروس أحرقوا كافة مزارعاتهم وكانت المسافة بين موسكو والبلاد التابعة لفرنسا شاسعة ولم يتيسر لهم الإتيان بالموثون والذخيرة منها عزم نابوليون على الرحيل من روسيا والرجوع إلى فرنسا، فهلك السواد الأعظم من جيشه إما من شدة البرد أو من هجمات عساكر القوزاق عليهم ولم يعد إلى فرنسا إلا أقل من النصف.

وكانت هذه الواقعة أول أفول نجم نابوليون وفاتحة انكساره حتى لم يبق له بعدها قائمة وقد رقى المترجم أيضاً إلى رتبة باشجاويش بعد عودته من روسيا إلى رتبة ملازم ثاني في ٥ يونيو سنة ١٨١٣ بعد أن اشتهر في وقعة (بوزن) في ١٢ فبراير سنة ١٨١٣ واستحق الشاء من رؤسائه وطعن في هذه الواقعة برمح

(١) ولد هذا المارشال سنة ١٧٦٩ بقرية صغيرة ضمت إلى أملاك بروسيا سنة ١٨١٥ وكان أبوه صانع براميل وتطوع في جيش فرنسا سنة ١٧٨٧ على حين لم يبلغ سنه ١٨ سنة وشهد أشهر الوقائع الحربية التي حصلت بين فرنسا ودول أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر وترقى إلى رتبة لواء (جبرال دي بريجاد) سنة ١٧٩٦ وإلى رتبة فريق في سنة ١٧٩٩ وذلك حين لم يبلغ من العمر إلا ثلاثين سنة واقتصر على الألمانين في واقعة الشنجن سنة ١٨٠٧ وعلى الروس في واقعة موسكو سنة ١٨١٢ ولذلك لقبه الإمبراطور نابوليون بلقب دوك دي الشنجن وبرنس دي لا موسكوا ولما استقال نابوليون أول مرة وتولى لويز الثامن عشر منحه لقب (بيردى فرانس) إلا أنه انضم إلى نابليون عند عودته من جزيرة ألب ولذلك حوكم في مجلس عسكري بعد اتخاذه الإمبراطور في واقعة وترلو (١٨ يونيو سنة ١٨١٥) وحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونفذ عليه الحكم في ٨ ديسمبر سنة ١٨١٥.

طعنة كادت تكون القاضية ولقد اشتهر (سيف) بين أقرانه بالشجاعة والنخوة وثبات الجأش فكان لا يرهبه رئيس ولا أمير ولا الإمبراطور نفسه، لأنه كان سالكاً في طريق الواجب المطلوب منه لا يخشى لومة لائم ويحكي عنه حادثة غريبة تدل على قوة بأسه وزيادة طيشه وذلك أنه بعد وقعة (بوتزن) في ٢١ مايو سنة ١٨١٣ كتب اسمه في قائمة من استحقوا نيشان الشرف^(١) (ليجيون دونور) فناداه الإمبراطور أمام الصفوف ليقبله النيشان بيده تشریفاً له على أقرانه فلما حضر أمامه ناوله النيشان موبخاله على طيشه وعدم انقياده لأوامر رؤسائه فاحمرّ وجهه وقفل راجعاً إلى مركزه بدون أن يستلم النيشان فغضب الإمبراطور لذلك وقال لولا ما اشتهر به (سيف) من الشجاعة لبطشت به ولكن عفو عن كفاه بعدم إعطائه هذا النيشان جزاء.

ثم امتاز أيضاً عن أقرانه حين دخل جيش الدول المتحدة إلى أراضي فرنسا في أوائل سنة ١٨١٤ بعدة أمور تدل على شجاعته وقوة جنانه وأنه لا يتأخر عن اقتحام الخطوب للدفاع عن وطنه شأن كل رجل حرّكه المحبة لمسقط رأسه واستفزته النخوة الوطنية وذلك أن قائد ألابه لما بلغه أن بعض عساكر وضباط القوزاق الروسين محتلون قرية لا تبعد عن الموقع المعسكر هو فيه إلا ثلاثة فراسخ، أراد أن يستطلع حقيقة هذا الخبر وطلب أن أحد الضباط يعرض نفسه لهذا الاستكشاف فلم يجب طلبه إلا (سيف) فاستصحب معه بعض الفرسان وهجم على نقطة العدو وقتل بعضهم وأسر الباقي فاستحق بذلك رضا رؤسائه ومحبتهم ومدحهم له على ما شوهد منه وامتاز به بينهم حتى أن قائد هذه الفرقة هنأه على شجاعته أمام بقية الجيش ورقى (سيف) بذلك إلى رتبة ملازم أول في ١٣ مارس سنة ١٨١٤ ونقل إلى الألاب الرابع عشر وكلف بحمل بيرقه ولكن لم يلبث أن تبدل فرحه ترحاً وسروره حزناً بانتصار جيوش أوروبا على العساكر

(١) هو نيشان أسسه بونابرت في ١٩ مايو سنة ١٨٠٢ حين كان قنصلاً أولاً قبل أن يصير إمبراطور ويلقب بنابوليون الأول ولقد طرأت على هذا النيشان عدة تغيرات تبعاً لتغير الحكومات لكن لم يبطل بالكلية لتعلق الأهل به لأنه يذكرهم بانتصاراتهم العديدة على أوروبا.

الفرنساوية ودخولهم مدينة باريس وإجبارهم نابوليون على الإستقالة ونفيهم إياه لأول مرة في جزيرة (إلبه) وسافر نابوليون في ٢٠ إبريل سنة ١٨١٤ مودعاً عساكره في حوش قصر (فونتبلو) وأعقب سفره دخول لويز الثامن عشر مدينة باريس التي لم يتمكن من الدخول إليها إلا بمساعدة الأجانب له.

فانتهى الحرب بذلك وأفاقت الأهالي من هم الحروب وما يتبعها من الكروب مع إن الفرنسيين كانوا يؤثرون استمرار القتال، ولو كان فيه فناءؤهم عن آخرهم، أولى من وطأة الأجنبي أرضهم ولكن للدهر حالات وللوقت ضرورات توجب الوطني لتحمل وجود الأجنبي في بلاده بصفة حاكم أو مالك معللاً نفسه بالحصول على الإستقلال السياسي قريباً كان ذلك أو بعيداً.

هذا ولم يرض (سيف) أن يبقى في خدمة حكومة تعضدها العساكر الأجنبية، لغاية في النفس لا لخير تعود ثمرته على بلاده، كما كان يظن أحزاب^(١) لويز الثامن عشر، فرجع إلى بلده (ليون) حيث كان أبوه وأقاربه مقيمين فكانوا يجتمعون به ويسلون أنفسهم عن هذه المصيبة بتذكر مجد فرنسا وما نالته من الفتوحات في زمن هذا الرجل الذي تحدث بذكره الركبان وخشى بأسه القاصي والدان حتى وافاهم خبر رجوع نابوليون من منفاه ونزوله إلى البر في خليج (جوان) بالقرب من مدينة (كان) في أول مارث سنة ١٨١٥ أي بعد تنازله عن أريكة الإمبراطورية بعشرة أشهر.

ولما شاع خبر عودته تجمع ضباط جيوشه المظفرة وطفقوا يهيجون الأهالي على حكومة لويز الثامن عشر ويذكروهم بمجد نابوليون وانتصاره على جيوش أوربا بأسرها غير مرة ويقولون لهم أنه لم ينهزم فعلاً بل خانته بعض قواده الذين قابلوا نعمته بالكفران وخانوا وطنهم العزيز وساعدوا الأجانب على إذلال مواطنينهم طمعاً في الدنيا وحباً في المال الذي سعوا في اكتسابه بدون مراعاة شرف ولا ذمة ولا حرمة وطن.

(١) هكذا في الأصل (المحرر).

وكان (سيف) المترجم من أعظم نصراء نابوليون في مدينة (ليون) فكان يدخل القهاوى والتياترات وكافة المجتمعات العمومية لتهيج الأهالى وإثارتهم على الحكومة المعضدة من أعداء الوطن والأمة ولم يكن ذلك منه طلباً لإقتناء الثروة والترقى إلى الرتب العالية بل حباً منه في استخلاص وطنه وتطهيره من احتلال الأجنبي فيه.

ولم يكن مع نابوليون عند نزوله على شواطئ فرانسإ إلا تسعمائة رجل، ومع كون جنوب فرانسإ من حزب البوربون، لم يخش نابليون من التوغل في البلاد مع قلة حرسه لفرط شجاعته وقوة بأسه حتى قرب من مدينة (جرينوبل) إحدى مدن فرانسإ الحصينة فأرسل حاكمها عساكر الحامية لقتال نابليون وحاميته والإتيان به أسيراً إلا أن الجنود لما رأته تذكرت مجدها الأثيل فلم تجسر على مطاردته بل انضمت إليه وصافحته وصاحبتة إلى مدينة (جرينوبل) وكان دخوله فيها في التاسع عشر من مارث.

فلما رأت حكومة البوربون الإسراع في تقدمه نحو مدينة (ليون) وظهر لها أن أغلب الضباط والقواد كارهون لها ومائلون إلى نابليون أرسلت إلى (ليون) الكونت (درتوا) أخا الملك ليقود حاميتها المؤلفة من خمسة عشر ألف عسكرى فاستعرضهم في ١٠ منه ولما رأى على وجوههم علامات الميل لنابليون ويئس من مساعدتهم سافر من (ليون) في صبيحة ١١ من الشهر وبعد سفره أعلن الجند الإنحياز لحزب الإمبراطور فدخلها في مساء اليوم نفسه ثم سافر منها في اليوم الثالث عشر منه قاصداً باريس الزهراء، ودخلها جهاراً بين صفوف الأهالى والجند في ٢٠ مارث بدون أن يصادف ما يعوقه في مرور من جنوب فرنسإ إلى شمالها.

ولما عين الجنرال (جروشى) قائداً عاماً للفرقة العسكرية في مدينة (ليون) وضواحيها وسمع بما أتاه (سيف) من المساعدة لنابليون، كافأه على ذلك بتعيينه

ضمن أركان حربه ورقاه إلى رتبة يوزباشى ولكنه لم يحظ بها، لأن الإمبراطور لم يلبث إلا قليلاً وهزمته جيوش انكلترا وبروسيا المتحدة في وقعة (وترلس) في يوم ١٨ يونيه سنة ١٨١٥ وبعد هذه الواقعة التي خلدت اسم (ولنجتون)^(١) الإنكليزي دخلت الجيوش باريس ولم يسع نابليون إلا التسليم ليأسه من الظهور على أعدائه حيث لم يبق في فرانساً جيوش مدرّبة فركب في ١١ يوليو السفينة المسماة (بلوروفون) وقصد بلاد الإنكليز ووضع نفسه تحت حمايتهم، لكن خانة الدهر فسيق إلى النفي في جزيرة (سانت هيلينه) الواقعة في الأوقيانوس الأطلنطي في المنطقة الحارة ومكث بها ست سنوات إلى أن قضى نحبه في ٥ مايو سنة ١٨٢١.

هذا وبعد دخول البوربون في فرنسا عقب هذه الواقعة أمر (لويس) الثامن عشر بتشكيل مجلس حربي لمحاكمة القواد والضباط الذين انضموا إلى نابليون حين أرسلوا لمحاربتة والقبض عليه فأقيمت الدعوى الحربية على تسعة عشر جنرالاً ومارشالاً وكان من ضمن هؤلاء وفي مقدّمتهم المارشال (ني) الملقب ببرنس مسبكوا نسبة إلى البلدة التي انتصر فيها نابليون على الجيوش الروسية وكان هذا النصر بسبب ما أظهره المارشال من الشجاعة والمعرفة في فنون الحرب.

وسبب محاكمته أنه لما كان نابليون عائداً من منفاه الأول أرسلته حكومة البوربون لمحاربتة وأخذه أسيراً فسافر معترفاً لها بذلك لكنه لما تقابل معه تذكّر

(١) ولد الدوك دي ولنجتون سنة ١٧٦٨ في إحدى مدائن لارلندا من عائلة حديثة الشرف وتعلم الفنون الحربية في مدرسة (انجير) من أعمال فرنسا ثم دخل الجيش الإنكليزي برتبة ملازم ثاني سنة ١٧٨٧ ثم أرسل إلى الهند مع شقيقه اللورد لسلي الذي عين حكمداراً عاماً لها سنة ١٧٩٦ واشتهر في عدة وقائع حربية ثم عاد إلى انكلترا سنة ١٨٠٥ وانتخب عضواً في مجلس العموم وتعين سكرتيراً لولا لحكومة لارلندا وفي سنة ١٨٠٨ عين قائداً للجيش الإنكليزي الذي أرسل في بلاد الأيرتغال لحمايتها فتمكن من إجلاء الفرنسيين عنها ثم التقى أثرهم في إسبانيا حتى أكرههم على إجلائها بعد عدة وقعات أهمها وقعة (فتوريا) في ٢١ يونيو سنة ١٨١٣ ولأجلها رقي إلى رتبة مارشال الرفيعة وأعطى لقب دوك ثم اجتاز جبال (برينيه) وحاصر مدينة (تولوز) بفرنسا ولم يدخلها لمنعتها ثم توجه إلى باريس حين دخلتها جيوش الدول أول مرة وعين نابيلاً عن انكلترا في مؤتمر فيينا الذي عقد لتسوية حالة أوروبا بعد سقوط نابليون ونما عند نابليون من منفاه في شهر مارث سنة ١٨١٥ اعتزل الأعمال العسكرية وعاش معزواً ودخل في وزارات روبرت بيل غير مرة وتوفي سنة ١٨٥١.

نعمته ومصاحبته له في سائر الحروب ومشاركته إياه في غالب انتصاراته بل أشهرها، وأمالته إليه عوامل المحبة التي كانت تجره نحوه من جهة، وميل العساكر التي تود الانضمام إلى نابليون من جهة أخرى فانضم إليه بعسكره.

ولما بلغه الخبر بإصدار الأمر بالقبض عليه لم يصدق حيث أن معاهدة ٣ يولية سنة ١٨١٥ أقرت بالأمان لكافة الضباط الذين انحازوا إلى نابليون ولم يجزم بأن حكومة متمدنة تقرر على شئ ولم تنفذه، فلذلك لم يرح بلده مع أن إخوانه وخلانه عرضوا عليه البراح وبذلوا له جميع ما يلزمه من المال والرجال للخروج من أرض فرنسا والالتجاء إلى حكومة أخرى فلم يجهم لذلك وبقي حتى قبض عليه في يوم ٥ أغسطس سنة ١٨١٥ وفي أثناء سفره مخفوراً بأنفار الشرطة إلى مدينة باريز لإيقاع الحكم عليه عرض عليه أيضاً بعض أصحابه أن يأخذوه عنوة من الخفر ويهربوه من فرنسا فمنعته نفسه الأبية أن يأتي هذا الأمر الذي ربما ينسب به إلى الجبن والندالة فلما وصل إلى باريس وسجن بها ألف بعض الضباط عصبة قوية وكان المحرض عليها (سيف) وتشعبت فروعها في أكناف باريس قصد تخليص المارشال (ن) من القتل فلم يقبل ذلك وآثر الموت على الحياة مع الهرب فحكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص ونفذ عليه الحكم في يوم ٧ ديسمبر سنة ١٨١٥ فمات على شهامته وفرط شجاعته مأسوفاً عليه من كل وطني إلا من على بصرهم غشاوة.

ومما يحسن ذكره هنا أنه أثناء المرافعة والمدافعة قام أحد المحامين المكلفين بالمدافعة عنه وطلب عدم اختصاص المجالس الفرانساوية عموماً بمحاكمته لأنه ليس فرانسواياً لكون البلدة التي ولد فيها سلخت عن فرنسا وألحقت بألمانيا فقام عند ذلك المارشال (ن) وقال إني لم أزل فرانسواياً وإني أود الموت كذلك وأوتره على أن أعيش أجنبياً عن وطني الذي تربيت فيه واستظلت تحت سمائه ونلت الرتب العالية في الدفاع عنه.

وبعد موت المارشال (ني) ضاق بسيف الحال ولم يكن عنده ما يسدّ به رمقه لأنه أراد الدخول في عداد الجيش الذي ألف بعد حل الجيش الذي ساعد نابليون، فلم يجد لذلك سبيلاً ولم يقبل في مصالح الحكومة أيضاً لتشيعه للإمبراطور، فاشتغل آخر الأمر بالتجارة في الخيول والعربات فنجح فيها قليلاً ولكن لم يكفه ربحه من ذلك لما كان متعوداً عليه من كثرة النفقة والميل للملاذ، فتركها ودخل في إحدى العزب مديراً وكان ذلك في ١٠ إبريل سنة ١٨١٦ لكنه لم يرض بهذه الوظيفة لحقارتها بالنسبة لما كان فيه أولاً من علو الرتبة والدرجة فعاد إلى تجارة الخيول ثانياً ولم يزل في هذه المهنة حتى نفذ ما كان عنده من المال وبلغ من حاله أنه لم يقدر على دفع أجرة منزله الذي كان يسكنه.

ولما يئس من بلوغ الثروة التي كان يسعى دائماً وراءها في باريس باع ما بقي عنده من العربات والخيول ورحل إلى مدينة (ليون) وأقام عند عمه مدة مختفياً خشية من مطالبة غرمائه له ومضايقتهم إياه فلما علموا بمكانه ذهبوا إليه وصاروا يطالبونه ويعنفونه ويهدّدونه بالمرافعة أمام المحاكم حتى ضايقوه مضايقة شديدة حملته على المهاجرة إلى بلاد إيطاليا وكان ذلك في أوائل سنة ١٨١٩ وأقام في مدينة ميلان عميلاً لأحد تجار مدينة ليون بشئ تافه هذا وفي أثناء هذه المدة بلغه أن شاه العجم يريد أن يستخدم بعض الضبط الأوروبيين لتنظيم جيوشه على الطراز الأوربي الجديد فرغب في ذلك ولكن رأى أنه لا يمكنه السفر إلى مثل هذه البلاد بدون توصية عظيمة فتحرر في أمره ثم أرسل خطاباً إلى الكونت (دي سيجور) يطلب منه المساعدة في هذه المسألة.

فلم يمض إلا أيام قلائل حتى ورد إليه من الكونت خطاب يخبره فيه أن الأولى له العدول عن السفر إلى العجم والتوجه إلى مصر لوجود كثير من الفرنسيين بها تسهل عليهم مساعدته وأرسل يوصي به الفرنسيين المقيمين في القطر المصري ليقدّموه إلى محمد علي باشا الذي كان آخذاً وقتئذ في عمل كل ما يعود على مصر التي اختارها وطناً له من الخير العميم والنفع الجزيل، وكان يقبل كل من

يساعده على إنفاذ مشروعاته من حيز الفكر إلى حيز العمل من أى جنس كان غير مراعى في ذلك شيئاً سوى مصلحة البلاد المصرية فإنه كان يستعمل الأجانب للوصول إلى هذه الغايات ويستعين بهم كآلات لتقدم بلاده في مدارج الكمال وتأسيس المدارس والمعامل والإستباليات وفتح الورش وحفر الترع لتسهيل الرى وغير ذلك. وكان من حسن إدارته أنه متى نشأ من المصريين رجال أكفاء يقومون بما تقدم حق القيام استغنى بهم عن الأجبيين وولى مكافهم من نبغ من المصريين.

* * *

وصول سليمان باشا إلى مصر:

وبمجرد وصول جوابات الكونت دى سيجور إليه (وكان من ضمنها كتاب مخصوص لمحمد على باشا) قام من ساعته قاصداً ثغر الإسكندرية ومنه إلى القاهرة ولما وصل إليها تقرب إلى محمد على باشا بواسطة الفرنسيين المقيمين إذ ذاك بمصر وقدم إليه كتاب الكونت دى سيجور فقابلته مقابلة خصوصية استفسر منه في خلالها عن حقيقة أمره حتى وقف منه على سبب مجيئه إلى مصر وبعد محاورة طويلة تفرس منه في خلالها الشجاعة والشهامة والصدقة والولاء عرض عليه أن يستخدمه فقبل منشرح الصدر مستبشراً ببلوغ المأمول حيث نال ما لم ينله في فرانس وإيطاليا بعد السعى المديد والعناء الشديد فكانت عاقبة أمره خيراً وعند حسن الصبر كثيراً ما ينال الصابرون.

وصادف مجيئه إلى مصر انتصار الجيوش المصرية على الوهابيين - كما تقدم في موضعه - ولا يخفى أن محمد على باشا وطد ملكه في القطر المصرى بفتح بلاد العرب بناء على طلب الباب العالي صاحب السيادة في هذه البلاد وكانت الصناعة والتجارة سالكتين سبيل التقدم والفلاح لا سيما بعد إنشائه فوريقات في سائر أكناف البلاد فضلاً عن المعامل التي لم تزل آثارها باقية مشاهدة إلى الآن مهمة في زوايا النسيان وكانت القوة البحرية في غاية الاستعداد ولم ينقص

مصر في ذلك الوقت شيئاً إلا جيشاً مرتباً ومنظماً على الطراز الأوربي الجديد، وكان قد شرع في ذلك مراراً قبل مجئ سليمان باشا ولكن لم يتم مشروعه لمعارضة عساكر الترك والأرنؤد له، كما سبق ذكر ذلك في موضعه، ولكون السواد الأعظم من جيشه كان مركباً منهم بعد أن قتل جميع رؤسائهم في القلعة أول مارث سنة ١٨١١ لم يقو على إذلالهم وتنفيذ أغراضه بالرغم عنهم.

ولما تم له النصر على الوهابيين ولم يكن ثمة احتياج إلى مراعاة خاطرهم، عزم على تنفيذ مشروعه وهم لم يمانعوه ولم يعارضوه في التنفيذ حيث قتل الكثير منهم في بلاد العرب فاستخدم (سيف) ليكون هو المنفذ لهذا المشروع لما تفرسه فيه من الشجاعة والمثابرة على الأعمال التي لا يردّها أعظم الموانع ولا أهول الوقائع مادية كانت أو أدبية، ولكي لا يشعر أحد بمقصوده أرسل (سيف) أولاً إلى جهات الحدود القبلية لبحث عما يوجد هناك من معادن الفحم الحجري بناء على اعلام بعض سكان تلك الجهات، فعجب (سيف) من هذا التعيين لكونه لم يكن له أدنى إلمام بمثل هذه المسائل العلمية، لكن لم يتأخر عن الإمثال لأوامر من أوقف نفسه لخدمته ظاناً أن وراء هذا التعيين أمور خفية لابد أن تكشفها الحوادث والأيام.

فعاد من ساعته إلى القاهرة ليتهيأ للسفر إلى الحدود منشرح الصدر قريـر العين لتحسن المستقبل أمامه ولكي يسهل عليه محمد علي باشا الأمر والإجراءات الإدارية اللازمة لصرف ما يلزمه من المال والميرة أرسل الأوامر الشديدة إلى سائر الجهات بإعطائه كل ما يلزمه بدون احتياج إلى الحصول على إذن خصوصي وبتنفيذ كل طلباته بغاية السرعة حتى لا يكون ثمة مانع من سفره. ولما تم له جميع ما يلزمه في هذه الرحلة سافر من القاهرة في بحر شهر يوليو سنة ١٨١٩ في إحدى مراكب الحكومة الشراعية فوصل إلى مدينة أسوط بعد ثمانية أيام لمساعدة ربح الشمال له وعدم حدوث أنواء عاقته عن السير وكان معه في هذه الرحلة أحد مأموري الحكومة المصرية ليكون معيناً له

في تنفيذ أوامره ومزيجاً عنه ما يعتريه في سبيل العقبات الشاقة، هذا هو ظاهر مأموريته، وفي باطن الأمر أنه يكون مراقباً عليه خشية من أن يكون مرسلاً من قبل إحدى الدول الأجنبية بمأمورية سرية لاكتشاف أمر، وليرى أيضاً كفاءته ومقدرته على العمل وهل يمكن أن تحال عليه مهمة عظيمة كتشكيل الجيش المصري وتدريبه على النمط الأفرنكي ولم يعارض (سيف) في استصحابه، بل سرّ من ذلك عازماً على الإستعانة به على معرفة طباع البلاد وإطلاعه على أخلاق أهلها حتى لا يحصل منه أدنى أمر مغاير لعوائدهم وأحوالهم الوطنية والدينية.

ولم يزل سائراً حتى وصل إلى أسوان، حدود الحكومة المصرية وقتئذ بعد أن شاهد في طريقه العجائب من آثار المصريين القدماء الموجودة على ضفتي النيل وبقايا مدينة طيبة التي كانت في ذلك الوقت مطمح أنظار السائحين لقرب عهد أوربا بمعرفتها في أثر أعمال واكتشافات اللجنة الفرنسية العلمية التي أتت مصر مع بونابرت قائد الجيوش الفرنسية التي أغارت على هذه البلاد في أوائل هذا القرن إذ كانت العلماء تؤم مصر من سائر أنحاء أوربا لحل رموز الكتابة الهيروغليفية (لسان قدماء مصر) التي بقيت معماة حتى قبض الله العالم الفرنسي (شامبليون)^(١) فحل رموزها وفك عقودها وأزاح ظلماتها مع أن المصريين كانوا أخرى بذلك وأولى بما هنالك.

فلما دخل أسوان واستراح من تعب أسفاره شرع في البحث عن الفحم الحجري الذي أرسل لأجله ولم يتأخر بسبب اعتقاده الجازم أنه لا يوجد في مثل هذه الجبال الصوانية، بل كان جل بغيته أن يؤدى مأموريته بالصدقة والأمانة

(١) ولد العالم الشهير الممسيو شامبليون سنة ١٧٩٠ وتعين مدرسا للتاريخ في مدينة جرينوبل سنة ١٨٠٩ ومن وقتها خطر بباله حل رموز الكتابة المصرية القديمة فاشتغل بها وقدم نتيجة أبحاثه إلى المجمع العلمي (أكاديمي) وفي سنة ١٨٢٨ و ٢٩ مباح ببلاد مصر لتنظيم مشروعه وبعد عودته جعل عضواً في الأكاديمي الفرنسي وتوفي سنة ١٨٢١ وله كتاب يتطرق بمصر يتكلم فيه على الفراعنة وقدماء المصريين وتاريخهم وديانتهم ولسانهم وكتابتهم وألف لجرومية وقاموساً في لسانهم القديم وقد جعل له أهل بلده تمثالاً لبقاء ذكره وبعد موته تم أخوه تأليفه وطبعها.

ولم يأل جهداً في المرور على الحدود المصرية وما يكتنف أسوان من الجبال شرقاً وغرباً للبحث عن هذا المعدن الذي لا بد منه في تقدم الصناعة في مصر، ولو كان البحث بدون فائدة ولا جدوى ثم سافر من أسوان إلى مينا القصير الواقعة على البحر الأحمر مفتشاً في طريقه عما جاء للبحث عنه وقد أنهكت قواه هذه الرحلة الأخيرة لعدم تعوده على الإقامة في البلاد الواقعة في المنطقة الحارة حتى اعتراه المرض بسبب شدة الحرارة وثقل عليه، حتى كادت روحه أن تزهق وتكون هذه الرحلة خاتمة أسفاره، ولكن لقوة بنيته الأصلية أمكنه أن يقاوم المرض فاستراح أياماً حتى رجعت إليه قواه وقفل راجعاً إلى أسوان.

* * *

وفي أثناء هذه المدة أخذ الجيش المصري في العودة إلى مصر وذلك أن بطل مصر إبراهيم باشا بعد أن استأصل شأفة الوهابيين وأعاد الأمن إلى طريق الحجاج أراد أن يريح عساكره من الأتعاب والأوصاب التي كابدوها أثناء هذه الحروب الهائلة التي استمرت عدة سنوات فترك مدافعه في جدة وأرسل أوامره إلى جزء من جيشه بالعودة إلى مصر براً على طريق ساحل البحر الأحمر ثم سافر معه من بقى من جيشه من جدة بحراً إلى القصير ومنها على طريق الصحراء إلى قنا ثم ركب النيل من قنا قاصداً العاصمة وكان أمراء الصعيد ومأمورو الحكومة يتلقونه أينما حل بالتبجيل والتعظيم، مفتخرين بعوده منصوراً على الفئة التي أعيت العساكر الشاهانية، وما الفضل في ذلك إلا له ولعساكره المصرية التي كانت هذه النصر مقدمة انتصاراتهم وفتوحاتهم كما سيأتي إن شاء الله.

ثم وصل إلى الجزيرة في ٩ ديسمبر سنة ١٨١٩ وقابل والده في سراي شبرا في يوم ١١ فتلقاه فرحاً به مسروراً ومفتخراً بما آتاه الله من الفوز والنصر على أعدائه بواسطة ابنه، وبعد هذه المقابلة العائلية أمر محمد علي باشا، كما تقدم آنفاً، أن تزين العاصمة عدة أيام متوالية فلم يتأخر أحد من سكان البلد عن القيام بأداء الزينة الواجبة عليها احتفالاً بهذا الشجاع الذي أعاد لمصر فخرها

الأثيل وملاً الأصقاع بصيته وشهرته وشهرة الجيوش المصرية التي برهنت تحت إمرته على أنهم قادرون على أن يدافعوا عن وطنهم مدافعة الأسود عن غاباتها لا بل ويفتحون ما جاورهم من البلاد إذا راعى رؤسائهم الذمة والشرف وحب الوطن العزيز ولم يؤثروا المنفعة الخاصة على المنفعة العامة.

ثم دخل شجاع مصر وفخرها إلى العاصمة من باب النصر بموكب حافل اجتمع فيه كل من بالقاهرة من الأعيان والقواد يتقدمهم إبراهيم باشا تحف فوق رأسه الأعلام التي اغتمها من الوهابيين حتى وصل إلى القلعة بين صفوف الأهالي وأصوات النساء التي كانت تملأ الآفاق برنينها استبشاراً بقدوم موكبه الميمون وتعلو عليها أصوات المدافع التي كانت تطلق من القلعة أثناء مرور الموكب من شمال البلد إلى جنوبها، ولم يظهر محمد علي باشا في هذا الموكب ليكون في الاستقبال لولده فقط، بل توجه إلى جامع السلطان الغوري يشاهد موكب ولده العزيز ويتمتع برؤيته محفوفاً بأعيان البلدة وتجارها، فيا لها من حفلة يعجز عن وصفها الواصفون وتقصير عن تسطيرها الأقلام ثم اشتهر بعد ذلك إبراهيم باشا وتحدث بذكر أعماله الركبانية. وإنما أعدنا ذكر الإحتفال برجوعه لأن في الإعادة ثمرة وإفادة.

ولنرجع إلى المترجم (سيف) فنقول أنه عاد إلى أسوان^(١) وأخذ في التفتيش عن الفحم الحجري فعثر على بئر غاز أرشده إليها العرب القاطنون بين القصير وأسوان وكتب عنها تقريراً مبيناً فيه فوائد استعمال الغاز في الإستصباح بدل الشمع والزيت وأنه أيسر من غيره ثناً ولو التزمت الحكومة استخراج له عاد إليها منه ربح عظيم، فلما وصل إلى أسوان لم يجد اليك الذي كان معيناً لمصاحبه فإنه رجع إلى مصر لمقابلة إبراهيم باشا غير مفكر فيما عين لأجله وكذلك لم يجد في البلدة أحد من الأعيان فلما رأى أن الكل هرعوا إلى العاصمة

(١) أسوان قال ياقوت في معجمه بالضم ثم السكون ووجدت بخط لبي سعيد السكري سوان بغير همزة.

رجع هو أيضاً ليقابل من اشتهر صيته في الآفاق مؤملاً أنه ربما يجد عنده وظيفة أو مأمورية يظهر فيها معارفه العسكرية والحربية.

* * *

رجوع سيف إلى القاهرة والابتداء في تنظيم الجيش:

لما عاد المترجم إلى العاصمة قابله محمد على باشا بالبشاشة والترحاب ولم يسأله عن مأموريته ولا عن نتيجتها بل قدّمه إلى ولده إبراهيم باشا وقال له أنه ضابط من جيش فرنسا ويمكنه أن يثق به في سائر أعماله ويستعين بمعارفه في جميع مشروعاته، فأنزله إبراهيم باشا من الإكرام والاعتبار منزلاً رحيباً، وأسرّه بما كان في عزمه وعزم والده من تشكيل جيش جديد مدرّب على الحركات العسكرية والأمور القانونية على وفق الطراز الأوربي، ليتمكن باستخدامه من إتمام ما يقصده من الغزوات والفتوحات وأن ذلك هو غاية مرغوبه ولولا معارضة العساكر الباشبوزق له والأرنؤد لما كان فيهم من القوة لحصل ذلك المشروع، ولكن الآن وقد ضعفت شوكتهم وقل عددهم فيمكنه تميم هذا المشروع الجليل الفائدة الكثير العائدة لعجزهم اليوم عن المعارضة في ذلك، لا سيما مع وجود الجيش المنصور في العاصمة بعد ما اشتهر به من الأعمال في بلاد العرب، ثم شرعاً في تدبير وسنّ ما يلزم لذلك من القوانين والتنظيمات وبعد أن أتم كل ما يلزم ابتداءً في تنفيذ هذا المشروع وعين سيف بوظيفة ضابط (أغا) معلم للجيش.

وبمجرد أن شاع خبر تعيينه تذر ضباط الباشبوزق وتأمروا على معاكسة هذا الأجنبي الذي أتى لتنظيم وتغيير ما تعودوا عليه من عدم النظام والإخلال بشئون وظائفهم وسعوا في الفتك به للتخلص من أعماله التي يرون أنها تعود عليهم بالضرر على زعمهم، غير ناظرين إلا إلى المصلحة الخصوصية التي يهدرون في سبيلها كل منفعة عمومية، ولولا عزم محمد على باشا ونجده وثباتهما

على تنفيذ مشروعاتهما المفيدة فائدة حسنة رغم أنف كل مقاوم ومعاند، لنجحوا في مشروعاتهم السيئة.

ولم يلبث المترجم أن أخذ في تعليم العساكر حتى أتم تعليم فرقة واستعرضها في ميدان الرميلة أمام القلعة بحضرة محمد علي باشا وجميع أعيان البلد وكثير من المعارضين لهذا المشروع المعتقدين عدم نجاحه، وإنما أتوا بأنفسهم ليتحققوا نجاحه من عدمه، فلما رأوا أن المشروع قد أخذ في النجاح صاروا من جهة ينفرون الأهالي منه ويفهمونهم أنه لو نجح هذا المشروع لكان سبباً في أخذ أولادهم وتغريبهم عن أوطانهم وتصير الخدمة العسكرية جبرية على كل شاب مصري سواء كان مزارعاً أو من أهل العاصمة، ومن جهة أخرى يحرّضون العلماء ويلقون في أذهانهم كلاماً يفهم منه الحث على عدم تنفيذ هذا المشروع ويلبسون عليهم الأمر ويروّفهم أن هذا المشروع ربما يكون سبباً لتداخل الأجانب في مصر خصوصاً في الإدارة العسكرية وأن ذلك مخالف للقرآن الشريف والشرع الحنيف.

فصار العلماء يلقون هذه الأوهام في أذهان تلامذتهم وهم ينشرونها بين العامة فازداد بذلك الكلام في هذه المسألة ولكن لم يززع هياج العلماء والقواد وتذمرهم شيئاً من أركان ثبات محمد علي باشا، لكنه توقياً مما عساه يقع مما لا تحمد عقباه صار يحضر التمرينات بنفسه كل يوم وولده إبراهيم باشا وبقية أعضاء عائلته وحاشيته. ويحكى أن الأمير إبراهيم باشا كي يكون قدوة للعسكر ويعودهم على تحمل مشاق النظام العسكري والطاعة لرؤسائهم طاعة عمياء في كل ما يؤمرون به انتظم في سلك العساكر الذين يتعلمون فأخذ بندقية ووقف أمام الصف فلما رآه (سيف) أمام الصف وبخه على ذلك وقال له إن كنت تريد التعلم فاتبع أحكامه وقف في آخر الصف مع أترابك فامتثل وهو كاره ليظهر بذلك التحمل للحاضرين معه من الجند ويعلمهم أن التحمل هو الطاعة وهي

أول الواجبات المفروضة على الجندي وبدونها لا يستقيم نظام الجيش واستمر التعليم عدة أيام على هذا المنوال.

وأما التذمر فكان آخذاً في الإزدياد يوماً عن يوم حتى خيف أن هذه الفتنة تسرى إلى العسكر فإنها لو وصلت إليهم لكانت الحاسمة والقاصمة لهذا المشروع، فجمع محمد علي باشا مجلساً خاصاً للتروى والمشاورة في اتخاذ الطرق المؤدية إلى إتمامه بدون تشويش ولا حصول فتنة تؤدي إلى سفك الدماء فقر رأيهم على أن يرسل سيف وفرقة إلى أسوان في الصعيد ليتم تعليمهم هناك، وبعد ذلك ينظر فيما يكون إجراؤه وكانت تلك الفرقة مؤلفة من ثلاثمائة أو أربعمائة شاب من الممالك الخاصة بمحمد علي باشا، وكان جلهم من الجراكسة وما جاورهم ممن لم يعرفوا من النظمات العسكرية شيئاً بل هم متعودون على الحروب بدون انظام في جباهم الشاحنة التي يكسو بعضها الثلوج الدائمة وكانوا حسان الصور أقوياء أصحاب سريعى الحركات أخفائها مطيعين لأوامر سيدهم في كل ما أمرهم به بدون أدنى معارضة وقد اختارهم محمد علي باشا ليكونوا أول فرقة نظامية لما يعهده فيهم من الاستعداد والنباهة حتى إذا أتموا تعليمهم صاروا رؤساء ومعلمين لغيرهم ممن يراد انتظامه من أولاد المصريين.

فسافر بهم سيف إلى أسوان ليكون بعيداً عن العاصمة وعن دسائس المعارضين للنظام الجديد وعن غواية الغاوين وفساد المفسدين، واشتغل بتعليمهم هناك الحركات العسكرية على النمط الأوربي وما يلزمها ويتبعها من ركوب الخيل والضرب بالسيف إلى غير ذلك وكان دائماً يلقي في نفوسهم حب هذه المهنة الشريفة ويذكرهم ما حدث لنابليون وكيف ارتقى إلى أن صار امبراطوراً على فرنسا واستولى على أغلب عواصم أوربا وكيف أن سائر القواد الذين ساعدوه على ذلك كانوا من أولاد الفقراء وتقدموا بجدهم واجتهادهم وحصلوا على هذه الرتب العالية، لينشطهم ويث في قلوبهم الحمية العسكرية والنخوة الحربية ليكونوا مثلاً للعساكر الذين سيكونون تحت إمرةهم في المستقبل.

ولقد أثر كلامه هذا في بعضهم ولم يؤثر في البعض الآخر الذين كانوا يفضلون المعيشة ضمن الخدم على الأتعاب والتمارين العسكرية غير ناظرين لما ينالون في المستقبل فأبغضوه وتآمروا عليه وهموا بقتله تخلصاً منه ظانين أنهم لو قتلوه ربما يرجع محمد على باشا عن عزمه ويردهم إلى خدمته الخاصة فيقضون عمرهم بين أسافل الخدم وأدنياتهم لكن لحسن حظ المترجم أخبره أحد محبيه منهم بذلك فأسرّها في نفسه إلى صباح الغد حتى إذا كان معهم في ميدان التمرين خاطبهم بما نعى إليه وقال لهم إن القتل غدراً وخيانة هو من أكبر الكبائر وأشنع الرذائل وأفظع القبائح الذي لا يقدم عليه أحد في جيوش أوربا بل إذا أهان أحد آخر استدعاه للمبارزة (الدويلو) جهاراً ويعرض حياته في الدفاع عن شرفه ثم ختم كلامه بأن قال إن كنت أهنت أحداًكم أو أسأت إليه عن غير قصد فليبارزني إما قتلته أو قتلني فبهتوا جميعاً ولم يجسر أحد منهم على مبارزته من هيئته وشدة فراسته وتعجبوا من قوة جنانه وثبات جأشه.

ولكن لم^(١) يزدحم كلامه هذا إلا كراهة له وبغضاً فحنقوا عليه وعزموا على قتله متى سنحت الفرصة وبعد مضي عدة أيام بينما هو يمرّهم على إطلاق البنادق وضبط النيشان أراد أن يتحقق من نظامهم فركض جواده حتى وصل أمام العسكر وبعد إجراء جميع الحركات اللازمة لتعمير البنادق أمر بإطلاقها على هدف كان قد أقامه ونصبه لهم وكان هذا الهدف مرتفعاً عنه ببعض أقدام فبدلاً عن إطلاق البنادق على الهدف صوبوها نحوه وأطلق الجميع بنادقهم قاصدين قتله، لكن لطول أجله لم يصب بواحدة منها فغضب لذلك غضباً شديداً وهجم عليهم بجواده ولم يهبهم بل طفق يضربهم بكرباج كان بيده على رؤسهم ووجوههم موجّهاً لهم على عدم إتقان النيشان وبعد أن فرقهم في كل جهة دون أن يجسر أحد على معارضته أمرهم بالانتظام ووقف أمامهم راكباً جواده وبعد أن انتظم عقد اجتماعهم نادى عليهم بإطلاق النار عليه فبهت الجند وبعد أن ترددوا رموا بنادقهم على الأرض وأسرعوا نحوه يقبلون رجله في الركاب

(١) أضفنا كلمة (لم) ليستقيم المعنى (المحرر).

طالبين أن يعفو عنهم ويغفر ما كان منهم وأقسموا بأن لا يعودوا لمثل ذلك بل يطيعونه إطاعة محضة فتبسم وصفح عن ذنوبهم بشرط أن يحتلوا له في كل ما يأمرهم به مما لا يخالف الذمة والشرف وقال لهم أن المستقبل هو لكم وأنكم ستكونون رؤساء الجيش المصرى عن قريب فأثرت فيهم هذه الأفعال والأقوال تأثيراً حسناً ولم يقع بعد منهم ما يخل بالنظام العسكرى حتى صاروا في غاية الطاعة لرئيسهم.

دخول سيف في الديانة الإسلامية:

وبسبب هذه الحادثة اشتهر المترجم وذاع صيته، حتى صار لا يجهله أحد في القطر المصرى عموماً وفي حاشية محمد على خصوصاً، وانتقل خبر ذلك إلى أوروبا فنشرته الجرائد هناك وصارت بحيث لا يتكلم إلا بها في الأندية والمجتمعات العمومية وكانت هى باكورة أعماله، ومن وقتئذ طلع نجم ساعده في أفق البلاد المصرية في ظل حامى حماها ومعلى كلمتها المغفور له محمد على باشا لكن بقيت عقدة مانعة من وجود الإخلاص القلبى والولاء الصحيح بينه وبين عساكره، وهى اختلاف الدين، وهذا أمر لم يفكر فيه المترجم لعدم تدينه بدين دون آخر فكان فى الحقيقة لا دين له إلا ما يسمونه بالدين الطبيعى وهو الاعتقاد بالخالق والإيمان به وبقدرته ونعيمه وعذابه ورفض أقوال الأنبياء جميعاً واتباع الذمة والشرف فى كل الأمور، وأهل هذا الرأى قوم يدعون أن الأديان لم توجد أو أوجدتها العقلاء إلا لتكون رادعة للإنسان عن وقوعه فى المحظورات وارتكابه المنكرات والإضرار بالناس وما دام للإنسان رادع ووازع من نفسه وذمة، فلا حاجة له باتباع أوامر هذا الدين أو اجتناب منهيات ذاك.

لكن المترجم منعاً لما عسى أن يكون باقياً فى قلب عسكره من الضغائن المسببة عن اختلاف الدين وموافقة لهم على أفكارهم وعوائدهم اعتنق الدين الإسلامى ودان له بواسطة أحد البيكوات المحبين له وتزياً بزي الترك الذى كان شائعاً وموجوداً وقتئذ فى البلاد المصرية، ومن يومئذ سمى بسليمان أغا،

وسنذكره من الآن بهذا الاسم تاركين الاسم الأفرنكي، وكان دخوله في الدين الإسلامي ظاهرياً فقط بدليل حضوره الصلاة التي أقيمت على روح والدته حين سفره إلى ليون كما سيجي، فلما أسلم ازدادت محبة عسكريه له وإطاعتهم إياه وأقبلوا حينئذ على تعليمه بإخلاص النية وصفاء الطوية وأكبوا على تربيته العسكرية حتى حاكوا بعد قليل من الزمن أحسن الجيوش الأورباوية نظاماً وشجاعة وإقداماً.

٥- فتح السودان

وكان العزيز محمد على باشا في أثناء هذه المدة يدبر حيلة لشن الغارة على بلاد النوبة وفتحها لإتصال أسباب التجارة بينها وبين مصر، ولجمع جيش من سكانها المشهورين بالشجاعة والإقدام، وكان له قصداً آخر في إثارة هذه الحروب وهو استئصال شأفة من بقى من عساكره الأرتود وغيرهم من الأخلاط والتخلص من شرهم والتخلص من كيدهم، فإنه كان لا يعول إلا على المصريين الذين ألقىت محبته في قلوبهم لما رفعه عنهم ودفعه من جور المماليك وتعديهم عليهم وظلمهم المتراكم لهم ونشره لواء الأمن بين ظهرائهم وسعيه آناء الليل وأطراف النهار فيما يعود عليهم بالنجاح والفلاح، ولقد كان لديه فرصة مناسبة لدخوله السودان بخيله ورجله وهي التجاء بعض المماليك بعد قتل أغلبهم في القلعة إلى مديرية دنقلة خارجاً عن الحدود المصرية حتى اتخذوها حصناً حصيناً لهم، ولأجل أن يثير خاطرهم أرسل لهم أحد أعوانه ليدعوهم للرجوع إلى مصر والإقامة فيها بشروط أهمها أن لا يدخلوا الحدود المصرية إلا بعد الإذن لهم بذلك وإرسال أحد الضباط ليأتى بهم إلى العاصمة وأن لا يأخذوا شيئاً من المصريين أثناء مرورهم في أرض مصر، كما كانت عليه عادتهم، بل يكون الضابط الذى يرافقهم هو الذى يقوم بجميع ما يلزم لهم من الميرة وغيرها، وأنهم إذا أتوا القاهرة يقيمون في جهة مخصوصة، ومنها أيضاً أن يتنازلوا عما كان لهم من الإمتيازات والحقوق وأن لا يطلبوا ما أخذ منهم بحق أو بدونه بعد مذبحه القلعة من عقار أو أثاث وغير ذلك، فأبى المماليك تلك الشروط الصارمة كما كان يتوقعه محمد على باشا ولم يكتفوا بابائهم بل تهددوه بالدخول إلى الحدود المصرية وإيقاد نار الوغى وإدارة رحاها.

فبمجرد وصول جوابهم إلى الوالى عزم على فتح النوبة لإذلالهم وقطع دابرهم وأمر بحشد الجيوش في جهات مصر القديمة للزحف على السودان وجعل هذا الجيش تحت إمرة إسماعيل باشا ثالث أولاده، وكان إسماعيل باشا

المذكور متصفاً بالشجاعة بارعاً في ضروب القتال لكن أنى له أن يماثل أو يشابه أخاه إبراهيم باشا الذى قهر العرب الوهابيين ودوَّخهم، حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة مع كون العرب مشهورين بالبسالة وشدة البأس وهم الذين فتحوا معظم البلاد في صدر الإسلام ولولا ما وقع بينهم من انفصام عرى الاتحاد وتفرق الكلمة للكونا سائر الأقطار وتغلبوا على جميع ما فيها. أما السودانيون فهم قوم متوحشون لا علم لهم بفنون القتال عزل لا سلاح لهم إلا الرماح ولا علم لهم بقوة نيران البنادق والمدافع إذ لم يسمعوها بما قبل ذلك الوقت ولا واقى لهم من مقدوفاً إلا جلودهم أو الدرق المصنوعة من جلد حصان البحر، فشتان بين هذه الأمم المتبربرة والعرب الذين كأنهم لم يخلقوا إلا للقتال ومع ذلك فقد تمكن إبراهيم باشا من قهرهم وكبح جماحهم.

وكان هذا الجيش الذى كان تحت قيادة إسماعيل باشا مؤلفاً من ثلاثة آلاف وأربعمائة راجل وألف وخمسمائة فارس واثني عشر مدفعاً وخمسمائة من عرب العبادة تحت رياسة شيخهم عابدين كاشف الذى وعده المرحوم محمد على باشا بأن يوليه على دنقلة بعد فتحها.

فلما اجتمع الجيش في جهة مصر القديمة أرسلت العساكر المشاة وباقي الميرة والذخيرة إلى أسوان على طريق النيل وأما الخيالة والمدفعيون فسافروا إليها عن طريق البر وكانت المقدمة تحت قيادة محمد بيك الدفتردار صهر الوالى.

وأما إسماعيل باشا ومعيته فسافروا من القاهرة في ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠، وبمجرد وصوله إلى أسوان اجتاز هو ومن معه الحدود المصرية ودخلوا أرض دنقلة وكان قد احتلها الدفتردار وجيوشه المؤلفة من خمسمائة فارس ولم يعارضهم أحد من الممالك في حال سيرهم بل أدخلوا البلاد ورحلوا إلى مدينة (شندى) فلم يقبلهم ملكها، ولما وجدوا أن بلاد السودان قد أغلقت في وجوههم وأنهم لا يمكنهم الرجوع إليها لإقتفاء الدفتردار أثرهم أيسوا من الحياة وتفرقوا بين القبائل المتبربرة فمات أغلبهم جوعاً وصار السودانيون يسلبون

أسلحتهم وملابسهم حتى انقطعوا عن آخرهم غير مأسوف عليهم لما تركوه في مصر من قبح السيرة وسوء السريرة ولما ارتكبوه فيها من السلب والنهب مما سبق ذكره.

وقد ظن النوبيون أن المصريين يرجعون إلى بلادهم بعد تشتت شمل الممالك، ولذلك لم يستعدوا للقائهم ولا محاربتهم بل استمروا على اختلافاتهم الداخلية فانتهز المصريون هذه الفرصة لإحتلال بلاد دنقلة حتى دخلوا هذه المدينة وحينئذ شكل فيها إسماعيل باشا حكومة منتظمة باسم أمير المؤمنين، لا باسم محمد علي، لأنه لم يكن والياً إلا على مصر من قبل دار الخلافة العظمى.

ثم خرج بجيشه إلى مدينة (شندى) فاعترضه في الطريق النوبيون الذين كانوا قد جمعوا شتات قواهم واتحدوا للدفاع عن وطنهم، ومع ذلك لم يجد دفاعهم شيئاً أمام القوة المصرية لأنها منتظمة مسلحة بالأسلحة النارية والمدافع القهريية بل اضطروا إلى القهقري بعد ما دافعوا عن وطنهم دفاع الأبطال ومات أغلبهم شهداء وطنهم العزيز، فاقتفى إسماعيل باشا أثر الباقيين حتى فرقهم أيدي سباً ولم يجد بعد هذه المقاومة العظمى معارضاً في طريقه فتقدم بجيله ورجاله، ومدافعه تتقدمه وألقى في قلوب السودانيين ما ألقاه من الرعب حتى وصل إلى مدينة بربرة^(١) فألقى فيها بعض قنابل ليتحقق من عدم وجود من يدافع عنها فدخلها وكان دخوله بموكب حافل في ٨ خلت من شهر مارث سنة ١٨٢١. وفي ٨ مايو من هذه السنة دخل مدينة (شندى) وهي واقعة في منتصف الطريق بين بربر والخرطوم على البر الشرقي للنيل وفيها استسلم إلى إسماعيل باشا من يدعى (شاويش) أحد أمراء بربر ودخل مع قومه في عداد العساكر المصرية ليأمن بذلك على روحه وماله ولينتقم من باقي الأمراء الذين كانوا معادين له.

(١) مدينة واقعة على شرق النيل وتبعد مسيرة يوم عن مصب نهر (عبرا) ومنها تسافر قوافل التجار إلى سولكن الواقعة على البحر الأحمر وإلى وادي حلفا الواقعة على حدود مصر.

وبعد ذلك تقدم في داخلية السودان حتى وصل إلى ملتقى النهرين الأزرق والأبيض وأسس هناك مدينة الخرطوم لما لهذا الموقع من الأهمية التجارية والحربية لسهولة الوصول منه بواسطة النيل إلى مصر ولإمكان إرسال الجيوش منه لفتح السودان الشرقي حتى الحبشة حيث يخرج نهر (عتبرا) والنهر الأزرق أو لفتح السودان الجنوبي حتى خط الإستواء بركوب النهر الأبيض، وبعد أن حصّن هذه المدينة وجمع فيها المؤن والذخائر الكافية ترك فيها بعض عسكره لحمايتها وسافر ببقية جيشه لفتح بلاد (سنار) الواقعة بين النهر الأزرق ونهر (عتبرا) ففتحها وخلع أميرها واحتل تحتة عنوة ثم أراد أن يستريح ويريح جيشه مما كابده من الأتعاب والأوصاب وتحمل المشاق في هذه البلاد الحارة لا سيما وكان قد فشا في عسكره المرض وأهلك كثيراً منهم.

هذا ولم يجد إسماعيل باشا ما حمل والده على فتح السودان وهو تبر الذهب وإنما وجد بعض رمال يمكن أن يستخرج منها ذهب لكن الذي يحصل منها لا يفي بما ينفق لإستخراجه، ولما لم يجد مرغوبه استعاضه بأسر كل الشبان السودانيين القادرين على حمل السلاح وإرسالهم مصفدين بالسلاسل والأغلال إلى أسوان ليندرجوا في سلك العساكر المنتظمة الذين كان يمرّهم سليمان أغا المتقدم ذكره، فزاد عدد الوارد منهم بعد من يموت منهم في الطريق إما بالأمراض الناشئة عن تغير حالتهم وطبيعتهم من المأكّل والمشرب أو لعدم موافقة طقس البلاد لهم ازدياداً عظيماً حتى اضطرّ سليمان أغا إلى طلب مساعدين له على القيام بواجبات وظيفته وكتب بذلك إلى محمد علي باشا فأجابه وعين معه ضابطين فرنساويين آخرين ومن يومئذ أخذ جيش أسوان المنتظم في التقدّم يوماً عن يوم في سبل الفلاح والنجاح.

ولم يقدر إسماعيل باشا مع علو همته وشدة سطوته على منع الأمراض عنهم، بل هاجمته بقوة عظيمة حتى أبادت أغلب عساكره، وكان هذا حاملاً له على العدول عن فتح بلاد كردفان وكان قد عزم على فتحها بعد أن أتم فتح (سنار)

والتزم بالإقامة فيها حتى يأتيه من مصر ما طلبه من المدد والمؤن وكان جنده حينئذ في غاية الضعف مادياً لقلتهم، وأدياً لفتور عزيمتهم بإقامتهم بين قبائل معادين لهم ولا يمكنهم المدافعة عن أنفسهم لو ثاروا عليهم وهاجموهم قبل مجئ المدد إليهم.

سفر إبراهيم باشا إلى السودان:

وبقى إسماعيل باشا مشغول البال زائد البلبال لإزدياد الوفيات في جيشه ولكون أغلب الباقين مرضى بالمستشفيات ولا يثمر فيهم علاج لتسلط اليأس عليهم. واستمر على هذه الحال حتى أتاه المدد وما طلبه من المؤن فسرّ بذلك ومما زاده سروراً قدوم أخيه إبراهيم باشا إلى سنّار لمساعدته على إتمام فتح السودان وتوطيد الأمن به مع أنه كان يؤدّ الإنفراد في مثل هذه المهمة بدون مشاركة أحد له فيما يكتسبه من أنواع الفخر وعلو القدر. ولما انتشر في الجيش خبر قدوم إبراهيم باشا وعسكره انبثت فيهم روح جديدة وشفى كل مريض بلا علاج لما استولى عليهم من الفرح والإنشراح وذهب عنهم اليأس والحمول وسرت في عروقهم الرغبة في القتال وما يتبعه من كسب الغنائم.

اغتم إبراهيم باشا وأخوه هذه الحركة لتنفيذ مشروعاتهما وقسما الجيش إلى فرقتين بعد أن تركا حامية قوية في مدينة (سنّار) إحداهما تحت قيادة إسماعيل باشا لفتح البلاد الواقعة على البحر الأزرق إلى حدود الحبشة والأخرى تحت قيادة إبراهيم باشا لفتح بلاد كردفان ودارفور وبعد أن أتما ما يلزم لهما من الاستعدادات جمعاً الذخيرة والمؤن وتوجه كل منهما لوجهته فقام كل منهما بما عهد إليه أحسن قيام ونشر علم التمدن في هذه الأصقاع واستبق كل منهما لخيرات ما سيق إليه وقام بأداء ما يجب عليه، وانبثت الراحة في هذه البلاد المتبربرة التي أرخى التوحش عليها سدوله وضرب الجهل بين أهلها أطنابه. فلما اعتراهما التعب من المشاق الشديدة أرسلوا إلى والدهما يطلبان منه العودة إلى الأهل والوطن وكان ذلك في شهر يوليو سنة ١٨٢٢ فلم يقع طلبهما هذا عند

والدهما موقع الإستحسان وأمرهم بالإقامة في السودان حتى ينظما فيه حكومة ثابتة لا يخشى عليها من طوارق الزمان وبواعث الخدثان، وآثر المنفعة العمومية على المحبة الوالدية فبمثل هؤلاء الرجال تسهل المسالك وبضدّهم تزول الممالك، فلبثا بعد ذلك شهرين في أقاصى هذه البلدان ثم سافر إبراهيم باشا إلى مصر تَوّاً مستصحباً معه بعض الجند.

وأما إسماعيل باشا فمكث بعد أخيه عدة أسابيع لترتيب أمور هذه المملكة الواسعة المفتحة حديثاً وبعد ما دبر أمورها أرسل بعض الجند ومعهم أسرى الزنج إلى مصر على طريق البر واستعد للسفر من طريق البحر فبلغه في أثناء ذلك أن أهالى دنقلة وبربر وما جاورهما أخذوا يتآمرون على معاكسة الحكومة المصرية لما انتشر بينهم من الأخبار الكاذبة والأراجيف الملفقة التى كان يثبها بينهم ذروا الأغراض الفاسدة مما يتعلق بانكسار المصريين في (ستار) وبلاد البحر الأبيض فشدّوا أزهرهم وتكاثروا وتجمعوا حوالى بربر وشندى وهجموا على قوافل الأسرى التى أرسلها إسماعيل^(١) باشا إلى معسكر أسوان قبل مبارحته السودان وهددوا من كان معهم من العساكر حتى تخلصت الأسرى من أيديهم ورجعوا إلى شندى فرحين مسرورين بما أوتوا من النصر والظفر على جيوش المصريين.

موت إسماعيل باشا:

لما وصل هذا الخبر المشنوم إلى إسماعيل باشا قام من ساعته ومعه باقى الجيش قاصداً مدينة شندى وكان ملكها رئيساً لهذه الثورة فوصلها فجأة ودخلها بدون أن يقاومه أحد أو يعارضه معارض حتى احتلها مع عسكره ثم أمر بإحضار ملك شندى أمامه، فلما مثل بين يديه أخذ يرميه بأنواع الشتم والسب حتى اشتد غيظه، وزاد بصفعه على وجهه فلم يقدر أن يقوه بينت شفة، بل أسرها له في نفسه وعزم على الإنتقام منه، وأما إسماعيل باشا فعفا عنه بشرط أن يدفع غرامة

(١) الصواب إبراهيم باشا (المحرر).

قدرها خمسة آلاف ينتو يدفعها في مدة خمسة أيام وألفان من الرقيق فامثل لذلك ملك شندى وقبل هذه الغرامة ظاهراً مصمماً على الأخذ بالثأر.

ثم أولم لإسماعيل باشا ومن معه من كبار القوم وليمة في قصره ودعاهم إليها فأجابوا دعوته وتوجهوا إلى منزله غير عالمين بما تكن لهم صدور أعدائهم من المكاييد، فبينما هم على الطعام إذ أمر الملك أعوانه بأن يجمعوا حطباً كثيراً وقشاً وتبناً وغير ذلك من المواد الجافة السريعة الإلتهاب، وأمرهم أن يضعوه حول البيت فلما فرغ الأضياف من تناول الطعام وتأهبوا للخروج والسذهاب إلى معسكرهم، أضرم الأعداء النار فيما جمعوه حول المنزل من المواد الإلتهابية فلم يمض إلا هنيهة حتى اتقد المنزل وما فيه من الأثاث وصار كشعلة من نار ولم يتيسر لإسماعيل باشا ورفقائه الخروج لشدة النار وإحاطة جنود الملك بهم من كل جهة فسدت في وجوههم المسالك حتى ماتوا حرقى ولم يتيسر لعساكرهم أن يسيطروا لهم يد المساعدة ويخلصوهم من هذه الميته الشنعاء لإنقضاض باقى جنود السودانين عليهم وذبحهم إياهم، فلم ينج منهم إلا من تمكن من الهرب تحت جرح الظلام وأستار الليل.

فلما بلغ محمد على باشا نعي ولده تأثر جداً وحزن على فقده زمناً طويلاً لا سيما وكان قد توفى قبله ولده طوسون باشا ومع ذلك لم يلهه حزنه عن النظر في أمور حكومته والسعى في إتمام مشروعاته خصوصاً ما يتعلق بتنظيم الجيش مع ما صادفه في طريقه من العقبات التي كادت أن تحول بينه وبين نجاح مشروعه لولا ثباته ومثابرته على العمل وعدم تأخره عند حدوث مانع أو طرء صعوبة بل كان يلقي الصعوبات بقلب ثابت لا تزعزعه العواصف ولا ترهبه القلاقل ولما جئ بجثة إسماعيل باشا محرقة إلى مصر احتفل بدفنها احتفالاً عظيماً ظهر به ميل المصريين للعائلة الحاكمة ومشاركتها لها في فرحها وحزنها وسرائها وضرائها.

ولم يكن يشوب تلك المحبة الخالصة والألفة الصادقة إلا مسألة إدخال الشبان المصريين في العسكرية وهو الأمر الذي نسيه المصريون من عهد سقوط دولة الفراعنة وإغارة الأجانب على مصر وحكمهم إياها حتى جهل المصريون في هذه الأحقاب العديدة والقرون المديدة أن لهم وطناً يلزمهم الدفاع عنه والسعى في كل ما يعود عليه بالسعادة والرفاهية لعلمهم أنهم ليسوا آمنين على أرواحهم وأولادهم وأموالهم وأعراضهم من ظلم من أتى إليهم وطراً عليهم من الأجانب بين عجم ويونان ورومان ومسلمين على اختلاف عائلاتهم بين عباسيين وفاطميين وأيوبيين وترك وجركس وممالك مختلفة المشارب والمذاهب متحدنين على امتصاص دم المصري واستنزاف ثروته واستخدامه واستعباده إلى غير ذلك مما يضيق عنه هذا الكتاب.

هذا وقد اتخذ العساكر الألبانيون (الأرنؤد) اشتغال محمد علي باشا بموت ولده والإحتفال بشأنه، فرصة ووسيلة لتحريض الأهالي لا سيما المزارعين الذين هم أكثر المصريين عدداً إن لم يكونوا كلهم على مخالفة محمد علي باشا حتى إن بعض البلاد امتنعت عن إدخال أولادهم في العسكرية وأهانوا المأمورين المكلفين بجمعهم ولولا حكمة محمد علي باشا لتفاقم الأمر وعظم الخطب ونال الألبانيون بغيتهم من تقويض أركان حكومته ودك دعائمها.

هذا ولما كان الجيش الجارى تنظيمه بأسوان بمعرفة سليمان أغا ورفقائه قد بلغ درجة عظيمة في حسن النظام وصار بحيث يمكن الإعتماد عليه والإستناد إليه، أراد محمد علي باشا أن يجعله ركناً لدولته فأرسل إلى سليمان أغا أن يحضر مع جيشه إلى الخانقاه (الخنكا) فحضر وكان جيشه مؤلفاً من خمس وعشرين ألفاً ما بين مصرى وسودانى وهو منقسم إلى ستة أليات ضباطهم وصف ضباطهم من الأورباويين ومن ممالك محمد علي باشا الذين كانوا أول من تدرب على التعليمات العسكرية.

ولما حضر الوالى مناوراتهم فى ميدان الخانقاه وشاهدها ازداد بها سروراً وأنعم على سليمان أغا برتبة أميرالاي مع لقب بيك وجعله (أميرالاي) للألأى السادس وأقطعه أرضاً واسعة وأموالاً كثيرة مكافأة له على إتمام هذا المشروع وإخراجه من حيز الفكر إلى حيز الفعل، ثم أمر بإلغاء الجيش غير المنتظم (باشبوزق) ورسم بأن من يريد الدخول فى الجيش الجديد من الألبانيين يقبل وإلا يطرد من الحكومة المصرية ويرجع إلى وطنه.

أما سليمان بيك فأخذ من يومئذ فى إصلاح أطيانه وأمواله وبنى له قصراً جليلاً على النيل فى مصر العتيقة وفرشه بالأثاث العربى وأحاطه بالبساتين والمروج حتى صار من أحسن أماكن مصر وأبهجها وأعلاها، وصار يؤمه كل من دخل مصر من الفرنساويين فيلاقون من رب البيت ما تقر به أعينهم ويسر به خاطرهم وينشرح به صدرهم من إكرام الوفادة ولطف اللقاء.

هذا ولما وصل خبر غدر ملك شندى بإسماعيل باشا إلى محمد بيك الدفتردار الذى كان إذ ذاك ببلاد دارفور قفل راجعاً إلى بلاد النوبة ليأخذ بثأره فأحرق القرى بعد قتل سكانها بين رجال ونساء وأطفال ولم يترك النوبة وشندى إلا بلقياً لا يسكنه إلا بنات آوى والوحوش الضارية والطيور الكاسرة لأكل جثث القتلى التى أفسدت الهواء بما تصاعد منها من الروائح الكريهة ومع هذا كله لم يتمكن الدفتردار من قتل الملك ولا القبض عليه ولم يقف له على أثر بعد أن بذل جهده فى التفتيش والبحث عليه فى جميع أنحاء السودان.

* * *

٦ - حرب اليونان

ثم إن محمد على باشا لم يبق له شاغل بعد ترتيب الجيش المنتظم واستتباب الأمن في ديار السودان بهمة صهره محمد بيك الدفتردار ونشر لواء العدل والمساواة في داخلية الحكومة، إلا نشر التمدن وأسبابه بين الأهالي فأخذ في فتح المدارس التي هي أساس التمدن والعمران في كل الحكومات والممالك لتعليمها الشباب ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات نحو أنفسهم والعائلة والوطن وبث روح التعاضد والتساعد بين أفراد الأمة وحب الاتحاد والارتباط اللازمين لنجاح أى مشروع كان، ثم وجه التفاته إلى إصلاح مجرى النيل وإقامة الجسور لمنع الغرق وشق الترع والجداول لمنع الشرق، وتأسيس الورش والمعامل لإيجاد الصناعة في القطر والاستغناء بها عن المصنوعات الأجنبية وحصر ثروة البلاد في أيدي أهلها الذين هم أولى بها من غيرهم من الأجانب الذين جل بغيتهم جمع الأموال وحوزها، والإثراء بأى طريق كان غير ناظرين إلا لمنفعتهم الخاصة ومنفعة بلادهم تاركين منفعة البلاد التي يظلمهم سماؤها ويروى غليلهم ماؤها، لكن لا لوم عليهم في ذلك ولا تثريب لكونهم أجبيين عن البلاد.

وبينما هو مشغول بهذه الإصلاحات آمن على داخلية حكومته لعدم وجسود منغص من جيش الألبانيين، وخارجيتها لوجود الجيش المنتظم الذي يمكنه به أن يصدّ به كل مهاجم مع مساعدته بسفنه الحربية العديدة المسلحة بالمدافع على الطراز الذي كان مستعملاً في ذلك الوقت، إذ ورد إليه خبر تعيينه والياً على ولايتي كريد وموره بشرط إرسال قوة كافية لإخماد ثورة اليونان الشائرين للحصول على الإستقلال السياسى المستدعى لطرح سلطة الدولة العلية.

نستطرد هنا إلى الكلام على الثورة اليونانية بشرح وجيز قبل التكلم على حرب موره فنقول:

من عهد فتح العثمانيين بلاد اليونان لم يحصل من اليونانيين ما يخل بالراحة بل أذعنوا لحكم الأتراك بعد مقاومة يسيرة وامتثلوا الأحكام بالقوة واستمر هذا السكون إلى سنة ١٨٢٠ حتى انتشرت في أوروبا مبادئ الثورة الفرنسية المبنية على ثالث الحرية والمساواة والإخاء على أثر حرب نابليون التي اشتد فيها بأسه ولم يمنعه تغلب الجيوش الأوروبية عليه وإرجاعهم فرنسا إلى حدودها التي كانت عليها قبل الثورة، من غرس مبادئ الثورة في كل بلد دخلها أو مر بها، فنبتت ونمت وامتدت فروعها إلى سائر أنحاء أوروبا حتى وصلت إلى اليونان فنبهتهم للمطالبة بحقوقهم وعرفتهم أن لهم حقاً في المجتمع السياسي وبثت فيهم الشوق إلى أن يكونوا إسوة بسويسرا مثلاً.

لكن لما علم أغنياء الأمة اليونانية أن السواد الأعظم من أبناء جنسهم قد طمس على أعينهم الجهل وأن أساس الحرية هو الإستنارة بنبراس العلم، إذ به يعلم الإنسان أن له حقوقاً يطالب بها كما أن عليه واجبات يطالب بها الغير، أخذوا أولاً في إرسال أولادهم إلى الممالك الأوروبية ليتحلوا بالعلوم والمعارف وليكونوا رؤساء الأمة ودعاة خريتها في المستقبل ثم ألفوا عدة جمعيات لنشر العلم بها بين سائر طبقات الأمة من وجه، ولبث روح الوطنية بينهم من وجه آخر، وألفوا جمعيات أخرى سياسية وجعلوا مراكزها في روسيا أو في النمسا وأهم هذه الجمعيات الجمعية السرية المسماة جمعية (هينري)^(١) فإنها تألفت في مدينة وينا سنة ١٨١٥ وقد قيل إن الإسكندر الأول قيصر روسيا كان هو المحرض عليها تنفيذ الوصية بطرس الأكبر من الإستيلاء على القسطنطينية لكن حال دون نفاذها محافظة انكلترا خصوصاً وأوروبا عموماً على التوازن السياسي بين قوى الدول.

(١) كلمة يونانية معناها جمعية أخوية أطلقت على جمعية أسسها اليونان في مدينة وينا تحت النعما قصداً لنشر المعارف بين اليونان ظاهراً والسعى في استخلاص الأمة اليونانية من حكومة العثمانيين باطناً وبقيت سرية حتى سنة ١٨٢١ وهي المسبب في حصول اليونان وتحصيلهم على الإستقلال ونشر رؤسائها للموسيو (كابوديستريا) و(إيسلانتى) وسيأتى للكلام عليهما.

وكان كل من يدخل هذه الجمعية يقسم على أن يبذل روحه وماله في سبيل الحصول على الإستقلال السياسى والمحافظة على السر في كل ما يتعلق بهذا المشروع أو يضمن نجاحه، فكانت هذه الجمعية أشبه شئ بجمعية الكاربونارى التى انتشرت أثناء ذلك في كافة الممالك اللاتينية، فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال، ثم تشعبت فروع هذه الجمعية في أنحاء الدولة العلية التى بها يونانيون حتى بلغ أعضاؤها في أوائل سنة ١٨٢١ نيفا وعشرين ألفا أقوياء على حمل السلاح ومستعدين للقيام عند أول إشارة تصدر من رؤسائهم. وكان من أسباب المساعدة على انتشارها اشتغال الدولة بمحاربة على باشا والى "يانينا" الذى ثار عليها طلباً في الإستقلال والإستيلاء على الجزء الغربى من تركية أوربا، ولكنه لم ينجح في مشروعه لمضايقة خورشيد باشا له وحصره إياه في قصره الكائن بجزيرة في وسط بحيرة بالقرب من يانينا ومع ذلك لم يستسلم من أول وهلة بل دافع مع من بقى من رجاله حتى أصيب بعدة جراحات وخر قتيلاً فأمر خورشيد باشا بحز رأسه وإرسالها إلى دار الخلافة وكان ذلك في ٥ فبراير سنة ١٨٢٢.

ولقد انتهز اليونانيون اشتغال عساكر الدولة بمحاربة على باشا المذكور وأيقنوا أن هذه فرصة لهم فرفعوا راية العصيان وانتشر القتال بينهم وبين عساكر الدولة العلية فلم تشرع الدولة في قمع عصيانهم إلا بعد قتل على باشا ثم أرسلت إليهم قوة عظيمة تحت قيادة خورشيد باشا قاهر والى يانينا فكانت له عليهم الغلبة أولاً ثم انقلبت عليه الدائرة فانهزم في واقعة (ترموبيل) في شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ فلما تبدد جيشه أثر الموت على أن يعود إلى دار الخلافة مهزوماً بعد ما نال من الشهرة فانتحر مسموماً.

ومما زاد هذا الإنكسار أهمية حرق الدونائمة التركية في جزيرة صاقس وذلك أنه بعد انتصار العسكر العثمانيين بحراً على مراكب اليونان الحربية واستيلائهم على جزائر صاقس وساموس، صادف ذلك حلول عيد الفطر فينما العثمانيون

في فرح وحبور غير ملتفتين إلى سفنهم انتهز اليونانيون هذه الفرصة وأحرقوا الدوناغة التركية عن آخرها ومات فيها ثلاثة آلاف بحرى وقبودان الدوناغة وكان ذلك في ١٨ يونيه سنة ١٨٢٢ وبقي الحرب بعد ذلك بينهم سجالاً إلى سنة ١٨٢٤.

فلما رأى السلطان محمود الثاني ما حصل من الأهوال في هذه الحروب التي قتل فيها أعظم قواده البرية والبحرية ونفدت في سبيلها الخزينة السلطانية وخشى من أن اشتغال محمد على باشا بما كان يجريه من الإصلاحات الداخلية ربما يكون سبباً لحصوله على الإستقلال وتمكنه من مثل ما وقع من على باشا والى يانينا، أصدر فرماناً بتاريخ ٦ مارث سنة ١٨٢٤ مشعراً بتعيين محمد على باشا والى مصر والياً على كريد وموره وكلفه بإخضاع اليونان وإدخالهم تحت الراية العثمانية بعد مجازاتهم على ما ارتكبه من كفران نعمة الدولة العلية التي لم تعارضهم منذ استيلائها على بلادهم في شئ من ديانتهم ولا عوائدهم بل عاملتهم بالإحسان إليهم وأن ما حصل لهم من الأمور المغايرة لخواطرهم إنما هي من بعض الموظفين فكان الأجدر بهم أن يرفعوا شكائهم إلى الباب الهمايوني بدلاً من رفعهم راية العصيان ونبذهم طاعة أولى الأمر وراء ظهرهم، اتباعاً لذوى المفاسد الذين يسعون دائماً في إحداث القلاقل والأراجيف المزعجة في داخلية المملكة العثمانية لغرض يقصدونه أو لسبب ينالونه لا لمنفعة تعود على من يغروهم على المخالفة والعصيان.

فلما وصل محمد على باشا خبر تعيينه والياً على هاتين الولايتين حار في أمره وصار يضرب أحساساً لأسداس ولم يدر ما يصنع ولا أى الأمرين يختار أيقبل ما عين إليه ويتكفل بعهدة هذه الحروب التي أعيت الدولة العلية مع جلالة قدرها وعظم شأنها وأدواتها الغريبة وقوتها العجيبة أو يأبى التعيين فيغتتم أخصامه بذلك فرصة إقناع السلطان بأنه ينوى الإستقلال كوالى (يانينا).

فجمع أعضاء عائلته وكبار حكومته وتروى معهم في أحب الأمور فقر رأيهم على قبول المأمورية والإستعداد إلى السفر قبل أن يتفاقم الأمر ويعظم الخطب في بلاد اليونان ويتسع الخرق على الراقع، لكن حدثت في هذا الوقت حادثة أوجبت تأخير سفر الإرسالية وهي أن أحد الحجاج المغريين عند عودته من مكة نزل بالقصير وأخذ يحرض الناس على عصيان محمد على باشا، لما أتاه من محاربة الوهابيين الذين لم يقوموا على زعمه إلا لنصرة الدين وأقنع سذج العقول ممن اجتمع عليه بأن محمد على باشا خرج بذلك عن النصوص الشرعية وصار من الواجب على كل مسلم محاربته مجازاة له على محاربته الوهابيين وقهره إياهم، فتبعوه على ذلك ووافقوه وسار بهم قاصداً مدينة قنا وازداد عدد تابعيه ممن لقيه من العرب الذين انضموا إليه قصاداً للنهب والسلب فوصل (قنا) بجيش عظيم أوقع الرهبة في قلوب سكان تلك المدينة فتبعه أغلبهم وسار بهم إلى مدينة (اسنا) وصادف وصولهم إلى المدينة وجود بعض من العساكر المصريين مسافرين إلى السودان، فأراد حاكم البلدة أن يفرق بهم جموع العصاة فقاتلوهم قليلاً ثم انضموا إليهم تخلصاً من السفر إلى السودان حيث كانوا مكرهين عليه.

فلما بلغ محمد على باشا هذه الأخبار المشوشة للأفكار وكان إذ ذاك مشغلاً بتجهيز جيشه للسفر إلى بلاد اليونان اضطر أن يرسل إلى جهة الصعيد الألى السادس تحت قيادة سليمان بيك فتوجه إليهم وحاربهم هو ومن معه من العساكر الأبطال وهجموا عليهم حتى شتوهم في أنحاء الجهات ثم اقتفوا أثرهم حتى أوصلوهم إلى الصحراء فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ولقد برهن سليمان بيك في هذه الواقعة على كفاءته واستعداده وأن العسكرى المنتظم يمكنه أن يقاوم عدداً عظيماً من غير المنتظمين وهذا هو الأمر الذى زاد محمد على باشا تمسكاً بالنظام الجديد.

وبعد استتباب الأمن في جهات الصعيد اهتم بالتجهيزات العسكرية وجمع سبعة عشر ألفاً من العساكر المشاة وهم الألى الثالث والرابع والخامس

والسادس وأربع بلوكات من البلطجية وسبعمئة فارس تحت إمرة من يدعى حسن بيك وعدة من مدافع القلاع والمدافع الخفيفة، وكان هذا الجيش تحت قيادة إبراهيم باشا فأقلع من ميناء الإسكندرية هو وعسكره في ١٠ يوليو سنة ١٨٢٤ ومعه ستون سفينة حربية غير السفن الحاملة للعساكر وخيلها ومهماقها قاصداً جزيرة (رودس) ليجتمع هناك مع دونانمة الدولة العلية فوصلت الدونانمة المصرية إلى جزيرة (رودس) قبل وصول الدونانمة العثمانية والسبب في هذا التأخير أنه حال سير الدونانمة العثمانية قابلها الأميرال اليوناني ومعه خمسون سفينة حربية صغيرة وبعض حراقات أحرق بها سفينتان عثمانيتان أحدهما بها ٣٢ مدفعاً والآخرى ٥٤ مدفعاً وأخذ عشرون زورقاً من زوارق الحمل بما فيها من المؤن والذخائر، ولما لم يتيسر للأميرال العثماني مقاومته ألقع بمراكبه من وجه العدو والتجأ إلى إحدى مدن آسيا الصغرى ثم أرسل أوامره إلى الدونانمة المصرية بالحضور إلى هذه الجهة لمساعدته على اليونانيين فلم يسع إبراهيم باشا إلا تلبية طلبه وكان اجتماع الدونانمتين في يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٨٢٤ وبعد قدوم المدرعات المصرية اطمأن جأش الجيوش العثمانية وهدأ روعهم وقد بهرهم العجب والاندعاش مما وجدوا عليه الدونانمة المصرية من الاستعداد والنظام الذي لم يروا مثله عندهم وشهدوا لمنشئها بعلو الهمة وحسن التدبير ومزيد السياسة وطول الباع وسعة الإطلاع.

هذا وياجتماع الدونانمتين المصرية والعثمانية تألفت منهما قوة عظيمة بحرية لم يسبق وجودها في بحر اليونان أثناء هذه الحروب لكن لم توقع هذه القوى المجتمعة الرعب في قلوب البحرية اليونانيين لتدربهم على الحروب البحرية ومعرفتهم بمسالك البحار ومفاوزها، بل جمع أميرال العدو سفنه الصغيرة السريعة السير وأتى بها في ٥ سبتمبر سنة ١٨٢٤ لمهاجمة الدونانمت المتحدة، وكانت تتقدمه الحراقات فلما قربت سخر منها المصريون لصغرها ولم يدر بخلداهم أنها تحمل النار في جوانبها وتحرق كل ما تلمسه من السفن، كبيرة كانت أو صغيرة، أما العثمانيون فلمكابدهم غير مرة نيران هذه الحراقات وما تجلبه من

الضرر لجأوا إلى الفرار وولوا الأدبار فتبعهم العدو بحراقاته حتى لحقهم وتمكن من اضرام النار في السفينة الحاملة قبطان باشا وفي خمسة مراكب أخرى فعجز العثمانيون عن إطفاء النار وقصروا في إطفائها وإخماد سعيها فتركوا سفنهم تستعر ناراً ونزلوا في الزوارق قاصدين فرض الأناضول ليتخلصوا من كيد هذا العدو الذي لم يقدرُوا على مقاومته لشجاعة اليونانيين وتعريضهم أنفسهم للتهلكة لإحراق سفنهم ولو أفضى ذلك لإحراق السفينة ومن فيها ولا يخفى ما في ذلك من الخطر لأن قابوذان الحرقاة ملتزم بأن يكون بجذاء سفينة العدو ويربط فيها سفينته بخطاطيف من الحديد بعد وضع النار في البارود الموجود بها والمعلق على جوانبها ثم يتزل هو ومن معه إلى زورق صغير ويلجأ إلى الفرار حين يكون عسكر العدو مشغولين بإطفاء النار والهرب فراراً من الموت حرقاً.

هذا ما كان من أمر الدوناغة العثمانية وأما إبراهيم باشا فإنه ولو فقد مساعدة العثمانيين له فلم يخطر بباله الهرب من أمام العدو قط، بل قابل سفنه بنيران المدافع المحكمة الطلقات حتى أمكنه أن يتخلص من شرهم ثم أقلع قاصداً بلاد (موره)، ولكن لسوء حظه لم يتيسر له إنزال عساكره إلى البر لمعاكسة العدو له لاسيما وقد أحرق العدو بالقرب من جزيرة (كريد) إحدى سفنه وأخذ منه خمس سفن جسيمة فيها ألفا عسكري برى ولما لم يتمكن من إنزال عساكره رجع إلى جزيرة (رودس) وبعد أن استراح وأراح عساكره أقلع منها قاصداً جزيرة (كريد) وترك سليمان بك مع فرقته لحماية (رودس).

وفي هذه الأثناء وقع الخلاف بين رؤساء دوناغة العدو وهياج عساكره البحرية لعدم صرف مرتباتهم وأبوا استمرار القتال ورجعوا إلى اليونان لإجراء ما فيه الحصول على متأخر ما هياقم، فبمجرد وصول الخبر إلى إبراهيم باشا بذلك أرسل توما إلى سليمان بك يستقدمه إليه من رودس فوصل إليه ثم أقلع من (خانيا) مينا جزيرة (كريد) وجد في السير واجتهد حتى وصل إلى مينا (مودون) وأنزل عساكره إلى البر قبل أن يشعر بقدومه أحد وكان ذلك في ٢٦

فبراير سنة ١٨٢٥. ولما وصل إبراهيم باشا إلى بلاد (موره) رأى العثمانيين في أسوأ حال من الضنك والضييق لتغلب اليونانيين عليهم في كل المواقع البرية والبحرية ولم يكن ذلك بقوة اليونان فلو لم يوجد أمام العثمانيين إلا هم لأهلكوهم عن آخرهم وألزموا من بقى منهم بعد الحرب بالدخول تحت جناحهم وسلطتهم، كما كانوا قبل ذلك وما ساعدتهم على مقاومة العثمانيين والإستظهار عليهم في عدة مواقع مهمة إلا اسعاف الأوروبائين لهم بالمال والرجال وإن كان هذا عن غير رضا دولهم ظاهراً، فتألف في جميع أرجاء أوربا جمعيات كثيرة دعيت بجمعيات محبي اليونان وأرسلت إليهم كثيراً من المؤن والذخائر بل وتطوع كثير من مشاهير أوربا وقوادها مثل (وشنطون) نجل محرر أمريكا الشهير واللورد بيرون^(١) الشاعر الإنكليزي وغيرهما من فحول الرجال للدفاع عنها، ووهبوا أنفسهم لخدمة الحرية في أى مكان سعى أهله في الحصول عليها ومما زاد في استمالة الشبان الأوروبائين إلى الدخول في سلك العسكرية اليونانية ما أذاعه وأشاعه في ربوعها من المكاتبات والقصائد الحماسية المحببة في ذلك كل من (فكتور هوجو) و(كازيمير ديلافين).

وبعد ظهور اليونانيين على العثمانيين وقع الخلاف والشقاق بين رؤس الثورة لحب كل منهم الإستقلال برأيه، ولكن منعهم نزول إبراهيم باشا وجيشه ببلادهم لأنه لما نزل اتحدوا على مقاومته والدفاع عن وطنهم.

هذا ولما وصل الباشا المذكور إلى بلاد اليونان لم يكن مع العثمانيين إلا ميناء (مودون) التي نزل بها وميناء (كورون).

^(١) ولد (بيرون) سنة ١٧٨٨ وتعلم في كلية (كامبردج) ونبغ في الشعر من صغره لكنه اشتهر بقبح المسيرة وتزوج سنة ١٨١٥ وفارق زوجته بعد سنة فثار عليه الرأي العام فنزح من انكلترا وساح في بلاد البلجيك وسويسرا وإيطاليا واشترك في جمعيات إيطاليا العسرية التي تشكلت لجمع الوحدة الإيطالية ولما لم ينجح في مسعاه سافر إلى بلاد اليونان ووقف حياته على استخلاصها من حكومة الأتراك وشهد أشهر مواقعها وتوفي سنة ١٨٢٢ في وقعة ميسولنجي.

حصار ناوارين:

لم يلبث إبراهيم باشا بعد نزوله (مودون) أن رتب عساكره وأصدر الأوامر اللازمة وخرج مع نخبة جيشه وألأى سليمان بيك في اليوم الثاني من مارت سنة ١٨٢٥ وقصد مينا (كورون) براً ليخلصها من محاصرة اليونانيين لها فتمكن بانتظام عساكره من الانتصار على العدو وإدخال المدد والمؤن والرجال إلى البلد المحصورة ثم أرسل في ٢٣ مارت الألأى الثالث والرابع لمحاصرة مدينة (ناوارين) فحاصرها المصريون وضايقوها بالحصار رغم أنف اليونانيين الذين قاوموهم مقاومة عظيمة الأهوال، وعند ذلك قام إبراهيم باشا مع بقية جيشه من (مودون) قاصداً (ناوارين) لتعزيز الجيش المحاصر فهاجمه في طريقة فرقة من اليونان يبلغ عددها ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل كانت آتية لمساعدة (ناوارين)، فهزمها الباشا وأسر قائدها وشتت جمعها أدراج الرياح وبالجملة فقد قاومت حامية المدينة وهجمت غير مرة على الجيش المحاصر ولولا انتظام المصريين لنال اليونانيون مرامهم بالغلبة، لكن إبراهيم باشا بما عهد فيه من ثباته الذي لا ترعزه هجمات الأعداء ولا تروعه شجاعتهم وقوة جأشهم ذلل هذه الصعوبات وشدد الحصار على المدينة براً وبحراً وكادت حاميتها تستسلم لولا مساعدة حظها لها بقدوم تسعة آلاف من شبان اليونان قصد تخليصها من محاصرة المصريين وقهرهم وإرجاعهم من حيث أتوا.

وقبل وصول هذا الجيش بعشرة أميال سمعهم إبراهيم باشا يتغنون بنشيدهم الوطني فلم يعبا بهم بل ترك جزءاً من جيشه لاستمرار الحصار وتركيب المدافع القوية حول المدينة وقابلهم بعساكره على مقربة من البلد فهجموا عليه بقوة وشجاعة لكن بدون انتظام وأما هو فأمر عساكره بالثبات مكانهم بدون إطلاق النيران حتى إذا قرب العدو منهم أطلقوا بنادقهم دفعة واحدة ليلقوا في قلوبهم الرعب وهجموا عليه بالسلاح الأبيض على هيئة صفوف منتظمة فلما صار العدو على بعد نحو مائة متر قابله المصريون بالنيران الصائبة كالشهب المنقضة وهجموا عليهم هجوم الأبطال فلم يمض إلا قليل زمن حتى قتل أغلب عساكر

العدو وفر الباقون منتشرين في أنحاء اليونان، ومن وقتئذ أفل نجم سعدهم وغربت شمس استقلالهم بعد إشراقها وأيقنوا أنه لو لم تمد لهم أوروبا يد المساعدة وتنصرهم بعساكرها لهلكوا عن آخرهم إن لم يقبلوا العودة إلى ما كانوا عليه قبل ذلك ولقد ربح المصريون من هذه الواقعة غنائم كثيرة وأخذوا عدة من الأسرى، وكان فيهم كثير من الضباط والقواد الذين كان عليهم المعول في الشدائد المهمات بل وسائر الملهمات.

ولقد شهد الأعداء للمصريين بالانتظام والثبات لما شاهدوه أمام نيرانهم ومما يزيد المصريون فخراً أنهم لم يرتكبوا الفظائع في هذه الحروب وكانوا يحسنون المعاملة للأسرى ولا يقتلون من سلم نفسه إليهم وألقى سلاحه بين أيديهم، وكانت أطباء الجيش المصري تضمد جراح الأسرى وتعولهم كما تعول جرحاهم إتباعاً لأوامر إبراهيم باشا التي أصدرها إلى جيوشه واستمال بصنعه هذا قلوب اليونانيين إليه ولولا ما حصل بين العثمانيين واليونانيين من جهة وتحريض ذوى الغايات من جهة أخرى لفاز إبراهيم باشا بمأموله ونشر لواء الأمن في أنحاء اليونان، ولكن آلى محبو الفساد على أنفسهم إلا استمرار القتال بين الفريقين لنيل مآربهم غير ناظرين إلى ما يترتب عليه من سفك دماء البرآء وترميل النساء وتيتيم الأطفال.

وكانت هذه الواقعة فاتحة انتصار المصريين وبها أمكنهم تميم الحصار برآ على مدينة (ناوارين) لكن لما كانت تلك المدينة واقعة على البحر وكان يأتيها المدد والمؤن كلما نضبت علم إبراهيم باشا أنه لا يتيسر له إذلالها إلا إذا احتل جزيرة صغيرة واقعة في مدخل الميناء ليتمكن بواسطة ما يضعه فيها من المدافع من قفل مدخل الميناء ومنع المدد عن الوصول إليها أما هذه الجزيرة فكانت ذات أهمية عظيمة عند اليونان وكانت تحميها نيران قلاع البلد فلذلك كان دخولها من أصعب الأمور الشاقة، إن لم يكن مستحيلاً ومع ذلك فقد صمم إبراهيم باشا على احتلالها بعد أن أجمع هو وأركان حربه وفي مقدمتهم سليمان بك على أن

الإستيلاء على مدينة (ناوارين) مستحيل ما دامت هذه الجزيرة في يد الأعداء فندب إبراهيم باشا سليمان بيك لهذه الخطة المهمة المحفوفة بالأخطار وكلفه بأخذ الاستعدادات اللازمة للإستيلاء على هذه الجزيرة وأطلق له الحرية الكاملة في العمل وكان ذلك في أوائل شهر مايو سنة ١٨٢٥.

فانتخب من العساكر كل من اشتهر بالشجاعة والإقدام وفاز على أقرانه بمزايا التعليم التام وحسن الانتظام ثم سافر من (مودون) بحراً قاصداً (ناوارين) فلما رأى العدو هذه القوة قادمة عليه حصل له من الرعب ما حصل واستعد للدفاع وحصّن الجزيرة وعزّز حاميتها بنخبة الشبان وكان من ضمن المدافعين عن هذه الجزيرة الكونت (سانتاروزا) أحد بلغاء الطليانين الذي وقف نفسه وحياته لمساعدة اليونان على الإستقلال ابتغاء مرضاة الحرية والأميرال اليوناني (تسومادوس) الذي نزل إلى البر مع مائتين من عسكره لتعزيز حامية الجزيرة وتقويتها.

وبمجرد وصول السفن المصرية على مقربة من قلاع العدو، ابتدر بإطلاق المدافع عليها من سائر القلاع لكن لم تزعزع هذه النار القوية قلوب المصريين ولم تشهم عن عزمهم بل جاوبت مدافعهم مدافع العدو ونزلت العساكر البرية في الزوارق تحت نيرانه.

فلما كان ظهر ذلك اليوم تمكن سليمان بيك ومن معه من النزول إلى البر وبعد تبادل إطلاق البنادق قليلاً من الطرفين، هجم المصريون وفي مقدمتهم سليمان بيك على استحکامات العدو هجوم الأسود ودخلوها عنوة واستمر القتال إذ ذاك بالسلاح الأبيض ودافع اليونانيون دفاع الأبطال لكن لم تفدهم شجاعتهم شيئاً، بل تغلب المصريون عليهم بحسن انتظامهم وبديع صنعهم وبعد قليل كانت لهم الغلبة ورفعوا العلم المصري على هذه الإستحكامات التي كان يظن العارفون أن أخذها بعيد جداً لحصانة الموقع من أصله ولزيادة حفظه

بالقلاع المسلحة بالمدافع الضخمة من جهة، ولقرب نيران قلاع البلد إليه من جهة أخرى، فكان المهاجم له تحت نيران قلاع الجزيرة وقلاع البر المتبادلة.

وبعد هذه الواقعة اشتهر صيت المصريين في جميع أنحاء اليونان وانتقل بسرعة عظيمة إلى بلاد أوروبا فاضطربت لذلك جمعيات محبي اليونان وأيقنوا أن كل ما بذلوه من مال ورجال قد ذهب سدى أمام صفوف العساكر المصرية، وأنهم إن لم يستميلوا لهم الرأي العام الأوربي وتجتمع الدول الأورباوية على مساعدة اليونان مساعدة مادية لا أدبية فقط أقل نجم اليونان ووقعوا تحت سلطة المسلمين كما كانوا مدّعين أنه لا يليق بل لا يجوز أن تكون أمة مسيحية تحت وطأة المسلمين. ولعمري أن ذلك لمناف لمبادئ التمدن والحرية التي من دعائمها عدم النظر إلى دين زيد أو اعتقاد عمرو بل النظر إلى أعمال كل منهما بقطع النظر عن المعتقد فكم شاهدنا في التواريخ القديمة والحديثة أن المسلمين أحسنوا معاملة رعاياهم من المسيحيين وغيرهم وقد رأينا أن الحروب قد استمرت أجيالاً بين الكاثوليك والبروتستانت ولم تزل قائمة في روسيا بين الأرثوذكس ومن عداهم من الطوائف المسيحية وغيرها. ومع كل فليس الغرض من هذا الكتاب الخوض في هذا الموضوع الذي لو أردنا فتح بابه لمألنا مجلدات ضخمة فالتاريخ مشحون بما ارتكبه مسيحيو أسبانيا (الأندلس) ضد المسلمين في عصر الملكة (إزابيلا).

هذا ولقد قتل في هذه الواقعة كثير من الفريقين وكان من قتلى اليونان الأميرال (تسومادوس) الذي أثر الموت على النجاة هرباً كي لا يرى وقوع بلاده في يد المصريين والكونت (سانتاروزا) الإيطالي وغيرهما من أبطال اليونان والتجأ إثنان منهم وهما (استارفوس) و(ساهنيس) مع كثير من العساكر إلى كنيسة هناك وجما فيها كمية عظيمة من البارود ثم أحرقاه فسقط البناء عليهم وهلكوا عن آخرهم وجرح من الجيش المصري أمير الإي المشاة السادس وهو سليمان بيك ولزم القراش مكرها ولم يمكنه بذلك استمرار القتال.

وكانت نتيجة هذه الواقعة الشهيرة حصر مدينة (ناوارين) براً وبحراً وأما سفن العدو التي كانت في المينا فإنها تمكنت من الهرب إلا اثنتين وقعتا في يد المصريين مع من فيهما من جرحى العدو وأما اليونانيون فلم يزالوا على قوتهم في القتال براً وبحراً وتمكن (ميوليس) القائد البحري في يوم ١٧ مايو سنة ١٨٢٥ مع حراقاته (سفن صغيرة) من الدنو من ميناء (مودون) وأشعل النار في السفن الراسية خارج المينا وفرّ هارباً فامتدت النار إلى باقى الدوناغة ولشدة الهواء استحكمت حتى تعسر اطلاقها ولم ينج من كان فيها إلا بجهد عظيم وعناء شديد ومما زاد في الطين بلة أن الهواء حمل الشرر إلى داخل المدينة حتى أحرق جزءاً منها والتهبت مخازن البارود (الجبخانة) فأدى ذلك إلى هدم كل ما جاورها من المساكن وهلك من فيها.

ومع كل فإن هذه الحادثة الهائلة لم تؤثر شيئاً في عزيمة إبراهيم باشا شجاع مصر وفخرها بل كان مشدداً للحصار على مدينة (ناوارين) وصدة هجمات العدو، وهزم كل من جاء لمساعدتهم سواء كان على طريق البر أو البحر وفي إحدى المناوشات العديدة أسر مطران (مودون) الذى كان يحض الأهالى على مقاومته ومحاربته وأسر غيره من دعاة الثورة، لكنه أحسن معاملتهم وأكرم وفادتهم، ولما أيقنت حامية البلد أن لا مناص لها من الموت أو التسليم لعسر مجئ المدد لهم من الخارج بل لعدم إمكانه بالكلية لتشديد الحصار وتيقظ المصريين دائماً، طلبت من إبراهيم باشا أن تسلم إليه المدينة مع قلاعها وما فيها من المؤن والذخائر والأسلحة بشرط أن يضمن لهم حياتهم فأذعن لمطالبهم وانقاد لمرغوبهم ودخل المدينة في السادس عشر من شهر مايو سنة ١٨٢٥ وقد كان لهذه الواقعة تأثير مهم في قلوب اليونان، إذ أيقنوا بالفشل والخيبة لكنهم آلوا على أنفسهم أن يدافعوا في سبيل الحصول على الحرية والاستقلال السياسى ولو يموتون عن آخرهم فداء الوطن وشهداء الحرية.

فتح مدينة كلاماتا:

وبعد سقوط (ناوارين) جمع (بيترويك) خمسة آلاف مقاتل من سكان الجبال المشهورين بالشجاعة والبأس وتحصن في مدينة تدعى (كلاماتا) وسورها بأسوار منيعة وحصنها بالتحصينات المحكمة فذهب إبراهيم باشا لمحاربته واحتل في مسيره مدينة (أركاديا) المشهورة بخصب أرضها واعتدال هوائها وسائر البلاد الواقعة على البحر واحتل أيضاً كل الطرق المارة بين الجبال لتوصيل الأودية بعضها ببعض وقبل أن يصل إلى (كلاماتا) لحقه سليمان بيك وكان قد تماثلت جروحه ولم ينتظر تمام شفائه بل خرج من الإستتار وقصد الجيش ليشهد وقعة (كلاماتا) فوصل الجيش إلى هذه البلدة ودخلها بعد قتال شديد دافع فيه اليونانيون دفاع الأبطال، لكنهم لم يقروا على الثبات أمام هجمات المصريين بل ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار بعد أن خضبوا الأرض بدمائهم وأفعموا الأودية بجثثهم التي ذهبت فريسة للوحوش والطيور.

وبعد ذلك دخل إبراهيم باشا جميع القلاع الصغيرة والبلدان والقرى المحصنة وهدم أغلبها وقتل أو أسر حامياتها فلم يبق لليونانيين بعد هذه الوقائع قائمة ولم يجسروا على مواجهة المصريين في الحروب المنتظمة بل التجؤا إلى جبالهم وعمدوا إلى حرب التماذي معتمدين على شيوخ جبالهم وعدم تمكن الجيوش المنتظمة من صعودها والوصول إليهم.

فتح تريبولتسا:

ولما لم يجد إبراهيم باشا ما يعوقه عن السير إلى الأمام شرع في اجتياز جبل (تايجيت) الفاصل بينه وبينه وادي (لكونيا) الذي به مدينة (تريبولتسا) مقر الحكومة الثورية لعلمه أنه لو دخلت هذه المدينة في قبضته كان ذلك من أكبر دواعي تقويض أركان الثورة اليونانية ولم يبق بعد ذلك ملجأ للشائرين إلا الجبال.

ولأجل تميم هذا المشروع المهم واجتياز مضائق هذه الجبال الوعرة السلوك الصعبة الصعود قسم إبراهيم باشا الجيش إلى طابورين جعل أحدهما تحت قيادة نفسه ووجه أولهما على طريق (أركاديا) والثاني على طريق (ليوناردى) فصادف طابور إبراهيم باشا في مسيره عند مضيق (كورشيكور) الشائرين الشهيرين (كولوكترونى) و (بتراكو) ومعهما عدد عظيم من سكان هذه الجهات قصد اعتراضه في طريقة وإرجاعه القهقري فقهرهم وقتل منهم نيفا وخمسمائة مقاتل ورئيسهم (بتراكو) ثم دخل مع جيشه مدينة (تريبولتسا) في ٢٣ يونيو سنة ١٨٢٥ فوجدها خالية من السكان إذ أخلاها ساكنوها وحاميتها وأضرموا النار فيها قبل خروجهم وآووا إلى الجبال لعلها تعصمهم من نيران المصريين، حيث لا عاصم اليوم لهم منها إلا الطاعة والإذعان والرجوع عن مخالفة الدولة العلية التي لولا سعاية أولى الأغراض والفساد لما أمكنهم الخروج عن طاعتها.

وبعد أن حصن البلد داخلاً وخارجاً ووضع فيها حامية كافية لصد هجمات الأعداء ليكون آمناً عليها من غوائل الزمان وطوارق الحداث خرج منها ببعض جيشه في ٢٥ يونيو سنة ١٨٢٥ قاصداً وادى (ارجوس) فهزم طليعة من الأعداء يبلغ عددها ثلاثمائة مقاتل تحت أمرة (ابسيلانتى) وبعد ذلك أمر بحصد الغلال المزدرعة في هذا الوادى الخصب ونقل سائر المحصولات إلى (تريبولتسا) ثم في يوم ٧ يوليو سنة ١٨٢٥ وصل إلى وادى (لاكونيا) وكان معه سليمان بيك وألايه ونفر قليل من السوارى فاعترضه في طريقه فرقة من الأعداء يبلغ عددها ثمانية آلاف متحصنين في بعض المعاقل فرتب إبراهيم باشا عسكره على هيئة قول (طابور) وهجم على حصون الأعداء بالسلاح الأبيض فهزمهم وأخرجهم من استحكاماتهم وكانت نتيجة هذه الواقعة أن صار كل إقليم (موره) في قبضة إبراهيم باشا إلا مدينة (نوبلى) وبينما هو يستعد لحصارها إذ ورد إليه خطاب من رشيد باشا قائد الجيوش العثمانية الذى كان إذ ذاك محاصراً مدينة (ميسولونجى) منذ عدة أسابيع بلا فائدة ولا عائدة لوقوع هذه البلدة على خليج (ليانته) ودوام ورود المدد لها بحراً وعدم تمكن الدونانغة العثمانية من

حصرها لوجود (ميوليس) القائد اليوناني البحري وحرقاته التي كثيراً ما سببت خسائر فادحة لسفن الدولة يطلب منه المساعدة على فتح هذه البلدة التي أعياء أمرها فأرسل لوالده بمصر يخبره بهذا الأمر ويطلب منه إرسال المدد فأرسل له الأتاي السابع والثامن من الجيش المنتظم وبعض فرق من الأرناؤد من حامية كريد.

فتح مدينة ميسولونجي:

وفي أثناء هذه المدة ورد إلى إبراهيم باشا أمر بمساعدة رشيد باشا وفرمان مؤذن بتعيينه وزيراً لولاية (موره) فقام من ساعته مع عشرة آلاف من المشاة وخمسمائة من الفرسان ولم يترك في (موره) ومينائها إلا ما يكفي لحمايتها ثم سافر بحراً قاصداً مدينة (ميسولونجي) فلما وصل إليها هاجمها متبعاً مشورة رشيد باشا، فلم ينجح ورجع منهزماً فاتبع بعد ذلك في حصار هذه البلدة الخطة التي سلكها في حصار (ناوارين) بأن شدد الحصار عليها براً واستولى على الجزائر الواقعة في فم المينا وبنى فيها قلاعاً حصينة، فأغلق بذلك المينا وأتم الحصار براً وبحراً حتى لم يعد من الممكن وصول المدد إليها بأي صفة كانت، ثم أرسل إلى حامية المدينة يطلب منها أن تستسلم بدون حرب ولا قتال لتحقيقه أن امتناعهم لا يجديهم نفعاً، فلم يقبلوا ذلك منه وصمموا على عدم التسليم ولو ماتوا عن آخرهم.

ثم أرسل أهل المدينة إلى القائد (كرايسكا كي) وكان على مقربة من المدينة يعلمونه بأنهم عزموا على الخروج في ليلة ٢٢ إبريل سنة ١٨٢٦ بجميع سكان البلد من رجال ونساء وأطفال وطلبوا منه أن يهاجم المصريين في وقت معلوم ولكن لسوء حظهم لم يقو (كرايسكا كي) على مهاجمتهم لما كان به من المرض الشديد، ولم يشعرهم بذلك فظنوا أنه قد أجاب طلبهم وخرجوا في الوقت المعلوم من اليوم المعهود وهم في غاية السكون مستترين تحت جناح الليل، فلما أحس بهم إبراهيم باشا وعسكره قابلهم بنيران البنادق وأوقع بينهم الفشل

فرجعوا إلى المدينة بدون انتظام واتبع المصريون أثرهم حتى دخلوا المدينة وأعملوا في أهلها السيوف والبنادق وأبلوا في قتالهم بلاء حسناً. ولقد جمع أحد رؤساء اليونان ما ينيف عن ألفين ما بين شيوخ وأطفال ونساء في إحدى الكنائس حتى إذا وصل المصريون هدم الكنيسة بلغم من البارود كان قد صنعه وأعدّه لهذه الغاية فهلك هو ومن معه عن آخرهم.

هذا ولقد تمكن بعض حامية المدينة من اختراق صفوف المصريين والأتراك بعد قتال عنيف وآووا إلى أحد الجبال المجاورة بعد أن قتل أو جرح ثلاثة أرباعهم ولما علم هؤلاء الشجعان أنه قد استولى اليأس على قلوب رؤس الثورة بعد سقوط مدينة (ميسولونجي) كتبوا إليهم في ٧ مايو سنة ١٨٢٦ أن لا يخافوا ولا يحزنوا ولا يقنطوا من مساعدة الله فإن يد الله مع محبي الحرية والذاين عنها وأنهم لم يزالوا ولن يزالوا مستعدين للدفاع عن استقلالهم إلى آخر رمق من حياتهم.

ولقد حدث في أثناء هذه المدة أمران مهمان أحدهما موت اسكندر الأول إمبراطور روسيا فجأة، وتولية الإمبراطور نقولا خلفاً عنه. وثانيهما قتل السلطان محمود العثماني لجيش الإنكشارية في ١٦ يونيو سنة ١٨٢٦ اقتداء بما فعله محمد علي باشا بمصر مع المماليك، ليتخلص من شرهم ويبرأ من كيدهم ويظهر مملكته من هذه الفئة الباغية التي اشتهرت في سائر أنحاء المملكة العثمانية بعدم الانتظام وارتكاب أنواع المنكرات فضلاً عن الرذائل بدون أن يجسر أحد على معارضتهم أو يقوى على مقاومتهم، وكثيراً ما عصوا السلاطين العثمانيين وخلعواهم من مناصبهم بل وقتلواهم وغير ذلك مما لا دخل له في موضوع هذا الكتاب.

ثم أعقب سقوط مدينة (ميسولونجي) سقوط باقي مدن موره ويقال أن ما قابله إبراهيم باشا من الصعوبات أمام (ميسولونجي) أحدث تغييراً مهماً في طباعه، فبعد أن كان يعامل اليونانيين بالرفق واللين ويمنع الإيذاء عن أسرهم

ويكرم مثواهم صار يعاملهم بالقسوة والشدة ويأمر بقتل الأسرى أولاً فأولاً ونهب كل ما يمرّ عليه من البلدان قبل حرقها وغير ذلك مما لا يسلمه العقل، ولعل هذه أمور أشاعها بعض أصحاب الغاية لمقاصد وأغراض يريدون التوصل إليها والحصول عليها بإلقاء الفتن ودس الدسائس في داخلية البلاد للتدخل في أمورها مما لا يخفى على رجال الدولة العلية الذين حنكتهم التجارب، ولنرجع إلى ما نحن بصدده فنقول:

فتح العثمانيين مدينة أثينا:

أنه بعد سقوط مدينة (ميسولونجي) انفصل الجيش المصري عن الجيش العثماني فعاد الأول إلى ولاية (موره) وقد نسب إليه البعض من ارتكاب الفظائع مالا يمكننا ذكره لعدم ثبوته، وأما الثاني فقصده مدينة أثينا وحاصرها ولم يكن فيها إذ ذاك ما يصد هجمات العثمانيين فأسرع (كرايسكاكي) والكولونل (فابغيه) الفرنسيان إلى هذه المدينة المهددة ومعهما سبعة آلاف عسكري يوناني وتمكنا من الوصول إليها قبل أن يشدّ رشيد باشا الحصار عليها وبعد مناوشتين خفيفتين وقعتا بالقرب من المدينة في ١٠ وفي ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٦ إلتمزم رشيد باشا بإخلاء بيرا وما جاورها أما (فابغيه) فاخترق صفوف المحاصرين ودخل المدينة بألف وخمسمائة مقاتل واحتل قلعة (اكروبول) التي تعهد بالدفاع عنها، وكان اللورد (كشران) قومنداناً لل سفن الحريسة اليونانية والجنرال (شرش) رئيساً للجيش البرية وهما انكليزيا الجنس وكان السبب في تقليدهما هذه الوظائف الرئيسية مع وجود شجعان اليونان الذين اشتهروا في هذه الحروب من أولها، هو عدم اتفاق رؤس الثورة ووجود الغيرة والحسد بينهم وهو الأمر الذي أفضى إلى تقليد رئاسة الجمهورية اليونانية إلى الكونت (كابودي استريا)^(١).

(١) ولد هذا الرجل الشهير في جزيرة كرفو ببلاد اليونان وتوصل بمهارته وحققه إلى أن صار وزيراً لولا للروسية في عهد اسكندر الأول ثم انتخبه اليونان رئيساً لجمهوريتهم سنة ١٨٢٧ ومات مقتولاً سنة ١٨٣١.

وفي يوم ٤ يونيو سنة ١٨٢٦ هاجم اليونانيون عساكر العثمانيين ولسولا موت (كرايسكاكي) لفاز اليونانيون بالغلبة ثم في ٦ منه اتفق رأى رؤس جيش اليونانيين على معاودة الهجوم على صفوف العثمانيين ولكنهم لم يتحدوا في العمل ولم يساعد بعضهم بعضاً ومتى تفرقت الكلمة تفرقت القلوب ولذلك لم ينجحوا فيما عزموا عليه ولم يتمكن اللورد (كشران) والجنرال (شرش) من الإلتجاء إلى سفنهم إلا بكل صعوبة أما الجند فهلكوا إلا قليلاً منهم وبعد ذلك اتفق الجنرال (شرش) مع رشيد باشا على تسليم المدينة، وأمر الكولونيل (فابغيه) بإخلاء قلعة الأكروبول وتسليمها إلى العثمانيين لكن اضطره نفاذ المؤن وتدمير العساكر لإخلاء القلعة وتم بذلك استيلاء العثمانيين على مدينة أثينا تحت حكومة اليونان الآن.

ولم يبق بعد ذلك لليونان في أنحاء بلاد مورده إلا ثلاث قلاع أما المال المتحصل من القرض الذى أبرم في مدينة لوندرة ومن تبرعات محبي الحرية فقد نفذ أغلبه في الشقاكات الداخلية وما ترتب عليها من الحروب وسفك الدماء.

تداخل الدول:

بينما إبراهيم باشا يستعد لفتح ما بقى في يد اليونان من القلاع إذ تداخلت أوربا لاسيما فرنسا وانكلترا والروسيا بين الفريقين وطلبت من اليونان والباب العالى توقيف الحركات العدوانية حتى يتم الاتفاق على أمر مرضى مختار لدى الطرفين، فأبى الباب العالى ذلك وأمر قواده باستمرار القتال على ما كانوا عليه ولقد انتهزت روسيا هذه الفرصة واستعانت بدولتي فرنسا وانكلترا على إلقاء الباب العالى إلى إتباع المعاهدات فتهددوه وتوعده بالقتال، إن لم يقبل مطالب روسيا فبعد محاولات ومناقشات طويلة أمضى الباب العالى في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٢٦ على اتفاق (إكرمان) الذى من شروطه أن يؤيد كل ما جاء في

معاهدة بوخارست^(١) ويبيح لسفن روسيا المرور من بوغاز البوسفور إلى البحر المتوسط في أى وقت شاءت ومنها استقلال إمارتى الإقلاق والبغدان (رومانيا) واستقلال الصرب مع حفظ الحق للباب العالى فى وضع حامية عسكرية فى مدينة (بلغراد) وثلاث قلاع آخر ولم يذكر فى هذه المعاهدة شئ فى شأن اليونان واستقلالهم لإيجاد سبيل للتداخل فى مسئلتهم وحسمها طبق مرغوبهم.

هذا ولنأت على ذكر هذه المسألة تفصيلاً فنقول أن (دوك ولنجتون) وزير خارجية انكلترا إذ ذاك وهو القاهر لنابليون كما سبق، وكونت (نسلرود)^(٢) وزير خارجية روسيا كانا قد اتفقا عقب اجتماعهما فى شأن بطرسبورج على التداخل بين الدولة العلية واليونان وإنالة الأخيرة استقلالها طوعاً أو كرهاً فحرراً بلاغاً للباب العالى فى ٢٦ مارث سنة ١٨٢٦ بالنيابة عن دولتيهما وبتعصيد فرنسا، وقدّموه بالإشتراك إلى السدة السلطانية طالبين به استقلال اليونان استقلالاً إدارياً لا سياسياً، بحيث يكون تعيين الحكام والمستخدمين فيها بمعرفة أهلها تحت ملاحظة الباب العالى وأن يدفع اليونانيون خراجاً معيناً للدولة العلية، وأن المسلمين المقيمين فى بلاد اليونان يهاجرون منها ويعطون عوضاً عما يكون لهم بها من المال والعقار. فرأى الباب العالى هذه المطالب فادحة ورفضها رفضاً كلياً، فعند ذلك اتفق كل من فرنسا وانكلترا والروسيا بمقتضى معاهدة أمضيت فى مدينة (لندن) فى أوائل يوليو سنة ١٨٢٧ على إلقاء الباب العالى إلى

(١) لما شرع نابليون الأول امبراطور فرنسا فى محاربة روسيا سنة ١٨١٢ كانت للروسيا تقاتل مملكة السويد جارتها شمالاً والدولة العثمانية جارتها جنوباً فلأجل أن تتمكن للروسيا من جمع كل قواها لمحاربة فرنسا سعت جهدها فى إبرام الصلح بينها وبين محاربيها فأضمت اتفاق الصلح مع السويد فى ٥ إبريل سنة ١٨١٢ ومع الدولة العثمانية فى ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ ولكون للتوقيع على هذا الوفاق حصل فى مدينة (بوخارست) سميت هذه المعاهدة باسم المدينة المذكورة.

(٢) هو سياسى روسى ولد سنة ١٧٨٠ بمدينة (السيون) عاصمة البرتغال حيث كان والده سفيراً واشتغل هو أيضاً بالسياسة فعين بمسفارة روسيا بباريس سنة ١٨٠٧ واشترك فى كافة المخابرات السياسية التى سبقت وأعقب سقوط نابليون الأول وكان من أكبر المساعدين على مكافحة أحزاب الحرية فى جميع أرجاء أوروبا فكافاه الإمبراطور الإسكندر الأول بتعيينه وزيراً للخارجية فوجه اهتمامه إلى التداخل بين الدولة العثمانية وبين محمد على باشا كما سيجى وبمسعاه تم الإتفاق بين الدول ما عدا فرنسا على إرجاع المصريين إلى حدودهم الأصلية وشهد حرب القرم الذى كانت الدائرة فيه على للروسية وسعى كثيراً فى الصلح الذى تم بباريس سنة ١٨٥٦ وتوفى سنة ١٨٦٢.

قبول تداخلهم في مسألة اليونان، فأصرّ الباب العالي على عدم قبول تداخلهم فأرسلت الدول الثلاث المتحدة سفنها الحربية إلى مياه اليونان.

واقعة ناوارين البحرية:

لما علم محمد علي باشا بتداخل الدول الأجنبية أرسل إلى ولده بموره الدونامة المصرية حاملة أربعة آلاف عسكري وكانت السفن المصرية والعثمانية حاملة ألفين ومائتي مدفع وتسعة عشر ألف شخص واصطفت داخل ميناء ناوارين على هيئة نصف دائرة يتركز أحد طرفيها على قلعة البلد والآخر على قلعة جزيرة (سفا كيتري) الواقعة عند مدخل الميناء التي كابده إبراهيم باشا وسليمان بيك العناية الشديد والتعب المديد في الإستيلاء عليها كما ذكر ذلك في محله. أما الدونامة المتحدة فكانت أضعف من الدونامة الإسلامية من حيث عدد المدافع لكنها كانت أقوى منها بكثير بالنسبة إلى المتانة وانتظام الجند وسرعة الحركات وكانت السفن الفرنسية تحت إمرة الأدميرال (ريفي) والإنكليزية تحت قيادة الأدميرال (كودرنجتون) وكان قائد سفن روسيا الأدميرال (هيدن) لكن كانت السفن المتحدة تحت إمرة الأدميرال الإنكليزي لتوحيد الرياسة وعدم تفرقة الكلمة، واختير هو دون غيره لكونه الأقدم في الدرجة.

ثم دخلت الدونامة المتحدة إلى الميناء واصطفت للقتال دون أن يجسر أحد الطرفين على تحمل المسؤولية بالإبتداء بالعداوة ومع ذلك لم يمض نصف ساعة حتى انتشب القتال بينهما بدون إعلان حرب كما هي عادة الأمم المتمدنة، ولا سبب يوجب العدوان بين الطرفين إلا إغراء روسيا للدولتين الأخيرتين على تدمير الدونامة التركية المصرية، وكان يقصد الفرنسيون بذلك الفخر والشرف بعد ما ألم بهم سنة ١٨١٥ ولم يرغب الإنكليز أن تنفرد فرنسا بهذا العمل خوفاً من زيادة نفوذها في هذه الجهات فكان الرابع في هذه الحروب البرية الروسية فقط كما سيجي.

والسبب في اشتعال نيران القتال كما نشره ثقات المؤرخين هو أن أحد الحراقات التركية اقتربت في أثناء المناورات الابتدائية من إحدى البوارج الإنكليزية فأرسلت هذه لها ظابطاً في زورق يطلب منها البعد عنها فانطلق إليها وتهدد إحدى عساكرها بغدّارة كانت في يده، فأطلق العسكري التركي على الضابط الإنكليزي بنديقيته فقتله فانتشب حينئذ القتال بالبنادق بين هاتين السفينتين ثم أطلقت إحدى البوارج التركية مدفعاً أصابت طلّقه مقدّم السفينة الفرنسية (سيرين) ولم تصب أحداً فعند ذلك أطلقت هذه السفينة مدافعها على السفن التركية فانتشب القتال بين الطرفين بحال هائلة، حتى لقد عدّت هذه الواقعة التي كانت نتيجتها تخريب أغلب الدونامة التركية والمصرية من أكبر الوقائع البحرية وأهمها وكان ذلك في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ ويدّعى الأوروبيون أنه لم يكن قصدهم حصول الحرب والقتال بل كان قصدهم الوحيد إلزام الدولة العلية بمنح اليونان الإستقلال وإيقاف القتال بأي وجه كان ولو أدى ذلك إلى الحرب.

أما إبراهيم باشا فكان في داخل بلاد (موره) لإتمام نشر الأمن والسكينة بها فحين بلغه خبر تخريب سفنه في واقعة (ناوارين) عاد إلى هذه البلدة وأبرق وأرعد لكن لم يجده ذلك نفعاً ولذا اختار خطة الدفاع عن خطة الهجوم وتحصن في مينائي (كورون) و(مودون) وما جاورهما وأمر سليمان بيك بالبقاء في (تريبولتسا) وكان قد عين حاكماً لها ريثما تأتيه أوامر جديدة. ولما وصل خبر هذه الواقعة إلى دار الخلافة أرسل الباب العالي إلى الدول الثلاث المتحدة بلاغاً يطلب به عدم التداخل بينه وبين رعاياه اليونانيين وأن يدفعوا له عوضاً عن السفن التي فقدت في الواقعة المذكورة ويعتذروا له عما وقع منهم، فعند ذلك أعلنت روسيا بحرب الدولة العلية وبارزتها عدة وقائع كان الحرب فيها سجّالاً بين الطرفين، ثم كانت الغلبة للروسيا وانتهت الحرب بالتوقيع على معاهدة (أدرنة) وسنّأتى على ذكرها في محلها وفي هذه الأثناء تمكن اليونانيون بمساعدة

الدول الأدبية، ومساعدة فرنسا المادية، إذ أرسلت لمساعدتها جيشاً عظيماً تحت إمرة الجنرال (ميزون)، من استرجاع أهم مواقعهم الحربية.

ثم في ٣ أغسطس سنة ١٨٢٨ اتفق محمد علي باشا والى مصر مع الدول المتحدة على إخلاء (موره) بشروط وهى: أولاً أن والى مصر يتعهد بإعادة من أسر من اليونان وغيرهم في واقعة (ناوارين) وبتحرير من بيع منهم للأهالى، ثانياً أن الأميرال الإنكليزى يتعهد بإرجاع من أسر من المصريين وكذلك السفن التى أخذت أثناء الحرب، ثالثاً أن الجيوش المصرية تخلى (موره) في أسرع وقت وينقلهم أمير مصر إلى الإسكندرية على سفنه، رابعاً أن السفن المصرية فى حالتى ذهابها وإيابها تكون مخفورة بسفن فرنساوية وإنكليزية، خامساً أن اليونانيين المقيمين بمصر ياخيثارهم لا يجبرون على تركها ماداموا غير مكرهين على البقاء فيها وكذلك من يريد أن يعود مع المصريين بدون إكراه ولا إجبار، سادساً يجوز لإبراهيم باشا أن يترك فى (موره) عدداً من العساكر لا يزيد على ألف ومائتين للمحافظة على (مودون) و(كورون) و(ناوارين) و(بتراس) و(كستل تورنيز) أما باقى النقط الأخر فلا بد من الجلاء عنها بدون إهمال.

رجوع إبراهيم باشا إلى مصر وانتهاء حرب اليونان:

فلما عرض هذا الوفاق على إبراهيم باشا أخذ الغيظ منه كل مأخذ لما رأى من أن تعب لم يعد عليه بأقل نفع ولم يمكنه الإمتناع لتهديد سفن الدول له بحراً وجيش فرنسا برأ، فأصدر أوامره لسائر الفرق التى فى داخل بلاد اليونان بالسير إلى الثغور للرجوع إلى مصر ولسليمان بيك وكان مقيماً بالأيه فى مدينة (تريبولتسا) بترك المدينة بعد هدم قلاعها وأسوارها، فأخلى المصريون سائر البلاد تدريجاً ودخلها الفرنسيون بدون معارضة ولا ممانعة إلا (بتراس) فدخلها الجنرال (ميزون) عنوة بعد مقاومة خفيفة.

هذا ولندكر تميمًا للفائدة ما فعلته الدول الأورباوية لتحرير اليونان بعد رجوع إبراهيم باشا إلى مصر فنقول أن الدول الثلاث المتحدة وهي فرنسا والروسيا وانكلترا عقدت مؤتمرًا في مدينة (لندن) في ١٦ نوفمبر سنة ١٨٢٨، ودعت الدولة العلية لإرسال مندوب ينوب عنها ويقوم مقامها فيه فلم يقبل الباب العالي إرسال مندوب خوفًا من اعتبار ذلك إقرارًا على ما أتته هذه الدول من مساعدة اليونان. أما مندوبو الدول الثلاث فاجتمعوا بلوندره في اليوم المعين وقرروا استقلال (موره) وجزائر (سيكلاده) وتشكيلها على هيئة حكومة مستقلة تحت أمير مسيحي تنتخبه الدول وتكون تحت حماية وضمانة الدول الثلاث، وتدفع للباب العالي مبلغ خمسمائة ألف قرش في كل سنة.

لكن لم يعترف الباب العالي صاحب السيادة بهذه المعاهدة واستمرّ القتال في بلاد اليونان لإرجاعها إليه، فأعلنت روسيا الحرب عليه وبعد قتال شديد فاز الروس بالنصر والتزم الباب العالي بالتوقيع على معاهدة (أدرنة) في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩ التي كان منها إباحة الملاحة للروسيا من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط والاعتراف باستقلال اليونان.

* * *

٧- حرب الشام

عادت بقايا الجيش والدونامة المصرية إلى ثغر الإسكندرية متوجهة بالنصر المبين والفوز العظيم لا عار عليها إذ ألزم إبراهيم باشا بإخلاء بلاد اليونان بعد أن فتحها ونشر لواء الأمن في جميع أنحائها والعودة إلى مصر بعد أن فنى معظم رجاله في هذه الحروب والمناوشات، وكيف يتسنى لولاية هي بالنسبة إلى الدول الأوروبية كل شئ أن تقاوم حكومتى فرنسا وإنجلترا فضلاً عن مساعدة الحكومة الروسية لهما؟ أيلحق مصر والدولة العلية عار إن هزمتا في واقعة (ناوارين) البحرية التى سبق لنا شرحها والدونامة التركية لم تكن لتقاوم دوناتقى أعظم الدول الأوروبية بحراً وبراً؟ وكيف يمكن للجيش المصرية أن تقاوم قوة لم تقو الدولة العلية مع مالها من القوة العالية والعظمة السامية على صد هجماتها؟ لعمري إن مجرد وقوف قوة مصرية محصنة أمام إحدى هاته الدول العظام ليكسبها فخراً جليلاً ونبلاً جزيلاً وشرفاً أثيلاً، ولو خرجت من هذا الموقف الجرح مكسورة، لاسيما وأن المصريين لم يتعودوا منذ استيلاء العائلات الأجنبية على بلادهم، أعنى منذ نحو أربعة آلاف سنة أن يبذلوا أرواحهم بل ولا أموالهم للمدافعة عن استقلال وطنهم فما بالك لو دعوا لبذل الأرواح في نيل الشرف والسمعة كما كان سبب الحرب في بلاد اليونان، تالله أن تغلب المصريين على اليونانيين المشهورين بالبسالة والشجاعة في مواقع شتى وفتحهم بلادهم لمن أكبر البراهين على ما للمصريين من قوة البأس وثبات الجأش في الحروب، سيما لو علموا أن ذلك يعود على وطنهم بأقل فائدة وأيسر عائدة. وبالجمله فلا يمكننا أن نقول أن حرب اليونان لم تفد مصر شيئاً فإنها ولو لم تعد عليها بفائدة مادية فقد أفادتها فائدة أدبية ألا وهي تدريب عسكرها وبحريتها على أبواب القتال وفنون الحرب لأن اقتحام الأخطار وبذل الأرواح يغرسان في الجندي برئاً كان أو بحرياً، حب الشرف والمخاطرة بالروح في سبيل نيله لاسيما إذا رأى من رؤس وضايطه سيرة حسنة في الشجاعة والنظام العسكرى فإنه وأن توفي أو

استشهد كثير من العساكر المصرية واغتتم أو أحرق أكثر سفنها الحربية في واقعة (ناوارين) فإن ما بقى فيه كفاية لتدريب من يضم إليه من الشبان لما اكتسبه في مواقع القتال من التجربة واتقان هذا الفن الذى عليه المعول ومدار حماية الوطن وحفظ أهله، فلذلك لم تفر همة محمد على باشا بل ازدادت عزيمته بعد حرب اليونان فأخذ في تميم نظام جيشه واستعداد دونائمه ليعيد ما فقد في هذه الحروب الهائلة.

ولما انشرح صدره مما سمعه من نجله إبراهيم باشا من حسن نظام الجيش الفرنساوى والدونائجات الأورباوية أمر بإنشاء أليات من السوارى الذين يحملون المزاريق ويلبسون الزرد والدروع على هيئة جيش فرنسا، واستدعى من يسمى المسيو (دى سريزى) لتنظيم الدونائمة والموسيو (بوسون) لتعليم العساكر البحرية وأعطى كلا منهما رتبة بيك وكان الطيب (كلوت بيك) فى ذاك الوقت باذلاً جهده فى إيجاد الإستتالات وتحسينها للزومها عند الضرورة.

وأما سليمان بيك فكان فى هذه الأثناء بينه وبين إبراهيم باشا بعض حرازة ربما كان سببها حسد الحاسدين ووشى الواشين، لأنه كيف يظن أن إبراهيم باشا ينكر ما لسليمان بيك من الأعمال المشكورة فضلاً عن أياديه فى تنظيم الجيوش المصرية على نظام حسن لأنها لم تكن مؤلفة قبل إلا من أوباش الأرناؤد وأخلاق الترك الذين كانوا لا بغية لهم إلا السلب والنهب ونشر الفساد بين العباد بما كانوا يقتربونه من المحرمات على رؤس الأشهاد كتهب الأموال وسبى الفتيات والنساء زيادة عن خطف الولدان لإرضاء شهواتهم البهيجة بدون رادع يردعهم أو قامع بقمعهم عن ارتكاب الآثام إلى غير ذلك مما يأبى القلم تسطيره.

أما جيوش سليمان بيك فكانت مؤلفة من أبناء البلاد الذين يعود عليهم نعيمها وشقاؤها ويلزمهم الدفاع بملهم وأرواحهم عنها لأنها وطنهم ولا يخفى أن حب الوطن من الإيمان وكل إنسان يجب عليه حب اتساع وطنه لأنه كلما ازداد ازدادات الخيرات ونمت البركات. وكان سليمان بيك هو ناظم عقدهم

وموشى بردهم ولم يكتف بتتظيمهم وتعليمهم بل بث فيهم روح الإنتظام وحب الشرف لكن أبى الحاسدون إلا إيقاع النفرة بينه وبين نجل سيده الكريم إبراهيم باشا حتى هجره مدة من الزمان ولم يسلمه قيادة الجيش التي كان هو أحق بها من غيره واستمر هذا النفور إلى أواسط سنة ١٨٢٩، حتى تداخل بينهما محمد على باشا وأزال ما كمن في صدر ولده من البغضاء من جهة سليمان بك مؤكداً له أنه هو أول معضد للجيش ولا يمكن الإستغناء عنه، فلذلك صفح إبراهيم باشا عنه وقلده وظيفته في الجيش فعادت المياه إلى مجاريها.

* * *

هذا ويسوؤنا أن نقول أن مصر مع كونها قد تقدمت في زمن المغفور له محمد على باشا عما كانت عليه في زمن المماليك مالياً وعسكرياً، لكن لم يصب الفلاح من هذا التحسين إلا كثرة الضرائب وأعمال السخرة لإتمام الأعمال العمومية التي لم تعد بالفائدة على فلاحي ذلك الوقت بل على من أتى بعده فكأنه غرس ليبنى غيره، وكثرة الضرائب هاجر بعض فلاحي الوجه البحرى إلى جهة الشام والأقطار السورية انقياداً لإغراء بعض أمراء هذه الجهات ووهما منهم أن من يلتجئ إلى هؤلاء الأمراء تكرم وفادته وتحسن مقابلته لكن لسوء حظهم لم ينالوا ما كانوا يسعون وراءه من طلب المنافع الزائدة والخيرات الوافدة ومهاجرة هؤلاء كانت هى السبب في إضرار النار واشتعال الحرب بين والى مصر وعبد الله باشا الجزائر والى سورية ثم بين مصر والباب العالى.

وبيان ذلك أن محمد على باشا طلب من عبد الله الجزائر أن يرد إلى مصر كل من هاجر منها خوفاً من ازدياد عدد المهاجرين لو وجدوا سورية بلداً آمناً يمكنهم الإقامة فيه مع عدم دفع الضرائب الثقيلة مثل ما يدفعونه في مصر لجمع الأموال اللازمة لأعمال الترع وإقامة الجسور وسائر الأعمال العمومية الأخرى، فأما عبد الله الجزائر فأبى ذلك ولم يرض به، فاغتاز لذلك محمد على باشا وعزم على إرجاعهم بالقوة ومما زاد في غيظه أن له الأيادى البيضاء والنعم

الجزيلة على الجزار فإنه توسط بينه وبين الباب العالي في سنة ١٨٢٢ لإرضاء السلطان عنه حين أراد الجزار إدخال مدينة دمشق في دائرة ولايته رغم أنف الدولة العلية وآل ذلك إلى أن قهرته العساكر الشاهانية حتى ردتته على عقبه، بعد ما قتلت وأسرت غالب جيشه ولم يرض عنه الباب العالي إلا بتوسط محمد علي باشا وبشرط أن يدفع ستين ألف كيسة غرامة فدفع عنه والى مصر جلّها إن لم يكن كلها.

وفي سنة ١٨٣١ ورد كتاب الجزار إلى محمد علي باشا بعدم إجابته إلى ما طلبه فأخذ في زيادة عدد الجيش وجمع المؤن والذخائر والخيول اللازمة لنقلها ونقل العساكر المشاة بين مصر والشام، وبينما هو مشغول بجمع رجاله إذ دهمت مصر داهية دهماء وهو تطرق الوباء إليها نعوذ بالله منه وانتشر بسرعة غريبة بين الأهالي وأنفار العسكر.

ولما لم يكن إذك ما لدينا الآن من الوسائط الصحية المانعة لإنتشاره وكثرة أذاه فتك بالعباد فتكاً ذريعاً حتى قيل أن عدد من توفي من المصريين في شهرى أغسطس وسبتمبر ينيف على مائة وخمسين ألف وكان عدد سكان القطر حينئذ لا يزيد عن ثلاثة ملايين^(١)، ولما اضمحلت وطأة الكوليرة رجع محمد علي باشا إلى الإستعداد لأجل محاربة الجزار فلم يكن إلا قليل حتى سافر من مصر إلى العريش الواقعة على الحدود الشامية ست أليات مشاة وأربعة خيالة ومعهم أربعون مدفعاً صغيراً وعدة من مدافع الحصار الضخمة مع ما يلزم من المؤن والذخائر وكان معهم المياه لعدم وجود ما يطفى هيب العطش في هذه الرملة المحرقة الفاصلة بين مصر والشام فقد قاسى الفرنسيون في اجتيازها أنواع آلام العطش وقت سفرهم لمحاربة البلاد الشامية سنة ١٧٩٩.

(١) ذكر المسيو (فلكس ماتجان) في كتابه على تاريخ مصر أن عدد السكان كان في سنة ١٨٠٠ حين احتلال الفرنسيين مليونين ونصف ولا يخفى أن مصر استمرت في حروب داخلية وخارجية من ذلك العهد إلى التاريخ الذي نحن بصدد تقديرنا عدد السكان في سنة ١٨٣١ بثلاثة ملايين يكون أقرب للحقيقة من تقديره بأكثر من ذلك.

حصار عكا:

وفي هذا الوقت سافر إبراهيم باشا قائد الحملة مع حاشيته بجزراً، تحفزه الدونامة المصرية في أكمل نظام وأحسن ترتيب وأبداع شكل وأغرب وضع حتى وصل مدينة (حيفا) وكانت قد احتلتها العساكر المصرية قبل قدومه بعد أن فتحوا في طريقهم (غزة) و(يافا) و(بيت المقدس) و(نابلس) ثم جعل مقره (حيفا) وجمع فيها الميرة والذخيرة وابتدأ في محاصرة مدينة (عكا) براً وبحراً فكان يحصرها من جهة البحر عدة من البوارج الحربية المسلحة بالمدافع الكبيرة ومن جهة البر ثلاثون ألفاً من العساكر المنتظمة وابتدئت أعمال الحصار في ست وعشرين خلون من شهر نوفمبر سنة ١٨٣١ وأما عبد الله الجزار فلم يعبأ بهذه الاستعدادات لوثوقه بمنعة المدينة لقوة أسوارها وقلاعها المحيطة بها من كل جهة، لا سيما وأنه لم يمكن (بونابرت) فتحها فدخل في نفسه الغرور بذلك ولإعتقاده أن الباب العالي لا يتركه بدون مساعدة، وكان كذلك، فإن الباب العالي أرسل لوالى مصر مندوبين يأمرانه أن يكف عن محاصرة عكا وأن يخلى البلاد الشامية، ويهددانه بتدخل الباب العالي لو لم يكف عن عدوانه، لكن لم يصغ محمد على باشا إلى تهديداتهم لعلمه أن الباب العالي لا يمكنه تحقيق هذا الأمر لإشتغاله إذ ذاك بمحاربة الروسيا ألد أعدائه، لكنه أظهر لهما الإمثال وكتب سراً إلى ولده إبراهيم باشا بمضايقة المدينة وتشديد الحصار ليضطر أهلها إلى التسليم قبل وصول العساكر السلطانية إليهم لو أرسلت الدولة العلية جيوشها إليهم لإلزامه القهقري.

وأما مدينة (عكا) فلم تكن من المنعة بالمكان العظيم الذى كان يظنه الجزار لأن عدم نجاح (بونابرت) أمامها إنما كان لمعاكسة الدونامة الإنكليزية له وقطعها المواصلات بين الشام ومصر من جهة، وأخذها مدافع الحصار التى أرسلها قائد الفرنساويين على طريق البحر من جهة أخرى، لتعذر إرسالها براً لوجود صحراء العريش وعدم استيفاء لوازم النقل وكذلك تأخر إبراهيم باشا عن دخولها لم

يكن ناشئاً عن منعها بل لعدم وجود مهندسين محنكين بالجيش لإرشاد المدفعيين إلى الجهة التي يلزم توجيه نيران المدافع إليها لأن الشجاعة في مثل هذه الأحوال لا تكفى على حدتها، بل للعلم فيها مدخل لا ينكر. ومما كان يزيد في ارتباك الجيوش المصرية وعدم تفرغهم لمحصنة المدينة معاكسة سكان لبنان لهم ومهاجمتهم إياهم في مناوشات صغيرة متعددة وقد زادت قحطهم حين وصلهم خبر قدوم العساكر الشاهانية لمحاربة الجيوش المصرية وإلزامها بالعودة إلى مصر.

انتصار المصريين بقرب حمص:

كان الباب العالي قد تمكن في هذه الأثناء من جمع عشرين ألف مقاتل وأرسلها لمحاربة والى مصر تحت قيادة عثمان باشا والى حلب فرحف بالفعل هذا الجيش الجرار قاصداً (عكا) ومستصحباً في طريقه كل ما لاقاه من عساكر وأعراب ودروز، سواء كانت منتظمة أو غير منتظمة ولما بلغ هذا الخبر قائد الجيوش المصرية جمع مجلساً عسكرياً من نخبة ضباطه الوطنيين والأجانب للتروى في أحسن الطرق لرد هجمات العثمانيين فقرّر رأى هذا الجمع على رفع الحصار مؤقتاً وإرسال الجيوش إلا قليلاً لحفظ خط الرجعة إلى (عكا) لمهاجمة الجيش العثماني في طريقه والإنقضاض عليه بغتة وتفريق شمله قبل أن يأتيه المدد فقبل إبراهيم باشا هذا المشروع وجعل نفسه رئيساً عاماً على الجيش ووكّل أمر الترتيبات اللازمة لسليمان بك فلما عهد إليه هذا الأمر جمع ستة آلاف من نخبة عسكره وعدداً كثيراً من المدافع القوية وتقدّم على طريق دِمَشق لمحاربة الأتراك وفي هذه الأثناء لما علم عبد الله باشا الجزائر بتضعضع قوّة المصريين عقب سفر نخبته ونخبة قوّاده إلى دِمَشق خرج من المدينة وهاجم المحاصرين فظهر عليهم وأخذ الكثير من مدافعهم وقاتلهم بها، لكن إبراهيم باشا لم يعبأ بهذه الغلبة بل جدّ في طريقه لمقاتلة العثمانيين حتى إذا عاد بالنصر شدّد الحصار على (عكا) وفتحها عنوة.

ثم وصل إلى مدينة (حمص) حيث التقى في ضواحيها مع جيش عثمان باشا وكان هذا الجيش مؤلفاً من فرسان العرب والأكراد فأحاطت بالعساكر المصرية إحاطة الهالة بالقمر حتى كان يحيل للناظر أن الجيش المصرى لا يلبث أن يتفرق أيدي سبا، ولكن قام حسن نظامه ومهارة ضباطه وشجاعة عساكره مقام كثرة العدد وأغنت عن وفرة العدد وذلك أن سليمان بك رتب العسكر على هيئة صفوف منتظمة ووضع وراءها بطاريات المدافع حتى لا يراها المهاجم فأنخدع القائد التركى بهذه الحيلة وهجم بكل قوته على الصفوف المصرية فلم ترد هجومهم بل ثبتت مكانها إلى أن صارت العساكر التركية على مسافة قليلة، فتقهقر المصريون خلف المدافع وأطلقت هذه قنابلها فكسحت كل من بالسهل من مشاة وركبان، وبعد ذلك اقتفى أثرهم المشاة المصريون عدوا وأبلوا فيهم بلاء حسناً وأعملوا فيها السيف والرمح إلى أن أوصلوهم إلى نهر العاصى حيث غرق كثير من الأتراك أما عثمان باشا وباقى الضباط فاحتموا في مدينة (حمه) وكانت هذه الواقعة فاتحة الفتوحات الشامية وباكورة النصر على الجيوش التركية كما سيجى مفصلاً إن شاء الله تعالى.

فتح مدينة عكا:

ثم صار إبراهيم باشا حتى احتل بعلبك بجيشه بعد أن أبقي في جميع الطرق من العسكر ما يلزم لحفظ خط الرجعة ومكث هناك مدة خوفاً من رجوع العثمانيين إلى الكرة، ولما علم أن عثمان باشا أرسل إلى الباب العالي يطلب المدد وأنه لا يأتيه إلا بعد شهرين أو أكثر إذا أسرع في إرساله ولم يعقه عائق يوجب البطء رجع إلى مدينة (عكا) وجدّد الحصار عليها بكل شدة براً وبحراً بمساعدة العرب والدروز والمارونية الذين أتوه بأنفسهم طوعاً بعد أن ظهر على الأتراك، وكذلك الأمير بشيراً أكبر أمراء لبنان وأعظمهم شأنًا، أتى إلى معسكر إبراهيم باشا وطلب الدخول تحت حمايته.

وأخذ الحصار حينئذ وجهة أخرى واستمر إطلاق المدافع القوية بغاية الدقة والإتقان والإحكام ولم يزل الإطلاق مستمراً حتى تھشم السور وفتحت فيه فتحتان متسعتان وفتحة ثالثة صغيرة وحينئذ لم يتردد إبراهيم باشا في مهاجمة المدينة وأخذ في وضع الاستعدادات اللازمة وعين يوماً للهجوم وكان يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ وعند الصباح انقضت الجيوش المصرية على الفتحات الثلاث فاستولت على اثنتين منه وترددت قليلاً أمام الثالثة فبادر إبراهيم باشا وتقدم بجزء من جيشه الإحتياطي لمساعدة هذا القول، فدبت فيهم الحمية العسكرية وساروا عدواً حتى وصلوا إلى الفتحة المذكورة وصعدوا إلى السور واستمر القتال هناك بالسلح الأبيض بينهم وبين ما بقى من الحامية إلى المساء، فاستسلم الباقون وألقوا سلاحهم وأخذ في هذه الواقعة عبد الله الجزار أسيراً وأرسل تَوْأً إلى مصر فأكرم محمد علي باشا مثواه وأحسن لقياءه.

ولما انتشر بمصر خبر فتح (عكا) لا سيما وقد أعيت (بونابرت) الحيل في أخذها، زينت المدينة عدة أيام متواليات وكان البشر إذ ذاك يتلأأ على وجوه المصريين ويعلن بما ملأ قلوبهم من الفرح والسرور، إذ لم يعهد من ابتداء تولى العائلات الأجنبية على مصر أنها انتصرت مثل هذا الانتصار الذي توسم المصريون به التقدم والنجاح تحت ظل العائلة المحمدية العلوية وطفقوا يدعون الله أن يديم لهم محي مجد مصر ويطلبون منه سبحانه أن يحفظ الذي أحياها من موها حتى يتم مشروعاته وينيلها استقلالها الإداري تحت رعاية الدولة العلية الإسلامية.

انتصار المصريين بقرب حلب:

كان لسقوط مدينة (عكا) في أيدي المصريين موقع عظيم في قلوب العثمانيين فاضطرب الباب العالي وخشى من تعاظم الخطب وازدياد مطامع المصريين فأراد تلافى الأمر قبل اتساع الخرق على الراقع، فأمر بحشد الجيوش والكتائب وجمع بكل عناء وتعب ستين ألف مقاتل وأرسلهم لمحاربة إبراهيم باشا تحت قيادة حسين باشا مبدد الإنكشارية ولقبه بلقب (سردار أكرم) ووهب له ولاية مصر

وولاية (كريت) لكن سوء حظه لم يساعده على دخول مصر لحسن حظها كما سترى.

فتقدم حسين باشا المذكور بجيشه مع البطء والتواني حتى إنه لم يصل إلى مضائق جبال (طوروس) إلا في أوائل شهر يوليو وكان لم يرد البعد عن مدينة (أنطاكية) خشية من ملاقات إبراهيم باشا ومن معه من أسود مصر، بل أرسل محمد باشا والى حلب مع مقدمة الجيش وأمره أن يتحصن في مدينة حمص. هذا ولم يخف على إبراهيم باشا أن انفصال معظم الجيش العثماني عن مقدمته وكونه على مسافة بحيث يتعذر عليه الإسراع في مد يد المساعدة إليها إذا مست الحاجة لذلك، من أكبر الغلطات العسكرية وأعظم الهفوات الحربية بل تنبه لذلك وأراد انتهاز الفرصة وضرب المقدمة أولاً ثم محاربة حسين باشا وجيشه ثانياً، فتوجه بسرعة نحو دمشق ودخلها بدون عناء وترك فيها حامية قليلة ثم أخذ يجتهد في السير نحو مدينة حمص حتى وصل أمام معسكر محمد باشا والى حلب بثلاثين ألف مقاتل قبل أن يشعر به أحداً واستعد للزال فلم ير قائد الجيوش التركية مندوحة عن القتال وأخذ في الاستعداد والتأهب له.

وأما إبراهيم باشا فإنه سلم قيادة الجند إلى سليمان بيك لما شاهد منه من الحنكة والدراية فقسم الجيش إلى ثلاثة صفوف متوازية وجعل يمينه مرتكزاً على صحراء وشماله على بحيرة صغيرة ووضع جنوده الخيالة في الجناحين وثلاث بطاريات طوبجية في الأمام وأربعاً خلف الجيش لتقدم عند الضرورة وبعد ما أتم هذه الترتيبات ابتداء بإطلاق النيران من البطاريات الأمامية.

أما محمد باشا والى حلب قائد الجيوش التركية فلم يرتب جيشه إلا على صفين فقط ولا يخفى ما ينشأ عن ذلك من ضعف نار المشاة ولم يحسن ترتيب الطوبجية لأنه فرقها ووضع بين كل أورطة من المشاة مدفعاً واحداً فكان عدم الإحتياط في ترتيبها سبباً في إضاعة قوتها ثم ارتكب غلطة أخرى أعظم من الأولى، وهي وضع جناحه الأيمن في نقطة بحيث يتعذر عليه الخروج منها

بسرعة لمساعدة الجناح الآخر أو القلب وهذه النقطة كانت محاطة بترعة وبركة وطريق عام فلما رأى سليمان بيك هذه الترتيبات وعلم أن جناح الترك الأيمن في حيز العدم وجه كل قوته نحو الجناح الأيسر والقلب فصوب إليهما مدافع بطارياته الأمامية وفي أثناء إطلاق القنابل ذهب ببطارياته الإحتياطية وبعض من الخيالة وساروا بميل حتى وصلوا إلى طرف الجيش من جهة اليسار وهناك هجم بمدافعه وخيله فشنت شمل الجناح الأيسر والقلب وفرّقهم أيدي سباحين، كان الجناح الأيمن لا يقوى على التحرك من مكانه فانهزم الجيش التركي ورجع محمد باشا وما بقي من جيشه إلى مدينة حلب، ووجد بالقرب منها حسين باشا مع بقية الجيش.

وكانت هذه الواقعة في ٩ يوليو سنة ١٨٣٢ وبلغ عدد القتلى من الترك ألفين والأسرى ثلاثة آلاف وكانت الغنيمة فيها للمصريين اثني عشر مدفعاً وكثيراً من الذخائر والخيّام فتقهقر محمد باشا إلى حلب حيث التقى بحسين باشا وجيشه ولما أراد حسين باشا الدخول في مدينة حلب ليتحصن فيها منعه سكانها خوفاً من انتقام إبراهيم باشا منهم فاضطرّ حسين باشا أن يتقهقر لبحث عن مكان حصين يمكنه فيه أن يوقف سير المصريين ويصدّهم عن بلاد الأناضول واستمرّ في رجوعه حتى وصل جبال (طوروس) الفاصلة بين الشام والأناضول وتحصن في مضيق هناك بالقرب من مدينة تدعى (بيلان) حيث جمع شتيت قواه مع الإحتياطى من جيشه. وهذا المضيق هو الطريق الوحيد بين بلاد الشام والأناضول وهو مشهور في التاريخ لمرور الإسكندر المقدوني منه في الجيل الرابع قبل المسيح حين زحف بجيشه لفتح بلاد الشام ومصر لمرور الإفرنج حين أتوا على طريق قسطنطينية في زمن الحروب الصليبية لفتح بيت المقدس.

واقعة بيلان:

في أثناء هذه المدة تقدم الجيش المصرى بغاية السرعة حتى وصل مدينة حلب فدخلها في يوم ١٧ يوليو سنة ١٨٣٢ بدون أن يجد أدنى مقاومة من الأهالى

وترك بها جزءاً من المهمات العسكرية وخفراً قليلاً من الجند ولم يزل مجدداً في طلب العدد ومرسلاً في أثره طلائع الجيش حتى عثر على حسين باشا مع جيشه متحصنين في جبال (طوروس) حيث أقيمت القلاع الحصينة على قمم الجبال حتى صار الممر صعباً فوصل إبراهيم باشا مع جيشه يوم ٢٩ يوليو من هذه السنة إلى معسكر الجيش التركي فاندھش من مناعة الممر لكن لم يلبث أن جمع مجلساً حريباً مركباً من كبار ضباط الجيش وتداولوا الرأي في الطريق التي يمكن بها الاستيلاء على هذا المضيق بدون أن يعرض جيشه إلى مدافع العدو المركبة على قمم الجبال فبعد أن استكشفوا مواقع العدو والنقط التي نزل بها وتحققوا أنه يوجد قمم أعلى من هذه القمم استقر رأي هذا المجلس على الإسراع في احتلال هذه القمم العليا بدون تأخير حتى يتمكن الجيش المصري من إطلاق بنادقه ومدافعه على الجيش التركي الذي يكون إذ ذاك في موضع حرج فصدرت الأوامر إلى العساكر المصرية بالصعود واحتلال القمم المذكورة بدون أن تستريح من التعب وما ذاقوه من نصب ورفعت المدافع الضخمة مع العناء والمشقة إلى هذه القمم الشامخة.

وبمجرد ما تمت هذه التجهيزات الابتدائية صوب المصريون نيرانهم على العدو من أعلى إلى أسفل فوق الفشل في الجيش التركي ولم يدر كيف يقاوم عدواً تصله مقذوفاته ولا يمكنه أن يجاوبه بمثله، ولم يمض كثير من الزمن حتى تفهقر الأتراك وتركوا المعادل والحصون وأرادوا التزول إلى الوادي فقابلتهم سوارى المصريين بالسيوف وأخذوا في ضربهم حتى تفرق شملهم واغتنم المصريون في هذه الواقعة خمسة وعشرين مدفعاً وألفين من الأسرى وكثيراً من الذخائر والتجأ كثير من الترك إلى ضواحي مدينة اسكندرونة للهرب على الدونامة لكن لسوء حظهم كانت الدونامة قد سافرت فلما علم المصريون بذلك اقتفوا أثرهم وتبعوهم إلى اسكندرونة حيث لحقوهم في اليوم التالي وطردهم من المدينة وغنموا منهم أربعة عشر مدفعاً وجمّاً غفيراً من الأسرى.

وكانت هذه الواقعة هي الطامة الكبرى والحية العظمى لحسين باشا وجيشه ويقال أن حسين باشا ترك جيشه ليلاً واختفى حتى لم يوقف له على أثر خوفاً مما يلحقه من العار بسبب انخذه أمام جيوش أحد أتباع الدولة العلية وفراراً مما يحكم عليه به من العقاب والقتل بسبب ذلك واختلف الناس في كيفية فراره على أوجه شتى فقال فريق أنه فر على مركب يونانية بعد أن اتخذ كل ما كان معه من ماله الخاص ومال حكومته لكن غدر به ربان السفينة واغتال ماله وألقاه ومن معه على جزيرة صغيرة من جزائر الأرخبيل حتى أهلكهم الجوع فيها وقال فريق أنه اختفى في إحدى قرى الأناضول وأمضى فيها ما بقي من عمره في عيشة بسيطة كأحد أفراد الرعية ولم يرد الظهور بعد ذلك، وكل هذا رجم بالغيب أما الحقيقة الحققة فلا يعلمها إلا موجد الكائنات وبارئ النسمات سبحانه جل جلاله وعظم سلطانه.

واقعة قونية:

ثم إن إبراهيم باشا اجتاز بعد ذلك جبال (طوروس) وجاوز حدود بلاد سوريا ودخل ولاية (أطنه) ولكن لم يبع التقدم إلى الأمام بل بذل جهده في تنظيم ما فتحه من الولايات بعد أن أدخل في دائرة فتوحاته مدائن انطاكية وطرسوس وأطنه وأقام مع جيشه في هذه المدينة إلى ١٣ أكتوبر سنة ١٨٣٢ ثم انتقل بخيله ورجله إلى الأمام لمقابلة الجيش التركي الجديد الذي أرسله السلطان لمحاربه لأنه لم يكن من عاداته أن يدع العدو يهاجمه بل كان هو يقابله في سيره ويهجم عليه من حيث لا يشعر فضلاً عن أن يوقع في صفوفه الفشل وكان هذا الجيش مؤلفاً من جميع الشعوب المكونة للدولة العلية ولا رابطة بينها من الروابط التي يتحرك بها الجيش حركة واحدة كرجل واحد لأن الدولة العلية لم تتمكن من التآليف بين قلوب رعاياها حتى تكون منهم أمة واحدة عثمانية بل لم يزل كل شعب محافظاً على تقاليده وعوائده ولا تجمعهم مع باقي الشعوب إلا جامعة الخضوع لسلطان واحد ذي بأس وبطش.

ومن المعلوم أن تباين الشعوب واختلاف أهوائهم ومشاربهم لا تزيله قوة السلطة ولا تقدمه من أصل وأن كانت تحمد ناره وتكسر أواره. ألا ترى أن السلطة التي تجمع هذه الأضداد وتؤلف بينهم بحسن إيااتها وتلمّ شعث ما بينهم من تنافر الجنسية واختلاف المشارب إذا أحسوا منها وهناً أوقصوراً في القوة والثروة طمحت أبصارهم وتشوفت نفوسهم إلى مبارزتها بالعداوة وأسرع كل شعب إلى بني جلدته وأهل مشربه، وحسبك دليلاً على ذلك معاهدة برلين وما اشتملت عليه من استقلال بعض الشعوب وانضمامها إلى إحدى الدول الأوروبية.. ولنقتصر على ذلك خوفاً من الخروج عما نحن بصدده ونرجع إلى ما كنا فيه فنقول:

كان هذا الجيش تحت قيادة رشيد باشا الذي اشترك قليلاً مع إبراهيم باشا في محاربة (موره) وخصوصاً أمام مدينة (ميسولوجي) وامتاز بعد ذلك في محاربة من يدعى مصطفى باشا والي (اشقودره) ببلاد الأرناؤود ولما اجتمع هذا الجيش العرمرم بمدينة (استانبول) استعرضه السلطان بنفسه وضم إليه ست أليات من المشاة المنتظمة مع إضافة عدد وافر من المدافع حتى بلغ عدده ستين ألف مقاتل ثم تقدم رشيد باشا إلى بلاد الأناضول لصدة هجمات إبراهيم باشا عن مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة العلية. وكان إبراهيم باشا قد تقدم حتى وصل مدينة (قونية) وجعلها مقراً لأعماله الحربية ومركزاً للذخائر والمؤن وبث طلائع جيشه، إلى سائر ضواحي البلد وتفقد بنفسه كل النقط المهمة واستعرض جيشه فوجد من حسن نظامه ما انشرح منه صدره وقرّ به عيناً وأمل الظفر على رشيد باشا كما انتصر على حسين باشا، وما النصر إلا من عند الله.

وفي ١٨ ديسمبر من سنة ١٨٣٢ وصلت مقدمة الجيش التركي تحت قيادة رؤف باشا إلى شمال مدينة (قونية) وكانت هذه المقدمة مؤلفاً أغلبها من الجيوش غير المنتظمة، فناوشهم إبراهيم باشا ليتحقق قوة انتظامهم ودرجة ثباتهم ولما آنس منهم الضعف أراد أن يظفر بهم ويفرق شملهم ويشتت جمعهم قبل وصول

الجيش فلم يقبل رؤف باشا الحرب لتحقيقه من عدم الثبات أمام الأسود المصرية فانقضى يوما ١٨ و ١٩ في مناوشات خفيفة كانت نتيجتها أخذ بعض مدافع وبعض أسرى من الأتراك. ثم في صبيحة يوم ٢٠ من الشهر انتشر خبر وصول رشيد باشا وجيشه إلى مقربة من (قونية) وحينئذ تحقق الكل أن هذه الواقعة ستكون خاتمة الحرب وأنه لو انهزمت العساكر التركية، خيف على الدولة العلية من تقدم المصريين نحو القسطنطينية وبمجرد وصول رشيد باشا أخذ يتأهب للقتال فرتب جيشه المركب من ستين ألف مقاتل على أربعة صفوف وجعل الخيالة لوقاية الخلف والاجنحة، لكنه ارتكب الخطأ الذي كان سبباً في الخذلان حسين باشا أمام حلب، وهو تفريق المدافع بين كل أورطة وأخرى وتشتيت قواها وتفريقها حتى لا يعود لتيراتها تأثير ومن البديهي أن نفس الأسباب تنشأ عنها نفس المسببات.

وأما إبراهيم باشا فلم يكن معه إذ ذاك إلا ثلاثون ألف مقاتل مدربون على فنون القتال وحضروا كل الوقائع الحربية التي حصلت بين الترك والمصريين من ابتداء الحرب، مع أن الجيوش التركية كانت مؤلفة من أحداث مختلطي الأجناس مختلفي الملل ومع ذلك لم يسبق لأغلبهم اقتحام نيران الحرب ومشاهدة أهوالها، ومما قوى في قلوب المصريين الأمل في الفوز والانتصار ثقتهم برؤسهم وتعدد النصر لهم المرة بعد المرة في سائر الوقائع التي شهدوها، "وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة يا ذن الله والله مع الصابرين".

وبعد أن انتظم كل من الجيشين تقدم الجيش التركي إلى الأمام، أما المصري فمكث في مكانه لا يبدى حراكاً وكان الضباب الكثيف الكثير الموجود في بر الأناضول خصوصاً في مثل هذا الشهر سادلاً أستاره على الجيشين ومخفياً كلا منهما عن أعين الآخر ولذلك لم يبدأ إبراهيم باشا بالضرب كي لا يعرف العدو مكانه، أما رشيد باشا فبمجرد وصوله على مسافة خمسمائة متر ابتداءً باطلاق البنادق والمدافع فعلم إبراهيم باشا وسليمان بيك ترتيب جيش العثمانيين

وتفريق مدافعهم، ثم شاهد سليمان بك المشاة التركية انفصلت بسبب الضباب عن الخيالة فأمر في الحال المشاة من المصريين بالدخول بين الفريقين ليستحيل اجتماعهما ورجوعهما إلى ما كانا عليه من الإلتزام والانضمام ولقد أوقعت هذه الحركة العسكرية الرعب والفرع في قلوب الأتراك فوقفوا مبهورين يقادّمون رجلاً ويؤخرون أخرى إلى أن فاجأت الخيالة المصرية الخيالة التركية وأعملت فيها السيف حتى بدّدها ووجهت المدفعية المصرية قنابلها على المشاة التركية فأهلكتها ودمرتها.

ولما رأى رشيد باشا أن لامناص من الإلتزام أراد أن يستقل في الحرب فزل بنفسه في وسط المعركة يقاتل كجندى ولكن لم يفز ببغيته بل وقع أسيراً في أيدي المصريين فجاءوا به إلى إبراهيم باشا فأحسن وفادته، ولما انتشر خبر أسره وقع الفشل في صفوف الأتراك فولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وفاز المصريون بفوز لم يسبق له مثيل في تاريخهم واغتنموا من هذه الواقعة نيفاً ومائة مدفع وكثيراً من الذخائر وأسروا عشرة آلاف عسكري كان من ضمنهم كثير من القواد العظام والضباط الكرام.

وكان لهذه الواقعة تأثير مهم في قلوب سكان الأناضول وصار المصريّ أو من يتبعه مهيباً معظماً أينما حلّ وما يؤيد ذلك ما روى أن شخصاً يدعى محمد أغا دخل مدينة أزمير ومعه أربعة رجال واستولى عليها باسم إبراهيم باشا وطرد حكامها واستبدّ فيها بأمره ولم يقدر أحد من السكان ولا من غيرهم على إخراجهم، لكنه ما لبث أن اضطرته العساكر الشاهانية إلى الهرب وإخلاء المدينة أما إبراهيم باشا فلم يرد أن يزيد شواغله باحتلال (أزمير) لما يترتب عليه من سلخ جزء من جيشه وإرساله إليها فأنكر معرفة محمد أغا المذكور وبذلك زالت هذه المسألة الغريبة التي ليس لها أدنى أهمية حربية ولكن أوردناها اثباتاً لما وقع في قلوب الأتراك من بأس المصريين ومهابتهم.

تداخل الدول:

ولقد اضطربت لذلك الدولة العلية فخشيت من تقدم إبراهيم باشا مع جيشه وأوجست خيفة من سوء العاقبة ولما لم يبق لها من الجيوش المنتظمة ما تعترضه به في طريقه استعانت بالسياسة الأورباوية فتدخلت الدول العظام في المسألة لتسويتها بحل مرضى للطرفين خشية من دخول إبراهيم باشا اسلالمبول واستفحال أمره وأما الروسية فانتهزت هذه الفرصة للتدخل بالفعل بين الدولة العلية ورعاياها المصريين فأرسلت سفنها إلى شواطئ الأناضول الشمالية لمنع تقدم إبراهيم باشا نحو القسطنطينية وأنزلت إلى البر برضا الباب العالي نيفاً وخمسة عشر ألف نفس من جيشها لمحاربة إبراهيم باشا إذا اقتضى الحال. وكان ذلك منها لما خشيت من أنه لو استولى محمد علي باشا على تحت الدولة العلية لم يتيسر لها حينئذ تنفيذ وصية بطرس الكبير فتدخلت فرنسا وانكلترا وعارضتا الروسية في نزول عساكرها في أرض الدولة العلية وبعد مخاضات طويلة التزم الروسيون بسحب عساكرهم إلى الحدود، وتوصلتا أيضاً إلى إبرام الصلح بين السلطان محمود ومحمد علي باشا بأن يعطى ولاية مصر مدة حياته ويقلد ولايات كريد والشام وقسم أطنه.

وسميت هذه المعاهدة بمعاهدة (كوتاهيه) نسبة إلى البلد التي كان إبراهيم باشا بها وقت الاتفاق ولم يتجاوزها إتباعاً لأوامر الدولة وصدرت إرادة السلطان الشاهانية بذلك في مايو سنة ١٨٣٣ وبعد ذلك أدخل إبراهيم باشا بلاد الأناضول وإجتاز جبال (طوروس) عائداً إلى الشام حيث أخذ في تنظيم البلاد ونشر أسباب الراحة والأمن بين العباد.

أما الباب العالي فأجاب إلى هذه المطالب إتباعاً لمشورات الدول الأورباوية عموماً، وفرنسا وانكلترا خصوصاً، فإنهما بذلتا جهدهما في إقناع الباب العالي بمصالحة تابعه، بدون تدخل الروسية دخولاً حرياً فإنه أمر لا يؤمن أن يعود على تركيا بما لا ترضاه فقفل الباب العالي ذلك ظاهراً وأخذ في الاستعداد سراً

في تدريب الجيوش وتجهيز العدد والعدد لردّ ما سلب من أملاكه كما سيجي ذلك مفصلاً.

هذا أما روسيا فتمكنت في مدة نزول عساكرها بأرض الدولة من إبرام معاهدة مع الباب العالي تدعى معاهدة (أنكاراسكله سى) كان من أهم شروطها أن كلا من المتعاقدين يتعهد بالذب والمدافعة عن الطرف الآخر عند حصول خطر داخلي أو خارجي له ومنها غير ذلك من الشروط التي لا تخلو من الإذلال والإحجاف ولكن بمساعدة المقادير لم تنفذ شروط هذه المعاهدة مطلقاً لإحتجاج الدول الأوروبية عليها ولتنبه الباب العالي إلى مضارّها.

وأما إبراهيم باشا وسليمان بك فأخذا ينظمان البلاد الشامية تنظيمًا إدارياً وسياسياً وحريةً وعسكرياً حتى ساد الأمن في ربوعها وانتشرت السكينة في أنحائها وأمن على النفس والمال من أن تعبت بها أيدي الظلم والاعتساف، وراجت التجارة واتسع نطاقها وكثرت المعاملات بين الشام والبلاد الأوروبية وازدادت الصادرات والواردات ضعفي ما كانت عليه قبل ضمها إلى مصر ونمت المحصولات. وصار كل إنسان واثقاً بأنه يحصد ما يزرع بدون أن يشاركه العرب أو تقاسمه فيه الحكام، كما كان حاصلًا قبل حلول إبراهيم باشا بها ثم أمر إبراهيم باشا بزرع كثير من شجر التوت اللازم لإزدياد محصول الحرير، فغرس نحو مائة ألف شجرة، وغرس في ضواحي مدينة أنطاكية أشجار الزيتون وتغطت جبال سوريا وهضباتها بكروم العنب لتصدير الخمر، فزهت البلاد الشامية وأينعت وعادت إلى بعض ما كانت عليه في أعصر الفنيقيين والرومانيين وتحقق الثقات أنها لو استمرت تابعة لمصر لصارت من أخصب بقاع الدنيا وأكثرها زراعة وتجارة. وفي هذه الأثناء أنعم العزيز محمد علي باشا على سليمان بك الفرنسي بلقب باشا مكافأة له على خدمته الصادقة أثناء هذه الحروب، لكن لم يستمر أمر البلاد الشامية في قبضة محمد علي باشا إذ لم يأل الباب العالي جهداً في استرجاعها إليه فأخذ يستعدّ براً وبحراً ويتروى مع الدول في الطريق

المؤدية إلى إرجاع الشام إليه، خصوصاً قسم أطنة الواقع خلف جبال (طوروس) لأن المصريين ياحتلال مضائق هذه الجبال يمكنهم الإغارة على بلاد الأناضول في أى وقت شاءوا.

عصيان أهل الشام أول مرة:

استمرت الشام على هذا التقدم إلى أوائل سنة ١٨٣٤ فأصدر محمد على باشا أوامره المشددة إلى نجله إبراهيم باشا باحتكار جميع أصناف الحرير لجانب الحكومة وبضرب جزية جديدة على كل الأهالي بدون تمييز بين الجنسية أو الديانة وبتجهيز عدة أليات من سكان البلاد الشامية، ومما زاد أهل الشام انحرافاً عن محمد على باشا أمره بترع السلاح من جميع الأهالي لأنهم من شعوب غير مؤتلفة وديانات مختلفة وعادات ليست بمتفقة ولذلك لا ينقطع الشقاق من بينهم، الأمر الذى يقضى غالباً على استعمال السلاح لاسيما وأن البلاد الشامية تحفها من جهة الشرق صحارى رملية يسكنها بعض قبائل العرب الرحل الذين لا طريق لتكسيبهم ولا سبيل لتعيشهم إلا السلب والنهب والتعدى على القرى الواقعة على حدود الصحراوات، وربما توغلوا في داخلية البلاد لهذه الغاية المشؤمة والسجية المذمومة، فلذلك صارت الأسلحة النارية وغيرها من ضروريات السكان ولوازمهم للدفاع عن أنفسهم والذود عن أولادهم والذب عن أموالهم، فالزامهم بعدم حمل السلاح بمثابة جعلهم هدفاً لسهام تعدى الغير عليهم وهم عزل ولم يدر بخلداهم أنه بحسن إدارة إبراهيم باشا وسهره على راحة الأهالي، صار لم يخش من هؤلاء العرب على تكدير كأس الراحة العمومية وأن إبراهيم باشا لما عرف به من الشجاعة وحسن السياسة كان كفواً للذود والدفاع عنهم وإذا تقرر ذلك فقد صار حمل السلاح مضرراً بالهيئة لعدم الإحتياج إليه للدفاع عن المال والنفس واستعماله حينئذ لا يكون إلا فى المخاصمات الخصوصية بين أفراد الطوائف المختلفة، ولما كان لواء الأمن منشوراً والعدل منشوراً صار أمر نزع السلاح ضرورياً لإستباب الأمن وتوطيد أركانه بين هذه الأمم مختلفى الديانات والمذاهب والأجناس والعقائد،

لكن اتخذ المفسدون هذا الأمر ذريعة لإلقاء المفاصد بين الأهالي وتوغير صدورهم من الإدارة المصرية التي لم يروا في باقي الولايات مثلها في الانتظام والعدل بسين الرعية وأفهموهم أن محمد علي باشا لم يأمر بهذا الأمر إلا ليستعبدهم ويغتصب أملاكهم وأموالهم بعد تجريدهم من السلاح.

فلما وصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم باشا وكان إذ ذاك في مدينة (يافا) لم يتردد في نشرها بين القبائل وفي سائر البلاد مشدداً في تنفيذها بدون إمهال ولا توان، متوعداً من يبدى أدنى معارضة بصارم العقاب وشديد الجزاء فتأثر لذلك كل الأهالي ما بين صغير وكبير وشريف وحقير وأخذوا في التعصب ولما لم يجدوا ثمرة لتعصبهم ورأوا أنه لا بد من نزع السلاح من أيديهم طوعاً أو كرهاً عزموا على الإمتناع وشق عصا الطاعة وساعدتهم على ذلك أرباب الغايات وأطمعوهم في المساعدة مادياً وأدياً إذا اقتضاها الحال فصغوا لوسوسة هؤلاء الشياطين وغواية الغاوين.

وابتدأت الثورة بجوار البحر الميت (بحيرة لوط) وعلى شواطئ بحر الأردن بجوار مدينة أورشليم^(١) (بيت المقدس) وأعلن قبائل هذه الجهات أنهم لم يدعنوا ولم يمثلوا قط لأوامر الباب العالي فكيف يتبعون أوامر والى مصر الذى هو تابع له، وأنهم يريدون المحافظة على استقلالهم ولو كان في ذلك هلاكهم عن آخرهم وكان ذلك في شهر إبريل سنة ١٨٣٤.

فلما وصل إلى إبراهيم باشا خبر عصيانهم قام لوقته مستصحباً معه فرقة من جيشه وسار قاصداً وادى الأردن لمعاقبة العاصين وجدة في سيره حتى وصل مدينة أورشليم قبل أن يبلغهم خبر قيامه من (يافا) فاستدعى إليه أعيان القوم وأكابرهم فمثلوا بين يديه وسألهم عن سبب توقفهم في الإمتثال لأوامر البوالى وهل هم مصرّون على التمادى في العصيان فأجابوه بأنهم غير معارضين في

(١) قال ياقوت في معجمه أورشليم بالضم ثم السكون وكسر الراء وباء ساكنة وشين معجمة مكسورة ويروى بالفتح وميم وهو اسم لبيت المقدس بالعبرانية ويروى لورشليم ولورشليم أى بتشديد اللام المفتوحة.

احتكار الحرير لكنهم معارضون كل المعارضة في أخذ شبانهم إلى العسكرية وأهم مستعدون لدفع الضريبة ولو ضعفين ولإرسال بعض أولاد المشايخ بصفة رهينة تأميناً على طاعتهم بشرط إعفاء شبانهم من العسكرية أما نزع السلاح فلم يذعنوا له مطلقاً.

فلم يقبل ذلك منهم إبراهيم باشا، بل أخبرهم أنه لا بد من تنفيذ أوامر والده بدون تغيير أو تبديل، فلما رأوا أن لا مناص استأذنوا في العود إلى المدينة وعرض ما تم بينه وبينهم من الحديث على الأهالي، وأوروه أنهم في حدة ذاهم مدعنون لأوامره وسيبذلون جهدهم في إقناع القوم بالإمثال لكنهم يرجون منه لو خاب مسعاهم ولم يقبل الأهالي هذه الطلبات أن لا يؤاخذهم ولا ينسب ذلك إلى سوء نيتهم وفساد طويتهم، فأذن لهم بالذهاب مظهراً اعتقاده بحسن نيتهم، وكان يريد بإظهار البشاشة لهم وعدم الشدة عليهم التخلص من الحرب فراراً من عدو هو أنكى وأشدّ بطشاً من عصيان الأهالي، ألا وهو الهواء الأصفر الجالب للموت الأحمر، الذي أتى مع الحجاج عند عودتهم من تأدية الفريضة وفشا بأوريشلم وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً حتى خيف امتداده وتعدّيه إلى خارجها فقفل إبراهيم باشا راجعاً إلى (يافا) ومكث ينتظر جواب أهالي المدينة، ولم يظهر البواء في مدينة (يافا) ذلك الوقت.

ولقد كان لمحجى إبراهيم باشا أمام مدينة القدس تأثير حسن، فألقى الرعب في قلوب القبائل المجاورة وهدأ الأهل وعادت السكينة كما كانت لكن هذا الهدوء لم يكن إلا ظاهراً لأن إدخال شبان البلاد في الخدمة العسكرية وزيادة الضرائب مما أوغر صدور السكان على الإدارة المصرية فلم يكن سكونهم إلا انتظاراً لفرصة مناسبة يشقون فيها عصا الطاعة.

ولقد ساعدتهم الحظ فلم يمض عليهم طويل زمن حتى سنحت لهم تلك الفرصة المنتظرة وذلك أنه شاع أن الدولة العلية تجمع الجيوش وتؤلف الكتائب في بلاد آسيا الصغرى وأن رشيد باشا الذي كان قائداً للجيوش التركية في

واقعة (قونية) وأسر فيها، كما سبق لنا ذكره في محله، ولى قيادة هذا الجيش الجديد ليعوّض ما فقدته من شهرته في تلك الواقعة فلما شاع ذلك الخبر وعلم به العرب النازلون على ضفاف البحر الميت نزعوا إلى العصيان وامتدت تلك الثورة بسرعة عجيبة إلى جبال يهوذا حتى تفاقم الخطب وتعسر الخلاص لولا ما اتصف به إبراهيم باشا وقائده سليمان باشا من العزم في الخطوب والحزم في الكروب.

عصيان الشيخ قاسم وأبي غوش:

وكان من المحرضين على هذه الثورة الشيخ قاسم حاكم مدينة (نابلُس) وهو من عائلته شريفة شهيرة بقدمها وعراقتها في النسب، ومن مآثر المرحوم إبراهيم باشا أنه بذل له ولأولاده جزيل نعمه وولى أكبرهم مدينة (حبرون) ليستميل إليه هذه العائلة المسموعة الكلمة في سائر أكناف المدينة وضواحيها، لكن هذا الشيخ أنكر الجميل وكان أوّل مناد بالعصيان وأوّل محرّض على الثورة فلبى نداءه سكان الجبال المجاورة الذين لا يودّون أن يكونوا تابعين لأى حاكم ولو كان أعَدل الحكام وكذلك عائلة من يسمى (أباغوش) النازلة في الأودية الواقعة بين أُورُيشلَم ويافا فإنها رفعت راية العصيان وقطعت الطريق بين المدينتين ياحتلّانها كل مسالك الجبال ومضايقتها، لكن ربما يلتمس لهذه العائلة عذر لأنها لم تجد ما وجده الشيخ قاسم وأولاده من إبراهيم باشا من حسن المعاملة وإسْدال النعم والعطايا الجمّة فضلاً عن الحجر على رئيسها بمدينة عكا لما اقترفه من سوء معاملة الحجاج وعدم السماح لهم بالمرور من أرضه ما لم يعطوه جعلاً معلوماً مع تنبيه إبراهيم باشا عليه بإبطال هذه العادة فهاجمت عائلة (أبي غوش) وأعوانها النقط المصرية المعينة لحفظ الطريق من قطاع الطرق. ولما كانت حامية هذه النقط غير كافية لمنع تعدى مثل هؤلاء الطغاة قفلت راجعة إلى مدينة يافا بعد أن دافعت دفاع الأبطال وقاومت مقاومة الأسود في الجبال وكذلك حامية أُورُيشلَم لما لم تستطع إيقاف حركة العصيان ولا إطفاء لهبها المستعر تركت خطة الهجوم وتحصنت في قلعة المدينة حتى يأتيها المدد.

فلما بلغ إبراهيم باشا هذه الأخبار المكثرة للبال المهيجة للبلبال المزعجة لأبطال الرجال أرسل في الحال ألياً من الفرسان لكج جهاج الشائرين لكنه لم يقدر على مقاومة قبيلة (أبي غوش) المحتلة للطريق الموصلة بين (يافا) و(أوريشلم) فبعد أن قتل في القتال قائد هذه الفرقة والسواد الأعظم من رجالها عاد الباقون إلى يافا في حالة لو شاهدها العدو لرثى لها.

فلما رأى ذلك إبراهيم باشا هم في الحال وتوجه بنفسه ومعه العدد الكافي من الجند لمنع تجمع الشائرين في مدينة (نابلس) حيث استدعاهم الشيخ قاسم للإجتماع للمفاوضة في تدبير ما يلزم لنجاح مشروعهم وأرسل أيضاً إلى مشايخ القبائل يخبرهم بأن الشيخ قاسم لم يقصد التخلص من الإدارة المصرية العادلة إلا ليستعبدهم ويسومهم سوء العذاب.

فلما عرف حاله لبعض القبائل المصافية له، نفروا منه وتضعضت بذلك شوكة وزالت سطوته وانهدمت قوته وأمكن لإبراهيم باشا وسليمان باشا اتخاذ خطة الهجوم فقاما من يافا في ٤ يوليو سنة ١٨٣٤ ومعهما ستة آلاف جندي واقتربا من الجبال فرأياها مغطاة بالعرب ثم وصلا إلى قرية تدعى قرية (أبي عنب) حيث كانت عائلة (أبي غوش) متحصنة تحصناً عظيماً كاد يتعذر معه أخذها بل يستحيل ولكن لم يعبأ إبراهيم باشا بهذه التحصينات بل هاجمها بعسكره بكل شدة وثبات واستمر القتال ثلاثة أيام متوالية دافع من خلالها الثائرون دفاع الأبطال ولولا ما اشتهر به إبراهيم باشا من الحزم والعزم والثبات في مواقع القتال لفاز الثائرون بالغلبة. وفي اليوم الثالث دخل المصريون القرية واجتازوا جبال يهوذا واحتلوا كل الطرق ووصلوا إلى مدينة أوريشلم^(١) بدون أن يتعرض لهم أحد في طريقهم لتبدد شمل الثائرين بعد سقوط قرية (أبي عنب) التي كانت قلعتهم الوحيدة ومانعتهم الحصينة.

(١) يبلغ عدد سكان هذه المدينة عشرين ألفاً وتنقسم إلى أربعة أقسام تختلف بالجنسية والطباع والعقائد وكرامة بعضهم بعضاً يسكن في جهتي الشرق والشمال الأتراك وفي الجنوب اليهود وفي الغرب اليونان والأرمن.

وحين وصل المصريون إلى أبواب المدينة وقع الرعب في قلوب سكاتها الأتراك لأنهم كانوا يساعدون الثائرين على محاربة المصريين لما انتشر خبر تجمع العساكر العثمانيين في جهات الأناضول ولعلمهم بأنه لا بد من انتقام إبراهيم باشا منهم ومحاربته لهم ليكونوا عبرة لغيرهم ولكي لا يعودوا إلى الثورة مطلقاً سراً أو جهراً، التجأ كثير منهم إلى الفرار هرباً مما سيترتب ياخواتهم من العذاب الشديد نعم إن إبراهيم باشا كان يسعى بجهده في استعمال الطرق السلمية ويعفو عن كثير ممن كان يقاومه، لكنه ليس في مثل هذه الحالة فإن استعمال الحلم في هذه الأحوال مما يجري المفسدين على نشر فسادهم ويعين الطغاة على طغيانهم.

ولقد تحقق ما كان يخشاه أتراك (أوريشلم) فقتل إبراهيم باشا كثيراً من زعمائهم هذا ولم يكن لإستيلاء إبراهيم باشا على مدينة (أوريشلم) فائدة تذكر لموت كثير من عساكره من كثرة المناوشات التي كانت دائمة بينه وبين العرب، ولعدم وجود العدد الكافي من الجند في هذه البلاد حتى كان يستمد منهم ما يلزم لتعزيز حامية المدينة وحفظ خط الرجعة إلى يافا ومضايق الجبال والطرق الموصلة بين المدينة وغيرها فأخذ في التحصن بالمدينة كي لا يهلك كثير من جيشه في المناوشات، وأرسل إلى مصر يطلب منها المدد حتى إذا وصله تمكن من مهاجمة العدو وتبديدهم في واقعة مهمة لا يقوم لهم بعدها قائمة.

وفي خلال ذلك لم يأل جهداً في إيقاع النفرة بين رؤس الثورة وتحريض بعضهم على بعض كي يتوصل إلى مرغوبه ويتحصل على مأموله إذا وقع بينهم الفشل فنجح في مشروعه هذا كل النجاح، حتى أن الشيخ قاسم حاكم (نابلس) لما رأى أن أغلب مشايخ القبائل أوشكت تنسلخ عنه أراد التقرب من إبراهيم باشا وأرسل إليه يخبره أن النابلسيين يرغبون في الرجوع إلى طاعة المصريين لو وعدوهم بمعافاتهم من الخدمة العسكرية فقبل إبراهيم باشا المخابرة في هذا الموضوع لو حضر الشيخ بنفسه إلى معسكره فحضر الشيخ طائعاً

مختاراً، لكن لسوء حظه لم ينجح في هذه المخابرات لأن سليمان باشا كان في أثنائها قد تمكن من إبرام وفاق مع أولاد الشيخ (أبي غوش) بأن يسلموا إليه معاقل جبال يهوذا في مقابل إطلاق سراح أبيهم والعفو عما حصل منه ومن قبيلته ومكافأهم مادياً على المساعدات التي قدموها إلى المصريين فقبلوا ذلك وصار الطريق آمناً بين يافا وأوريشلم.

سفر محمد علي باشا إلى الشام:

ولما علم إبراهيم باشا بسفر أبيه أغلق باب المخابرات بعدم قبوله إعفاء سكان نابلس من الخدمة العسكرية وعاد إلى يافا في أواخر يوليو سنة ١٨٣٤ لملاقاة والده محمد علي باشا الذي كان توجه إلى الشام مع المدد اللازم لإخماد الثورة قبل انتشارها.

فلما يئس الشيخ قاسم من الاتفاق مع المصريين عاد إلى نابلس وأخذ في تحصين المدينة وبناء الأسوار والقلاع حولها وعاهد نفسه أن لا يسلم المصريين ما دام حياً بل يحاربهم حتى يقضى الله أمراً، فاستعد محمد علي باشا بنفسه لمحاربه وأرسل إلى الأمير بشير أمير الدروز أن يحضر إلى (يافا) ويرسل جيوشه لمحاربة الشيخ قاسم فخاف الأمير بشير ولم يتوجه بنفسه إلى (يافا) بل أرسل أحد أولاده ليخبر محمد علي باشا بأن الدروز سيسافرون عن قريب لمهاجمة نابلس فاكفى محمد علي باشا بهذا الجواب وأمره بإخضاع مدينة (صفد) التي أخذ سكانها في ارتكاب الفظائع وقطع الطرق اعتماداً على مناعة مدينتهم فامثل الأمير بشير وتوجه لساعته قاصداً (صفد) وحاصرها، لكن لم يحتج الحال لأخذها عنوة فإنه قبل أن يهاجمها أرسل إلى سكانها يتهدهدهم بإحراق مدينتهم وقتلهم عن آخرهم إن لم يسلموا له سلاحهم ويأتوا إليه خاضعين، ولتأكدهم من أن الدروز لا يتأخرون عن إنفاذ ما يتوعدونهم به، سلموا المدينة للأمير بشير وأعطوه سلاحهم فدخل المدينة واستلم زمامها وأخذ رؤس الثورة وأرسلهم إلى سجن (عكا) وبعد أن وطد الأمن في ضواحي (صفد) زحف برجله إلى مدينة

نابلس من جهة الشمال حين كان المصريون يتقدمون من جهة الجنوب فهال النابلسيين مرأى هذين الجيشين، ولكن الشيخ قاسم مع تحققة عجزه عن مقاومة المصريين، آلى على نفسه أن يقاتلهم إلى آخر رمق من حياته ومما زاد في غيظه أن إبراهيم باشا ووالده محمد على باشا أجزلا النعم على عائلة أبي غوش وأمر الباشا بإخراج رئيسها من سجن عكا وأهدى إليه هدايا فاخرة وأرجع ولده الأكبر إلى منصبه واعترف له بالرياسة على قبيلته وولى ولاية (أوريشلم) أحد أولاده الآخر بشرط أن يتكفل بمؤنه حامية المدينة وما تحتاج إليه من مأكول ومشرب وملبس.

ولشدة حنق الشيخ قاسم على المصريين لم يستطع صبراً حتى يأتي إليه عساكر الدروز بل خرج للقائهم خارجاً عن أسواره وحصونه وكان ذلك سبباً في ضعف قوته، إذ لا طاقة للمحاربين غير المنتظمين على مقاومة المنتظمين فمن المعلوم ومما أيدته التجارب أن العسكرى المنتظم يعد بعشرة من غير المنتظمين فكيف إذا كان القائدون لهم رجالاً مثل إبراهيم باشا وسليمان باشا لكن الشيخ قاسم لم يتدبر هذه الحقيقة فعاد عليه وخيم عواقبها.

وذلك أنه التقى بجيش المصريين في موقع يبعد عن (نابلس) بضع ساعات وبعد قليل لم يستطع الوقوف أمام نيران المدافع وتقهقر بعد ما قتل من رجاله نيف ومائة رجل إلى أحد التلّول المجاورة للمدينة، فتبعه المصريون ودخلوا المدينة عنوة أما هو فهرب مع من بقى من رجاله وكان مثخناً بالجراح هو وأحد أولاده فالتجأوا إلى مدينة (حبرون) حيث عزم على أن يقاتل ويدافع عن نفسه حتى يموت فاقتفى أثره إبراهيم باشا مع جيشه ولم يلبث أن وصل (حبرون) وأمر بمهاجمتها بدون أن يترك للعدوّ أدنى وقت لتحصينها وكان ذلك في ١٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ فانقض المصريون عليها كالليوث الضارية بقوة لا يقوى على مقاومتها إنس ولا جان، ودخلوها بعد قتال عنيف كانت الدائرة فيه على الشيخ قاسم ورجاله مع كونهم دافعوا دفاع الأبطال، وساعدتهم على ذلك

الأشجار المغروسة بالبساتين المحيطة بالمدينة من كل طرف مما عاق المصريين في هجومهم وكان سبباً لموت كثير منهم بين أنفار وضباط إذ كان الضباط في مقدمة الجند يشجعونهم على القتال.

اقتفاء إبراهيم باشا أثر الشيخ قاسم:

ولما دخل إبراهيم باشا المدينة عفا عن سكانها وأمنهم على أموالهم وأعراضهم لكنه أقسم باستئصال عائلة الشيخ قاسم من أولها إلى آخرها، فلما رأى الشيخ المذكور ذلك فرّ هارباً من المدينة عند دخول المصريين ولم يتمكن إبراهيم باشا من القبض عليه مع ما بذله من العناية في ذلك فخرج الباشا من المدينة لإقتفاء أثره، بعد أن ترك بها حامية قوية تحت قيادة سليمان باشا خوفاً مما عساه يحصل من الفتن فيها وبث الجواسيس في سائر أنحاء فلسطين ليقف على الخلل الذي احتمى فيه الشيخ المذكور ورجاله وبعد قليل عاد بعض الجواسيس إليه وأخبروه بأنه في قرية يقال لها (الكرك) واقعة في جنوب بحيرة لوط (البحر الميت) وهي مدينة حصينة وبها قلعة منيعة مبنية على قمة شاهقة يتعذر الوصول إليها لوعورة الطرق الموصلة إليها وبذلك يمكن لحامية قليلة أن تصد عنها كل مهاجم وترد كل عدو بعده وبعده، فلما علم إبراهيم باشا بذلك آلى على نفسه أن يأخذ الشيخ المذكور أسيراً ولو حمله ذلك على إهلاك معظم جيوشه، لأنه إن لم يفعل ذلك ظن أهل الشام أنه غير قادر على إخضاعه وربما جرّهم ذلك إلى العصيان، فكان قصد إبراهيم باشا بمحاربة الشيخ قاسم وقلته هو أن يكون ذلك مثالاً وعبرة لسكان الشام كي يعلموا علم اليقين أن كل من عادى إبراهيم باشا لا بد أن ينال جزاءه عاجلاً لا آجلاً.

فلما تيقن إبراهيم باشا وجوده في مدينة الكرك قام لوقته وجدّ في السير واصلًا لليل بالنهار في قطع الصحراء المحرقة من شدة الحرارة حتى مات جملة من عسكره في أثناء السير من شدة العطش لقلة المياه في الطرق، ويقال أنهم لما وصلوا إلى البحر الميت ألقوا أنفسهم فيه لشدة ما كان بهم من الظمأ المحرق مع

شدة ملوحة مائه، ومن الثابت أن ماء هذا البحر لكثرة ملحه يزيد ثقله النوعي حتى يحمل الإنسان بدون سباحة ولقد قال بعض السياحين أن المسافر بعد أن يتحمل مالا يوصف من المشاق والأوصاب وآلام الجوع والعطش وينظر من بعد لون مائه يخيل له الظماً أنه عذب فرات، لكن لا يلبث أن يشم رائحته الكريهة الناشئة عن كثرة ما فيه من الأملاح والكبريت فيزول عنه هذا التخيل.

ولما وصل إبراهيم باشا إلى مدينة (الكرك) لم ينتظر قدوم مدافعه بل أمر بالهجوم على القلعة بعد أن أراح عساكره مدة يومين ولم يتمكن الجند من أخذ القلعة عنوة لتعذر الوصول إليها فعاد المصريون بلا طائل والتزم إبراهيم باشا أن ينتظر المدفعين، فلما وصلت المدافع ابتدأت بإطلاق القنابل على أسوار القلعة حتى تقدمت، ودخلت العساكر القلعة فلما دخلوها لم يجدوا فيها أحداً من النابلسيين ولا رؤسهم وسبب ذلك أن الشيخ قاسم مع كونه ظهر على المصريين في الواقعة الأولى لم يخف عليه أن فوزه لم يكن إلا لعدم وجود المدافع وأنه لا يمكنه مقاومتها فهرب في غلس الليل ومن معه من بقايا تابعيه والتجأوا إلى الصحراء فتبعهم إبراهيم باشا بعسكره حتى أدركوهم وأحاطوا بهم فلما رأى النابلسيون ذلك، وعلموا أن لا مناص لهم من الموت ألقوا سلاحهم وسلموا أنفسهم إلى إبراهيم باشا.

أما الشيخ قاسم وأولاده وبقية زعماء الثورة فتمكنوا من الهرب ثانية واختفوا عند عرب (عنز) النازلين بين مصر والشام ولعلم هذه القبيلة بأنها لو أخفت الشيخ المذكور وعلم بذلك إبراهيم باشا لأوقع بهم أشد العذاب وصارم العقاب بل ربما كان ذلك سبباً في هلاك أغلب أفرادها إن لم نقل الكل فتقربوا من إبراهيم باشا بأن قبضوا على الشيخ المذكور ورفقائه وسلموهم إليه.

وبعد أن طيف بهم في أنحاء فلسطين ليكونوا عبرة لمن يعتبر أمر بقطع رؤسهم وكانوا ستة فقتل ثلاثة منهم ومن ضمنهم الشيخ قاسم في مدينة أورشليم التي كان مبدأ الثورة منها، واثنان في (عكا) والسادس في دمشق وانتهت بذلك

الفتنة الشامية الأولى وثبت قدم المصريين في البلاد الشامية ولم تنزل ملتحة بمصر تابعة لها حتى تداخلت الدول الأورباوية عقب وقعة (نصيبين) التي انتصر فيها المصريون نصراً مبيناً وألزمت محمد علي باشا برّد الشام إلى الدولة العثمانية، كما كانت وسيجي مفصلاً إن شاء الله.

ولقد لام بعض المؤرخين الأمير إبراهيم باشا على تعريض نخبة جيشه للموت من الجوع والعطش والحرارة في اقتفاء أثر الشيخ قاسم، وفاقم أنه لو تركه وشأنه لعثا في الأرض فساداً وحمل ذلك الشاميون على عجز منه وتجرؤا على اقتراف المنكرات بل ربما كان ذلك سبباً لحصول عصيان عمومي يؤدي إلى سفك دماء المصريين أكثر مما يسفك في قطع دابر مثل هذا الشيخ.

وبعد أن استتب الأمن في ربوع البلاد الشامية أخذ إبراهيم باشا في تنفيذ أوامر والده التي كانت سبباً في هذه الثورة الجزئية، فأمر أولاً بترع السلاح من السكان كلهم بدون استثناء أو تمييز بالنسبة للجنسية أو للدين فأطاع الشاميون^(١) ولو مع التذمر خشية أن يحل بهم ما حل بالشيخ قاسم من البلايا ويترل بهم ما نزل به من الرزايا وبعد ذلك أمر بتحصيل الضريبة التي ضربت على الشاميين بدون تمييز بين صغارهم وكبارهم وأمرائهم وصعاليكهم فتذمر من ذلك الفقراء والرعاة الذين كانت الدولة العلية لا تطالبهم بشئ ما، خصوصاً المسلمين منهم، فإن الضرائب كانت تضرب على النصارى واليهود لا غير، ولما كانت تلك الضريبة لا تفي بحاجات الحكومة كانت تصدر الولاية والصناجق فتسلب منهم ما جمعوه في مدة ولايتهم من النهب والإغتصاب، وبذلك كان المسلمون من السكان راضين بهذه الحالة وكرهوا الضريبة المصرية لمساواتها بين السكان بدون نظر إلى معتقدتهم نعم إنه ربما كان الأولى بالحكومة المصرية وقتئذ أن تراعى عوائد البلاد وطباع أهلها ثم تصلح كيفية ضرب الأموال وتوزيعها على الأهالي شيئاً فشيئاً، لكنه لا يجوز من جهة أخرى أن

(١) إنما عبرت في هذا الكتاب بلفظ الشاميين ولو لم يكن هناك لمة شامية لعدم تكرار أسماء الأمم والملل المختلفة الأجناس المختلفة الأديان القاطنة بأرض الشام.

الأمة المصرية تقوم بكافة مصاريف الجيش والإدارة مع ما هي عليه من الفاقة والفقر المدقع الناشئ من تسلط الممالك عليها أحقاباً متوالية بل من العدل أن كلاً من الأمتين الشامية والمصرية يشترك في مصاريف ما يلزم للحكومة كما أنهما يشتركان في التمتع بخيراتها والإستغلال بظلال الأمن الشامل للولايتين.

وعلى كل حال لم تصادف الإدارة المصرية في تحصيل هذه الضريبة من الصعوبات ما لاقته في إدخال الشاميين في الخدمة العسكرية فإنه أدخل منهم في الجيش المصري ثمانية عشر ألفاً ما بين دروز وموارنه ومسلمين وغيرهم من كل الشعوب والأجناس وهو الأمر الذي ازدادت به كراهة الشاميين للإدارة المصرية، وذلك لأن الدولة العثمانية ما كانت تدخلهم في العسكرية كرهاً بل كانت تكتفى بمن يدخل بإختياره من سكان جبل لبنان وكان يندرج منهم سنوياً في الخدمة العسكرية ألف لا غير، ومما كان سبباً في زيادة كراهة الشاميين للأمة المصرية عدم الإنتظام في أخذ الشبان كما هو جار الآن في مصر وسائر الدول المتمدنة بأن يخدم الشاب مدة معينة ثم يعود إلى أوطانه، ويكون أخذه بطريق القرعة مع المساواة بين كل الأفراد، بل كانت الطريقة المتبعة في أخذهم أن يدخل الضابط المعين لذلك في القرى ويختطف الشبان بالقوة وربما لم يتم له ذلك إلا بعد مقاومة عنيفة يكون من ورائها أحياناً قتل بعض من الفريقين ولقد ذكر أحد من كانوا في معية البرنس (دى جوانفيل) نجل "لويس فيليب" ملك فرنسا حين كان سائحاً في البلاد الشامية أثناء احتلال المصريين لها أن الحرس الذى كان معيناً لحراسته أثناء جولانه في جبال لبنان كان كلما يرى في طريقه شاباً قوى البنية صالحاً للخدمة العسكرية ضبطه وأرسله مع بعض الجند إلى أقرب ألى ليلحقه به دون أن يعلم أقاربه بذلك، ولا غرابة في مثل هذا فإن هذه الطريقة كانت متبعة في مصرنا أيام محمد على باشا ومن بعده ولم تبطل إلا من عهد قريب.

ولقوة المصريين إذ ذاك وعدم تمازجهم في المجازاة على أقل عصيان بأشد العقاب، لم يجسر الشاميون على شق عصا الطاعة بل سلموا أسلحتهم وصار يرد إلى (بيروت) و (صيدا) وغيرهما عدد عظيم من الأسلحة النارية والبيضاء بل ومن المدافع التي كان يحتوى تحت ظلها سكان جبال لبنان وكان من أهم المساعدين للمصريين في تنفيذ هذا الأمر في لبنان الأمير بشير، فإنه بذل ما في وسعه لإرضائهم خوفاً من أن يحل به ما حل بالشيخ قاسم المتقدم وأعوانه مع علمه بأن ذلك يوغر عليه صدور اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم من مسيحيين ودروز لكنه أثر إرضاء المصريين على إرضاء مواطنيه وبقي على ولائهم حتى تقلص ظل إدارتهم وسلبت منهم البلاد الشامية بواسطة تداخل الدول الأجنبية عموماً والدولة الانكليزية خصوصاً.

ولقد بذل الأمير بشير جهده في تنفيذ أوامر إبراهيم باشا وإخماد الفتن الجزئية التي تظهر في القرى لكن لم يجد اهتمامه نفعا بل ازداد الهياج شيئاً فشيئاً، وانتهز الأتراك هذه الفرصة لبث رسلهم في سائر الأنحاء وتحريض الجبلين على القتال وخلع طاعة المصريين، الذين تمتعوا في مدة حكمهم بالراحة والطمأنينة مما لم يروا ولن يروا مثله ومما قوى نفورهم من الإدارة المصرية وعد رسل الدولة إيأاهم بمعافاتهم من الضرائب والخدمة العسكرية ومنحهم الإستقلال الإداري فاغتروا بهذا ونزعوا إلى العصيان، ومن الغريب أنهم لما هموا بالعصيان ظهر أنهم لم يسلموا من سلاحهم إلا القديم العادم النفع وأخفوا الصالح الجيد ليستعملوه ضد المصريين الذين لا ذنب لهم سوى أنهم منعوهم عن قطع الطرق ونهب أموال ساكني الأودية والسهول، الذين لا قدرة لهم على الدفاع واقتفاء أثرهم لإلتجائهم إلى جباهم الشاغرة الصعب الوصول إليها لعدم وجود الطرق، ولقد تنبه إلى هذا الأمر إبراهيم باشا وعلم أنه لا يمكنه إدخال هؤلاء الجبلين في طاعته إلا إذا فتح الطرق السهلة لمرور الخيالة والمدافع ولذلك أمر المهندسين بإنشاء ما يلزم من الطرق المتسعة المنتظمة على حسب الأصول الهندسية مع

مراعاة تخفيف الميل كى يسهل جرّ المدافع الضخمة عليها وتوجيهها إلى حيث يلتجئ العدو.

ولكى لا تصل الأسلحة والبارود الذى كان يرسل إلى الثائرين مدداً لهم، أمر إبراهيم باشا أيضاً بمنع دخول السفن التركية إلى ميناء الشام وعدم ورود القوافل من جهات الأناضول فساء ذلك الأتراك وسبب ضرراً عظيماً للتجارة لكن إبراهيم باشا رأى المصلحة في ذلك وآثر أخف الضررين وأهون الكربين.

ثم استدعى سليمان باشا من (حبرون) وكلفه بتمرين من يرد من مصر من العساكر ويارسال الشاميين الذين أدخلوا في العسكرية إلى مصر إذ كان محمد على باشا يرسلهم إلى مصر العليا أو إلى السودان بصفة محافظين خوفاً من أن يحصل منهم ما يضر بإخماد الثورة لو بقوا في بلادهم ولا يخفى ما في ذلك من الحكمة والتبصر في عواقب الأمور.

هذا ولما رأى محمد على باشا أن المدارس التى أنفق عليها المال الكثير لحسن تربيها وليتعلم فيها جيل جديد من المصريين يشب على الأفكار الحديثة ويكونوا عوناً له ولخلفائه من بعده في بث التمدن في القطر المصرى قد أخذت في الانحلال بسبب سفر أغلب الأساتذة الأورباويين، طاعة لطلب الساعين في عدم تقدم مصر الذين لا يريدون إلا أن تكون ملقاة في بحار الجهل ظناً منهم أن لا يقوم أحد من المصريين مقامهم في ذلك، استدعى سليمان باشا من الديار الشامية وكلفه بملاحظة شئون المدارس وكل ما يكون سبباً في ترقىها إلى أوج التقدم حتى تأتى بالغاية المقصودة فلبى دعوته وعاد إلى مصر وأخذ في ترتيب المدارس على أحسن نظام خصوصاً المدارس الحربية والبحرية ولم يعقه في طريقه معارضة الجهلة من حاشية الوالى، لمساعدة الوالى نفسه له.

وحين كان يشتغل سليمان باشا في القاهرة بمثل هذه الأشغال السلمية كان رشيد باشا القائد العثماني الذى أخذ أسيراً في واقعة (قونية) كما تقدم مشتغلاً

بجمع الجيوش والكتائب في بلدة (سيواس) بارمينية ليحارب المصريين ويقهرهم كي ينمحي ما لحقه من العار والخزي والبوار في واقعة (قونية) ثم تقدم بتلك الجيوش إلى مضائق جبال (طوروس) منتظراً للفرصة المناسبة للإنقضاض على البلاد الشامية واختطافها من قبضة الحكومة المصرية ولا يخفى ما للموقع الذي نزل به من الأهمية العسكرية والحربية لأنها نقطة ملتقى الطريق للآخذ من جبال (طوروس) إلى وادي الدجلة والفرات، فضلاً عن نقاوة وصفاء هواء هذه الجهة المرتفعة وكثرة وجود الماء العذب بما مما يكون الجيش بسببه آمناً من الأمراض المعدية التي كثيراً ما تنشأ في الجيوش المتجمعة لما يتخلف عنهم من الأقدار والوخامة ولم يكن القصد من جمع هذا الجيش الجرار إلا تشجيع أهل الشام على العصيان للتخلص من عدل الحكومة المصرية والعود إلى الإستبداد.

ولما فطن الشاميون إلى هذه الغاية ازدادوا عتواً وكادوا ينشرون لواء العصيان جهاراً فلما علم إبراهيم باشا بذلك أخذ الإحتياطات اللازمة لصدّهم لو أرادوا الهجوم عليه ولمهاجمتهم إذا اقتضى الحال ذلك، فأرسل حامية قوية إلى مدينة الرقة الواقعة على شاطئ الفرات لمنع مرور العثمانيين لو أرادوا عبوره وكذلك أرسل العدد الكافي من الجند إلى جهات (أورفه) و(حلب) و(أنطاكية) وفرّق ما بقي من جيشه بهيئة سيارات صغيرة تطوف في كل أنحاء البلاد لمجازاة القرى التي تتأخر في تأدية الخراج، أو تعارض الحكومة في إجراءاتها وبذلك خمدت الثورات الداخلية الصغيرة وعلم الكل أن ما هم فيه من شق العصا والانحراف عن الحكومة المصرية غرور وأن الأوفق موالاها ما لم تسع الدولة العلية بالفعل في مساعدتهم مادياً وجعل إبراهيم باشا مركزه وأركان حربه في مدينة أنطاكية^(١) مفضلاً لها عن مدينة حلب لرداءة هوائها وقلة مياهها وتعرضها دائماً إلى الأوبئة والأمراض المعدية.

(١) مدينة بتركية لسيا تبعد عن حلب بمائة كيلومتر وعن البحر المتوسط بثلاثين كيلومتراً كانت في أيام الرومانيين أحسن مدينة بالشرق وبلغ عدد سكانها في عهدهم سبعمئة ألف شخص ثم فتحها العرب في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وتنازعها المسيحيون والمسلمون أيام الحروب الصليبية التي انتهت بانتصار الإسلام وبقيت مدة تابعة لمصر مع بلاد الشام إلى أن فتحها السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٦.

ولتمهيد ما سيأتى ذكره من الحوادث السياسية التى أوجبت تدخّل الأوروبيين فى المسألة المصرية ضد محمد على باشا منعاً لوقوع أهم الولايات العثمانية فى قبضته وبالتالى من عدم تمكنهم منها فى المستقبل نقول:

إن حكومة فرنسا كانت فى ذلك العهد حكومة ملكية مقيدة تقييداً كلياً وكان يكفلها إذ ذاك (لويس فيليب) الذى ارتقى على أريكة الملك عقب هياج الأمة على (شارل) العاشر وعزلها له وطردها إياه فى أواخر شهر يوليو سنة ١٨٣٠ لأنه كان شديد الميل كثير الرغبة إلى الإستبداد والحكم بدون مشورة الأمة أى الرجوع إلى ما كانت عليه فرنسا قبل الثورة العظمى وضياح كل ما حصل عليه الفرنسيون من الحرية بعد سفك دمائهم فى محاربة سائر ملوك أوربا، ولما ولى (لويس فيليب) أجاب إلى كل ما طلبته منه الأمة من كونه يكون ملكاً مالكاً لا حاكماً وأما الأحكام فتكون بيد الوزراء وأعضاء مجالس النواب ولما لم يكن لمعظم الفرنسيين ما يلزم لمثل هذه المهمة من الحنكة والتجارب ولو أنه كان منهم فى ذلك الحين رجال سياسيون محنكون مثل (تيرس) وجيزو^(١) وغيرهما إلا أنهم كانوا ملزمين بإتباع ما يقرره أعضاء مجالس النواب حتى فى الأمور السياسية التى يلزم كتمانها، ولذلك كانت فرنسا حينئذ بمعزل عن جميع الدول الأوروبية ما عدا انكلترا، فإنها كانت تظهر لها التودد لمصالحها التجارية فضلاً عن ميل الفرنسيين لمساعدة كل أمة تسعى للحصول على الحرية والإستقلال وهذه الحاسيات^(٢) لا تدم على كل حال بل تمدح فى حد ذاتها.

(١) ولد المسيو جيزو سنة ١٧٨٧ واشتهر من حداثة سنه بالتضلع فى فن التاريخ وله فيه مؤلفات كثيرة أهمها تاريخ التمدن فى فرنسا وأوروبا وتاريخ الثورة الإنكليزية (١٦٨٨) ودخل الوزارة فى عهد الملك لويس فيليب بصفة ناظر للمعارف العمومية ثم تعين سفيراً لفرنسا لدى حكومة انكلترا ولم يمكنه أثناء سفارته منع انكلترا من الإتحاد مع الدول على محمد على باشا فى يوليو سنة ١٨٤٠ ثم تعين وزيراً للخارجية فى أكتوبر من هذه السنة واستمر فى هذه الوظيفة إلى فبراير سنة ١٨٤٨ حيث طرد الملك ونودى بالجمهورية بفرنسا فسافر جيزو إلى انكلترا واستمر فى تأليفه حتى توفى فى سبتمبر سنة ١٨٧٤.

(٢) هكذا فى الأصل المحرر.

ولم يكن محمد علي باشا مساعد من الدول الأوروبية إلا فرنسا التي تبذل جهدها دائماً مع كل أمة تحارب وتناضل للحصول على الإستقلال فلولا مساعدتها لما كانت مملكة اليونان كما سبق لنا بيان ذلك، ولم تكن مملكة البلجيك ولا إيطاليا المعدودة الآن من الدول العظمى وهي التي ساعدت الولايات المتحدة الأمريكية على التخلص من ربة الحكومة الإنكليزية إلى غير ذلك مما لا يحصى من مساعدة الشعوب المضطهدة التي حاربت لأجل استقلالها ولم تنجح.

ولما رأى محمد علي باشا أنه لا يمكنها مساعدته ما دامت الدول الأخرى معارضة لها لاسيما وأن القابضين والمستولين على أزمة الأحكام في هذه الدول هم أشهر رجال هذا العصر فكان اللورد (بالمرستون)^(١) وزير خارجية انكلترا والكونت (دي نسلرود) وزيراً للروسية والمسيو دي مترنيخ^(٢) الشهير وزيراً للنمسا على حين كانت وزارات فرنسا تتابع وتسقط دون أن يكون لها خطة سياسية تجرى عليها فاتح وكلاء الدول بمصر في شأن مشروعه لكنه أظهره بطريقة أخرى مآلها إبرام تحالف على منع من يريد من الدول التعدي والطمع فيما بيد غيره وأن يقدم جيوشه وبحريته إذا اقتضى الحال لنجاح هذا التحالف ويطلب في مقابلة ذلك أن يستقل بمصر والشام وبلاد العرب وأن تكون هذه الأقطار له ولورثته مؤبدة.

(١) ولد سنة ١٧٨٤ وتعلم بكلية كمبردج ودخل مجلس العموم وجلس مع المحافظين ثم انضم إلى الأحرار سنة ١٨٢٠ تقريباً ثم ترقى إلى أن صار وزير الخارجية انكلترا من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٤١ ومن سنة ١٨٤٦ إلى سنة ١٨٥١ ومن سنة ١٨٥٥ إلى سنة ٥٨ ومن ٥٩ إلى ٦٥ تبعاً لتعاقب الأحزاب على منصة الأحكام وتوفي سنة ١٨٦٥ واشتهر مدة وزارته الأولى بمعاكسة محمد علي باشا وبالتالي بمعادته للروسيا وإثارة حرب القرم عليها.

(٢) ولد البرنس دي مترنيخ سنة ١٧٧٢ بمدينة كوبلنس من أعمال ألمانيا ودخل من صغره في الوظائف السياسية فتقدم تدريجاً إلى أن عين سنة ١٨٠٩ وزيراً لولا لخارجية النمسا واستمر فيها إلى سنة ١٨٤٨ وتوفي سنة ١٨٥٩ واشتهر بمضادته دائماً للحركات الثورية وبمعاكسته لفرنسا وإرجاع أوروبا إلى الملكية المطلقة.

فأدهش هذا المشروع وكلاء الدول ولم يردّوا عليه جواباً بل استمهلوه حتى يخاطبوا الدول التي هم تابعون لها وبعد قليل أجابوه بنهيه عن التعلق بأهداب هذا المشروع.

هذا ولما علم الباب العالي بما جرى بين والي مصر والدول وكيف قابلت الدول مشروعه وتحقق أنها لا تعارضه في إرجاع مصر تحت سلطته كما كانت بل ربما ساعدته على ذلك، أخذ في توجيه أفكاره نحو جبل لبنان ليتسنى له الدخول في مسألتهم وأرسل عدداً عظيماً من الجند إلى معسكر (سيواس) لكن لم ترد فرنسا ذلك بل طلبت من الباب العالي أن يرسل إلى مصر أحد من يعتمد عليهم للمخاطبة مع وإليها في طريقة فيها رضا الطرفين، وذلك أولى من استعمال القوة لأول وهلة فإنه أمر لا يكون وراءه إلا إثارة نار الحرب وسفك دماء العباد بدون فائدة ولا عائدة، فرضى الباب العالي بذلك وأرسل أحد مستخدمي خارجيته المدعو (ساريم بك) إلى والي مصر لهذه الغاية فقابلته بكل بشاشة وإيناس وأظهر له خضوعه إلى الدولة العثمانية وأخبره بأنه لم يكن في عزمه الإتيان بأي أمر يكون بسببه تغيير الحالة الحاضرة، فسرّ من ذلك مندوب الدولة العلية ورغب منه أن يتوجه معه إلى دار الخلافة ليتفق بنفسه مع جلالة السلطان محمود خان^(١) على ما يكون عليه السير في المستقبل فلم يقبل منه ذلك البتة لعلمه أن في سفره إلى اسلامبول ما يكره، فعرض عليه حينئذ (ساريم بك) أن يعطى ولايتي مصر والعرب وتكونا له ولذريته إلى ما شاء الله وبلاد الشام أيضاً إلى جبال (طوروس) مدة حياته وأن يدفع للدولة خراجاً سنوياً

(١) هو السلطان محمود الثاني ولد سنة ١٧٨٥ ولاء رئيس الإنكشارية المدعو (مصطفى بيرقدار) بعد عزل وقتل السلطان مصطفى الرابع سنة ١٨٠٨ حارب الروسية وتنازل لها عن إقليم (بسارابيا) بمقتضى معاهدة بوخارست سنة ١٨١٢ واستقل الضرب والإفلاق والبغدان (رومانيا) في أيامه وأذعن أيضاً لإستقلال جزائر اليونان سنة ١٨١٩ ثم في سنة ١٨٢٨ تسلمت بلاد مورة وما جاورها عن الدولة العلية بعد حرب استمرت ثمان سنوات وتشكلت بهيئة حكومة ملكية مستقلة تحت حماية الدول وحارب الروسية ثانياً مرة فانهزم ولمضى معاهدة لندن سنة ١٨٢٩ - ومن سنة ١٨١٩ إلى سنة ١٨٢٢ ثار عليه على باشا والي باتينا فقتله وفي سنة ١٨٢١ أخذ منه محمد علي باشا بلاد الشام فأبرم مع الروسية معاهدة انكاراسكله سى وأباح لها حق إنزال عسكريتها بأرضه لحمايته ثم هزم المصريون جنده في واقعة نصيبين سنة ١٨٢٩ وتوفي بعد ذلك بأيام قاتل ومن مآثره أنه أبطل جيش الإنكشارية سن ١٨٢٦ وقتل أغلبهم وسعى في إصلاح دخليته وهو أول من استبدل العمامة والملابس التركية بالطربوش الرومي والملابس الأوروبية.

يكون للسلطان حق تقديره، فقبل ذلك منه وكان ذلك في أوائل سنة ١٨٣٧ وتم الإتفاق بينهما على ذلك وعاد المندوب إلى الدولة بهذا الوفاق.

ولكن لم يقبل الباب العالي هذه الشروط كلها بل تراءى له أن لا يعطيه في الشام إلا ولايتي (صيدا وطرابلس) إلى مفاز جبال (طوروس) وتكون تلك الجبال تابعة للدولة حتى يمكنها بذلك، متى سنحت لها الفرصة، أن ترسل جيوشها إلى مصر بدون أن يكون لها في الطريق معارض ولا منازع فلما وصل هذا الخبر إلى محمد علي باشا علم أن لا سبيل إلى الإتفاق بالطرق السلمية، وأنه لا بد من الحرب عاجلاً أو آجلاً فأعلن لقناصل الدول أنه لا يقبل هذه الشروط وأنه عازم على المحافظة على كل ما فتحه بكل ما في وسعه وأن لا يسلم شبراً من الأرض التي احتلها إلى الدولة العلية طائعاً وأنه لا يترك مملكته عرضة لإغارات العساكر العثمانية بنسليمهم مضايق جبال (طوروس)، التي لم يستول عليها إلا بشق الأنفس وبذل الأرواح وإضاعة الأموال وأنه لو تنازل عن ذلك لعدّ ندلاً جباناً لا يصلح أن يكون حاكماً.

ثم أخذ في الاستعداد للقتال وأرسل كمية عظيمة من الأسلحة والمدافع إلى جهات الشام ليظهر للباب العالي عزمه على المدافعة عن جميع ما فتحه من البلاد وأنه لا يروعه تهديد ولا وعيد وأعلن لقناصل الدول أنه سينادي باستقلاله هو وورثته بالبلاد التي احتلها الآن، وأنه على أي حال لن يدفع للدولة العلية شيئاً قط من الخراج فارتجت لهذا الخبر وزارات أوروبا على الخصوص الوزارة الإنكليزية وأيقنوا أنه لا بد من فتح باب المسألة الشرقية إن لم يُتدارك هذا الأمر قبل تفاقمه وأن الأولى تلافى تلك المسألة التي ربما تكون نتيجتها إثارة نار الوغى بين دول أوروبا أجمع لإختلافهم في حل هذه المسألة وتباين مشاربهم فيها، فأرسلت الحكومة الإنكليزية إلى محمد علي باشا بلاغاً تخبره به أنه لو صمم وأصرّ على تنفيذ مشروعه ونشأت عن ذلك حرب بينه وبين الباب العالي

فتكون حكومة الملكة^(١) مضطرة لاستعمال القوة ضده، وتصدّه عن الباب العالى لو اقتضى الحال وأنه لا يغترّ بعدم اتفاق الدول فى المسألة الشرقية فإن ذلك لا يكون مانعاً لإدخاله فى طاعة دولته، لو رغب الخروج عنها وأيد هذا الكلام ما ورد إليه من باقى الدول من التهديدات.

سفر محمد على باشا إلى بلاد السودان:

لكن محمد على باشا لم يعبأ بكل ما ورد إليه من هذا القبيل وبينما وزراء الدول ينتظرون ما يأتى به جوابه إذ ورد عليهم نبأ سفره إلى جهات السودان للبحث عن معدن الذهب وترك حكومته كأنها لم يكن بها شئ من التهديدات، ويحكى عنه أنه قال لو وجدت الذهب فزت بالأرب ونلت المراد بدون تداخل الدول لكن هذه العبارة تحتاج إلى إثبات.

* * *

عصيان أهل الشام ثانى مرة:

لا يخفى ما فى هذه الرحلة من الأخطار على حكومته المصرية من انتهاز الشاميين فرصة غيابه للإذعان إلى الثورة وشق عصا الطاعة لا سيما وأن أعداءه من الخارج كانوا يترقبون الفرص لبث الفتنة والفساد فى بلاد الشام وكان الأمر كذلك، فإن محمد على باشا لم يجتز بلاد (دنقله) حتى ورد إلى (باغوص بك) الذى كان قد فوّض إليه إدارة البلاد فى أثناء تغيب ولى نعمته خبر عصيان سكان جبل لبنان وما به وبجواره من الأمم المختلفة بين دروز ونصيرية ومارونية وتقدم العساكر الشاهانية إلى التخوم بعلّة أنهم يريدون معاقبة بعض قبائل الكرد المشهورين بالعبث فى الأرض حتى الآن ومن الغريب أن سائر أعضاء العائلات الشريفة فى الجبل كانت محافظة على الولاء للحكومة المصرية ولم يقبل أحد منهم أن يكون رئيساً لهذه الثورة التى لم تكن ناشئة عن تدمير

(١) هي الملكة فيكتوريا ولدت سنة ١٨١٩ وتولت سنة ١٨٣٧ ولم ترل حاكمة إلى يومنا هذا. (أى إلى عام تأليف الكتاب المحرر).

الأهالي من جور أو ظلم بل سببها الوحيد إلقاء الدسائس بينهم من الخارج قصد إرجاع محمد علي باشا إلى حدود مصر أو اغتياله، وأنى لهم ذلك وهو شهم متيقظ لما يراد منه قابض على زمام الأحكام بهمة المشهورة وعزيمة المشكورة وبطشه الشديد ورأيه الشديد. ولما بلغ إبراهيم باشا، وكان لم يزل مقيماً بالبلاد الشامية بصفة حاكم أعلى، خبر هذه الثورة أصدر أوامره المشددة باقتفاء أثر الثائرين وبمجازاة من يؤخذ منهم أسيراً بأشد العذاب وأصرم العقاب، لكنه لم يلبث أن طلب المدد من مصر لشدة بأس الثائرين في هذه المرة وتسليحهم بالسلاح المتقن فطلب من باغوص بك أن يرسل إليه سليمان باشا مع ما يرسله إليه من العدد والعدد، فبذل باغوص بك جهده في كل ما أمكنه جمعه من العساكر المدربة وأرسلهم إليه ليتمكن من إخماد الثورة قبل تفاقم الخطب.

فبمجرد وصول سليمان باشا ومعه المدد إلى الشام أمكن إبراهيم باشا تحصين البلاد الواقعة على التخوم كأنطاكية وحلب وأورفه، وبعد أن وثق بمناعة تلك البلاد وعدم تمكن الأتراك من مهاجمتها بغتة عاد إلى جهة الجنوب حيث اجتمع مع سليمان باشا لإخماد الثورة التي كانت قد أخذت في الإزدياد لما سمع الثائرون أن الدولة العلية عازمة على إرسال عساكرها لمهاجمة المصريين.

فكانت جبال لبنان كشعلة نار ولم يبق فيها أحد محافظ على ولاء الحكومة المصرية فوجه إبراهيم باشا وسليمان باشا اهتمامهما إلى هذه الجبال الشامخة الوعرة المسلك الكثيرة القمم والأودية حتى قيل فيها أن كل نقطة منها تصلح أن تكون قلعة، وذلك مما جعل وصول العساكر إليها صعباً لا سيما الخيالة والمدفعيين، نعم إن إبراهيم باشا فتح عدة طرق تصلح لسير المدافع لكنها لم تكن بكافية للغاية المقصودة ومع ذلك دخل بجيشه في بطن الجبل واقتفى أثر الثائرين إلى أعالي القمم وكانوا يفرون أمامه ليجرّوه على التوغل في جبالهم، حتى إذا تركوا الطرق السهلة وتوغلوا في المسالك الصعبة الوعرة انقضوا على المصريين من أعالي الجبل ورموهم بالرصاص من أعلى إلى أسفل فكانت تصيب المصريين

مقدوفاتهم ولا تصيبهم مقدوفات المصريين^(١) ولقد نجحت هذه الحيلة مع سكان جبل لبنان كما نجحت مع غيرهم من الجبلين فانقضوا على المصريين من كل فج ورموهم بالرصاص والحجارة حتى ألجؤهم إلى القهقري وكانت هذه أول مرة تقهر فيها المصريون أمام أعدائهم وهم تحت قيادة إبراهيم باشا وسليمان باشا.

ولما تيقن الرئيسان من عدم الجدوى في الوقوف أمام عدو لا يمكنهم صدّه بل ولا رؤيته، وقتل وجرح أغلب من كان معهما من الجند واستشهد نخبة الضباط وهلكت خيول المدافع، أصدر إبراهيم باشا أمره بالرجوع لإنقاذ من بقي، أولى من تعريضهم للموت على غير طائل وقال لو مكثنا على هذه الحالة المجهولة الطريق لكنا قد ألقينا بأنفسنا إلى التهلكة وهذا أمر منهي عنه فसार إبراهيم باشا في مقدمة الجيش وكلّف رفيقه وصديقه سليمان باشا بالسير في المؤخرة لصدّ هجمات الجبلين عنهم ومعاكستهم في حال رجوعهم فقام بهذه المهمة خير قيام وأمكن العساكر المصرية بعد العناء الشديد الخروج من هذه الجبال الشائخة حتى وصلوا إلى السهل وأخذوا في حصر الموتى ومداواة الجرحى وترتيب الباقي وتنظيمهم وتحصنوا حتى يصل إليهم المدد.

وبعد أن تمت هذه الإجراءات عقد إبراهيم باشا مجلساً حرياً دعى له سليمان باشا وكافة رؤس الجيش للمداولة في أى الطرق يتخذ لتفريق شمل الجبلين وإدخالهم تحت الراية المصرية، فبعد مداولات طويلة قر قرارهم على استعمال الطريقة التي نجحت في أول ثورة ضدّ الشيخ قاسم المتقدم وأبنائه وهي إلقاء الشقاق بين الثائرين، وحيث أن هذه الثورة لم يكن سببها إلا أخذ الشبان إلى العسكرية وتجريد الأهالي من السلاح وأن بعض الجبلين، وهم المارونية، ميالون إلى فرنسا، وهي مساعدة للحكومة المصرية فيعرض عليهم سليمان باشا الفرنسي الأصل أن ترد إليهم أسلحتهم وأولادهم ويفهمهم أن فرنسا راضية

(١) هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستعملها سكان الجبال لحفظ استقلالهم في كافة الأنحاء المسمونة كما في سويسرة والجبل الأسود بلوريا وأمالى الحبشة والقبائل الفاطنة بجبال جزائر الغرب وأمالى اسكتلندا ببريطانيا العظمى.

عن أعمال المصريين في الشام ولا بد بعد ذلك من انفصالهم عن باقي الجبليين من دروز وئصيرية لما بينهم من الضغائن القديمة التي لم يتناسوها إلا لمحاربة المصريين مع بقائها في صدورهم كامنة.

وعند سماع المارونية بتساهل المصريين معهم في هذين الأمرين الأصليين عادوا إلى السكنية وفرق عليهم إبراهيم باشا كثيرا من الأسلحة والرصاص فاتحدوا معه وأتى فريق منهم إلى معسكره ليرشدوه إلى الطرق الجبلية المؤدية إلى مكامن الدروز والتي لا يعقلها إلا العالمون بها من سكان الجبال، وسلموه أهمّ النقاط التي كانت بأيديهم وتمكن المصريون بهذه الكيفية من الوصول إلى تلك المكامن فهاجموا الدروز في معاقلهم وحصونهم وكان المارونية يحاربونهم مع المصريين بعد أن كانوا ضدهم قبل ذلك بقليل، وذلك مشاهد الحصول في كل جهة لم تربط أهلها وحدة الجنسية إن لم تربطهم الوحدة الدينية فيتمكن الأجني من دخول بلادهم بدون كثير عناء فما لا ينال بالسلح ينال بالخداع "والحرب خدعة" وقد تمكن المصريون بعد عدة مناوشات، كان الفوز فيها دائما لهم، من إخضاع الدروز وإلزامهم بالطاعة وإدخالهم تحت رايتهم لكن لم يحصل المصريون على هذا الفوز العظيم إلا بعد أن قتل من جنودهم عدد عظيم وتحملوا ما لا يوصف من المصاعب ولا يطاق من المتاعب، فضلاً عن مكابدة أنواع المشاق في التسلق على هذه الجبال الوعرة التي لولا مساعدة المارونية لهم لما أمكنهم الوصول إلى معرفة مفاوزها.

واقعة نصيبين:

وفي أثناء هذه المدة توفي بمعسكر (سيواس) القائد التركي رشيد باشا الذي هزمه المصريون في واقعة (قونية) قبل أن يأخذ بثأره ويمحو ما لحقه بسبب ذلك من العار، وعهدت قيادة هذا الجيش إلى حافظ باشا أحد قواد الدولة العلية الذين امتازوا في الحروب بالثبات والرزانة والأمانة والتبصر في عواقب الأمور.

ولما انتشر في أوروبا خبر فشل الدروز وانتصار المصريين عليهم اضطربت الدول وأرسلت إلى الباب العالي تستنهض همته لمحاربة المصريين والمبادرة إلى استخلاص البلاد الشامية من أيديهم خوفاً من تقدمهم إلى بلاد الأناضول إذا استتب الأمن في بلاد الشام وهدأت الدروز وأبانت له الدول أيضاً مضار استفحال أمر محمد علي باشا وأنه يخشى من أن ينادى باستقلاله لو لم يسرع الباب العالي في جعل مصر مثل الولايات الشاهانية، فأصغى الباب العالي إلى هذه الآراء التي ربما كانت مبنية على غايات شخصية، ومال مع الدول وأوعز إلى حافظ باشا أن يتقدم إلى تخوم الشام من الجهة التي يسهل عليه الدخول منها فأسرع حافظ باشا بالتقدم إلى الأمام معللاً نفسه بالنصر على المصريين وردّ ما فقدته الدولة العلية في واقعة قونية وما قبلها.

ولما كانت مضائق (طوروس) قد حصنها المصريون بالقلاع والمدافع الضخمة على أحسن أسلوب وأتم نظام بهمة من استخدمهم عزيزهم من المهندسين الأجانب، وصار يتعذر بل يستحيل على أي جيش المرور منها، اقترب حافظ باشا من جهة ديار بكر وأورفه، حيث يمكن للمهاجم الدخول إلى البلاد التابعة للحكومة المصرية بسهولة لإتساع السهول في تلك الجهة وعدم وجود جبال يمكن تحصين مسالكها كجبال (طوروس) ولما علم إبراهيم باشا بذلك جمع معظم جنوده ومدافعه حول مدينة حلب كي يتيسر له صد المهاجم من أي جهة أتى. وأما حافظ باشا فارتكب خطأ عظيماً ظن أن فيه النصر، مع أنه كان سبب انكساره، كما سيأتي مفصلاً إن شاء الله، وهو تجزئه جيشه إلى عدة فرق ليغير على بلاد الشام ويتعدى حدودها من جملة نقط في آن واحد ولما ذاع خبر تقدم الجيشين أمام بعضهما واستعدادهما للقتال طمحت أبصار دول أوروبا إلى ما يكون وراء هذه المعركة من النتائج المهمة التي ربما انقلب بسببها التوازن الشرقي، وصارت السلطة في يد محمد علي باشا وانتقل مركز الخلافة من القسطنطينية إلى القاهرة.

هذا ولقد عاد محمد علي باشا عند ذلك من بلاد السودان بدون أن ينال الغاية المقصودة من اكتشاف معدن الذهب الذي كان يعود عليه بأرباح وافرة نعم أنه عثر على عدة معادن لكنه رأى أنها تحتاج إلى مصاريف باهظة ربما زادت عما يستخرجه منها من الذهب ولذلك عدل عن استعمالها وصرف وجهه إلى تنظيم إدارة السودان واثقاً بأنه لو اعتنى بإدارتها وتنمية ثروة أهلها ربما عادت على الحكومة المصرية بأضعاف ما تربحه من معادن الذهب.

* * *

وبمجرد عودته أهدت به قناصل الدول لمعرفة أفكاره من حيث تقدم الأتراك وما هو عازم على فعله لو هاجمته الجيوش العثمانية، فكان يجاوبهم بأجوبة مرضية لهم ومطمنة لخاطرهم وما زال يؤكد لهم أن جل بغيته حفظ السلم ليتمكن من نشر أسباب التمدن في بلاده، ولكن كان في أثناء إعطائه لهم هذه التأكيدات يرسل الجند والذخائر إلى ولده إبراهيم باشا وأوامره المشددة بأن يكون دائماً مستيقظاً ومستعداً لصدة هجمات من يتعدى عليه وبأنه لا يرد القوة بالقوة إلا إذا تعدت العساكر الشاهانية إلى تخوم الحكومتين، وبأنه لا يبدأ أصلاً بالهجوم بل يترصد في معسكره ينتظر ما يطرأ عليه من الحوادث حتى لا يكون هناك وجه لأوربا تنسبه به إلى التعدي والطمع وحب الإتساع ولا يكون لها وجه أيضاً في مساعدة الباب العالي عليه وكان ذلك في أوائل سنة ١٨٣٩.

لكن لم يغتر الباب العالي بهذه التأكيدات السلمية بل أوعز إلى حافظ باشا أن يعبر الفرات ويستعد لمحاربة المصريين عند أول إشارة ترسل إليه، فأمر حافظ باشا من يدعى إسماعيل باشا أحد القواد التابعين له وكان معسكراً في بلدة واقعة على الشاطئ الأيسر للفرات يسميها الأتراك (بلا جيك) باجتياز الفرات والانتقال إلى الشاطئ الأيمن فلما وصل هذا الخبر إلى إبراهيم باشا في يوم ٢٣ إبريل سنة ١٨٣٩، أرسل الرسل إلى والده بمصر يستفهم منه عما يفعله لو هاجمته الأتراك كما هو المظنون، وفي هذه الأثناء كان يرسل أوامره متابعه إلى

الجنود يدعوهم للاجتماع حول مدينة (حلب) خوفاً من مهاجمة الترك لهم على حين غفلة، وجمع إليه أعيان المدينة ومشاهيرها وأعلمهم بتقدم العساكر العثمانية نحو مدينتهم وطلب منهم أن يساعده، أو بالأقل أن لا يخونوه بتسهيل السبل للأتراك فأجابوه بلا تردد أنهم يحافظون على ولائه ويدافعون معه عن مدينتهم إلى آخر رمق من حياتهم فاطمأن خاطره واستراح باله وعلم أنهم معه لا عليه، ولاجل أن يتحقق من موقع العدو أرسل فرقة مؤلفة من خمسمائة من العرب الذين يعتمد على صداقتهم وإخلاصهم له، وكلفهم بأن يخبروه بحركات الجيوش التركية حتى يكون على يقين من أمرهم وما هم عليه.

هذا ولما وصل خبر تقدم الأتراك إلى محمد علي باشا أمر بجمع العساكر والذخيرة وأرسل إلى وزير حربيته المدعو أحمد المنكلي باشا لما كان يعهده فيه من الشجاعة والبسالة بأن يلحق إبراهيم باشا بالديار الشامية ليكون له عوناً وظهيراً في الحوادث المنتظرة، فلما علم قناصل الدول بكل هذه الاستعدادات خافوا من سوء العاقبة واشتعال نار الحرب بين مصر والدولة العلية لوثوقهم بانتصار المصريين على الأتراك فتوجه قنصل فرنسا إلى محمد علي باشا وطلب منه بإلحاح زائد أن يوقف سفر أحمد باشا المنكلي خوفاً من أن تعتبر الدول سفره هذا بمثابة رغبة في القتال وربما أدى ذلك إلى معاكستها له ومساعدة الباب العالي عليه، وفي آخر المحادثة قال له القنصل أن مسئولية الحرب تقع على عاتقه لو أرسل أحمد باشا المذكور لأن الباب العالي لا يؤد إلا السلم الذي هو رغبة فرنسا، فأجابه محمد علي باشا بأنه مستعد لا لعدم إرسال أحمد باشا فقط بل لإستدعاء إبراهيم باشا مع جيشه أيضاً إذا ضمنت له فرنسا أن الترك لا يتقدمون نحو تخوم الشام، ففرح بذلك قنصل فرنسا وأبرز له رسالة صادرة من الأميرال (روسان) سفير فرنسا لدى الباب العالي يخبره فيها بأن السباب العالي وعد فرنسا وعداً صريحاً بعدم الإبتداء بالحرب فنظر حينئذ محمد علي باشا إلى قنصل النمسا وكان حاضراً هذه المحادثة وقال له أيمكنك أن تضمن لي السلم باسم دولتك كما فعل قرينك؟ فأجابه قنصل النمسا بالنفي، فحينئذ قال محمد

على باشا أن الواجب على الآن أن أستعدّ للحرب لأنى متحقق من نوايا الباب العالى.

وفى اليوم التالى سافر أحمد باشا إلى حلب وكان وصوله بعد تسعة أيام وعلم القاصى والدانى بذلك وأنه لا بد من الحرب قريباً وصار الكل فى انتظار ما يترتب على هذه الحروب من النتائج، وما تفعل أوربا لو انتصر المصريون على الأتراك وأما الأتراك فإنهم جمعوا جيوشهم حول قرية صغيرة تدعى (نصيين)، وهى نقطة مشهورة فى التاريخ بحسن موقعها الحربى، حتى أنها كانت دائماً ملتقى الجيوش التى تنازعت ملك بلاد الشام من الأعصر الخالية إلى وقتنا هذا وهذه النقطة مهمة جداً لوقوعها على تلال مرتفعة يحفها من أسفلها نهر صغير يجرى من الشمال إلى الجنوب، صعب العبور لشدة جريان مائه وزيادة عمقه وهو نهر (قرسيم) وكذلك يحيط بها من جهة أخرى نهر آخر يجرى من الغرب إلى الشرق ويصب فى نهر قرسيم فيجتمعان ويجريان إلى نهر الفرات.

ولو هاجم إبراهيم باشا الجيش التركى فى أثناء عبوره لنهر الفرات حين كان منقسماً على الشاطئين لأمكنه أن ينتصر عليه بكل سهولة لولا أن حالت بينه وبين بغيته هذه أوامر والده المشددة عليه بعدم الإبتداء بالهجوم. وكانت فى أثناء هذه المدة قناصل الدول تكثر من التردد على سراى محمد على باشا بشيرا لتبليغه كل ما يرد عليهم من دولهم فكانت الدول تارة تهدده بتدخلها لو ابتداء بالحرب، وتارة تعده بأن تتوسط له عند الباب العالى ليعطى له ولايتى مصر والشام وتكونا له ولأولاده من بعده ولكثرة إلحاح القناصل عليه سافر إلى الوجه البحرى بقصد التفسح ولتسكين خاطر القناصل، وكتب إلى باغوص بيك ناظر خارجيته بالقاهرة جواباً من شبين بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٥٥ الموافق (٢ إبريل سنة ١٨٣٩) يخبره به أنه قد ورد إليه كتاب من ولده إبراهيم باشا من جهة الشام يقول فيه أن العساكر الشاهانية اجتازت الفرات عند قرية (بلاجيك) ويظهر أن وجهتها مدينة حلب، وأنه كتب إلى ولده أن لا يهاجم

الجيش التركى بل يتربص فى مكانه حتى يهاجموه فيدافع عن نفسه بقسدر الطاقة.

لكن لم يهدأ بال القناصل بل توجه الموسيو (دى ميسم) قنصل جنرال الروسية إلى دمياط ومعه رسالة وردت إليه بخط الموسيو (نسلرود) وزير الروسية الأول يهدد فيها محمد على باشا بالتدخل الحربى إن لم يصدر أمره حالاً برجوع العساكر المصرية من الشام ويعترف بتبعيته للباب العالى ويقبل كل ما تقرره الدولة بشأنه، فاغتاظ لذلك محمد على باشا لكنه كظم غيظه ووعده ببرد الجواب ثم فى يوم ١٦ مايو سنة ١٨٣٩ أرسل إلى قناصل الدول عموماً منشوراً يخبرهم فيه بأنه لو رجعت العساكر السلطانية إلى الشاطئ الأيسر من الفُرات، فهو أيضاً يأمر برجوع عساكره ورجوع إبراهيم باشا أيضاً إلى (دمشق) ولو عادت عساكر الدولة إلى ما وراء (ملطية) فهو يستدعى إبراهيم باشا إلى مصر فضلاً عن كونه مستعداً لإرجاع جزء عظيم من جيشه إلى مصر لو تعهدت الدول الأربع العظمى^(١) وقبل الباب بأن تكون مصر والشام له ولورثته إلى ما شاء الله. ولكن لم تقبل الدولة العلية ذلك بل عزمت على أن لا تسلم إلا للقوة وأرسلت إلى حافظ باشا أن يستعد لمقاتلة المصريين ومكافحتهم فأمر حافظ باشا بقطع العلاقات التجارية بين ولايات الدولة والشام وأوقف أيضاً سير القوافل فأمر بمثل ذلك إبراهيم باشا وأرسل سليمان باشا، وكان مكلفاً بالمخاطبات السياسية، منشوراً إلى قناصل الدول بحلب يخبرهم فيه أن إبراهيم باشا أمر بعدم سير القوافل إلى ولايات الدولة العلية لإبتداء حافظ باشا بمثل ذلك، وأن هذا التحريج لا يرتفع إلا إذا عادت المواصلات بأمر القائد التركى.

فاغتاظ لذلك حافظ باشا وابتدأ فى أخذ كل ما تصل إليه يده من خيول وبغال وحمير وأغنام مما يكون للجيش المصرى ثم احتل قرى عديدة حول مدينة

(١) يريد بذلك دول روسيا والنمسا وفرنسا وانكلترا

(عَيْنُ تَاب) بدون إشهار للحرب كما هي عادة الأمم المتمدنة، ثم هجم على هذه المدينة نفسها ودخلها عنوة بعد أن طرد الحامية المصرية فكتب إبراهيم باشا لوالده يعلمه بأن الأتراك تعدّوا الحدود ودخلوا البلاد التابعة للحكومة المصرية بمقتضى معاهدة (كوتاهيه) ولما لم يرد له رد الخطاب بسرعة واستبطأه قام من حلب مع جزء من جيشه وأمر سليمان باشا بأن يكون على أهبة السير لمساعدته لو دعت الضرورة للقتال. وبينما هو سائر إذ ورد عليه خبر استيلاء الترك على مدينة واقعة على الشاطئ الأيمن للفرات تدعى (تلّ باشر)^(١) بعد أن قتلوا وأسروا فريقاً من حاميتها التي كانت مؤلفة من خمسمائة من عرب الهنادى.

فلما طرق هذا الخبر أذنه جدّ في السير وأرسل إلى سليمان باشا يستدعيه للقيام بدون تأخير مع بقية الجيش ليلجئ الأتراك إلى الرجوع إلى ما وراء الحدود ويسترّد منهم ما سلبوه خيانة وغدراً ولكن بمجرد وصول العساكر المصرية إلى تلّ باشر أخلاها العثمانيون بدون قتال لما علموا وتيقنوا من ضعفهم عن مقاومة المصريين فلم يقتف إبراهيم باشا أثرهم بل اكتفى بعودهم إلى الحدود منتظراً ما يأمره به والده وكان ذلك ٣ يونيو سنة ١٨٣٩ وفى ١٥ منه ورد إليه جواب والده مؤرخاً ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٥٥ الموافق (٦ يونيو سنة ١٨٣٩) يقول له فيه حيث أن الأتراك اعتدوا عليه ولم يراعوا العهود ولا المواثيق، فلا يكتفى بإرجاعهم إلى الحدود بل يلزمه محاربتهم واهلاك جيشهم كي لا يعودوا إلى اعتدائهم.

فلما وصل إليه هذا الجواب ورأى فيه الأمر الذى كان يرغبه، أصدر أوامره إلى سليمان باشا وسائر القواد بالسير إلى الأمام لمهاجمة الأتراك فى معسكرهم بنصيبين.

(١) تلّ باشر هو موضع قرية حلب على يومين منها وفيه قلعة خرج منها علماء كثيرون منهم حسن بن على ابن ثابت اللّ باشرى، سمع الغيلانيات على الفخر بن النجارى، اهد من شارح القاموس للسيد محمد مرتضى.

وفي يوم ٢٠ يونيو سنة ١٨٣٩ تحرك الجيش بأجمعه واحتل بدون عناء كثير النقط الامامية وأخذ قليلاً من الأسرى.

وفي اليوم التالي أراد إبراهيم باشا أن يهاجم الأتراك على حين غفله، لكنه عدل عن هذا الرأي اتباعاً لمشورة سليمان باشا وقرراً رأبهما على استكشاف مواقع العدو قبل الهجوم عليه وكان الأتراك قد حصنوا نقطة نصيين حتى جعلوها أمنع المواقع الحربية في الدولة العلية وذلك بإرشاد من استخدموهم من ضباط الأمان وكان من ضمنهم البارون (دى مولتك) الذى ينسب إليه انتصار الألمان على الفرنسيين في سنة ١٨٧٠ فكان إذ ذاك في خدمة الباب العالي منوطاً بأن يكون مرافقاً لحافظ باشا بصفة أركان حرب أعنى مرشداً، فلما استحسن إبراهيم باشا مشورة سليمان باشا الذى رافقه في هذا الاستكشاف اتبعها وأخذ ألف وخمسمائة من العربان وأربعة أليات من السوارى وبطريتين من المدافع وسار بهذه القوة القليلة حتى قرب من مدافع الأتراك فأرسلوا إليهم لردهم عدداً عظيماً من العساكر غير المنتظمين (باشبوزق) وقليلاً من السوارى النظامية فناوشهم المصريون مناوشة خفيفة حتى ألجؤهم إلى الرجوع والعود إلى استحكاماتهم وتمكن سليمان باشا وإبراهيم باشا في خلال ذلك من استكشاف التحصينات المهمة التى أقيمت أمام نصيين وتبين لهما أنه يتعذران لم يكن مستحيلاً مهاجمتها من هذه الجهة مهما كانت شجاعة المصريين، ولذلك عاد الجميع إلى معسكرهم بقرب قبر مزار لينظروا أى طريق أنجح للإستيلاء على هذه النقطة المهمة التى لو وقعت في قبضة المصريين وتشتت الجيش العثماني المتحصن فيها، لم يبق بعد للترك قائمة إلا إذا تداركتهم العناية بمساعدة الدول الأوروبية لهم.

ولما انتشر خبر رجوع المصريين شمل السرور الجيش التركى وظنوا أن المصريين لا يجسرون على مهاجمتهم، بل لا بد أن يتركوا معسكرهم ويعودوا إلى حيث أتوا، ثم زاد سرورهم لما أخلى المصريون معسكرهم في اليوم التالي وأخذوا

في الإنسحاب والرجوع، فلما رأى الأتراك ذلك ظنوا أنهم ولوا الأدبار لكن لم تلبث أفراحهم أن تبدلت أتراحاً لما علموا أن المصريين لم يعودوا بل أخذوا في الدوران حول نصيين ليهاجموها من الجهة الأخرى التي لم يحصنها الأتراك لعدم توهمهم أن المصريين يأتونهم منها.

فجمع حافظ باشا مجلساً عسكرياً لتقرير ما يجب اتخاذه ضد هذه المناورة العسكرية التي لم تخطر ببالهم فأراد البارون (دى مولتك) ومن معه من ضباط الألمان أن يهاجموا المصريين في أثناء سيرهم وعدم استعدادهم للترال وتأهبهم للقتال، لكن اعترض عليه في هذا الرأي الصائب القائد التركي وسائر الضباط الأتراك قائلين كيف نترك نقطة صرفنا نفيس الوقت ومعظمه في تحصينها وتعرض أنفسنا وأرواحنا إلى القتل في واد سهل لا يوجد به أدنى استحكام طبيعي أو صناعي للإحتماء به، فردّ عليهم الألمان بأن الجيش التركي يبلغ عدده ستين ألف مقاتل والجيش المصري لا يزيد عن أربعين ألفاً فيمكن للترك بكل سهولة أن يتغلبوا على المصريين مع أنهم لو تربصوا في معاقلهم وهاجمهم المصريون في الجهة القليلة التحصن لربما كان الفوز والنصر لهم.

فلم يقبل حافظ باشا نصيحتهم بل اعتمد على رأيه من البقاء في الحصون حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً فاغتاظ لذلك الألمان وأرادوا أن يقدموا استعفاءهم لولا خوفهم مما يلحقهم من العار والملامة لو تأخروا أمام عدو مهاجم.

وفي أثناء هذه المداولة تقدم إبراهيم باشا وفريق من الخيالة المنتظمة والعرب نحو القنطرة المبنية على نهر قرسيم بعد اتحاده بنهر مزار، قصد إصلاحها لمروور الجيش لتوهمه أن الأتراك لا بد أن يكونوا قد خربوها لمنع وصول المصريين إليهم، لكنه وجدها على حالها فأسرع للإستيلاء عليها قبل وصول الخيالة الذين أرسلهم حافظ باشا لصد المصريين عنها لكن لما وصلت السوارى العثمانية كان قد سبق السيف العذل واجتازها إبراهيم باشا وعسكره، ولم يمكن بهذه

الكيفية للعثمانيين استرجاعها بل بقيت في قبضة المصريين وقد وصل إليها باقي الجيش في مساء ٢٢ من شهر يونيو تحت قيادة سليمان باشا وعسكر الجيش كله على ضفة نهر (قرسيم) المواجهة للجيش التركي واتخذ المصريون الإستعدادات اللازمة لصد الأتراك لو هاجمهم ليلاً، هذا ولم يضع حافظ باشا وقته سدى بل غير وجهة جيشه وأخذ في إقامة بعض استحكامات لمقاومة المصريين من هذه الجهة وحصنها بالمدافع التي كانت في الحصون الأول فأوجب هذا التغيير ارتباك الجند لأن الجناح الأيمن صار أيسر والأيسر صار أيمن، نعم أن مثل هذا التغيير لا يترتب عليه أدنى إرتباك لو كان الجيش مدرباً على مثل هذه المناورات لكن الجيش التركي الذي كان محصناً في نصيبين لم يكن من الانتظام على جانب عظيم لأنه حشد بعد تشتت الجيش القديم في واقعة (قونية) ولذلك وقع فيه خلل كبير بسبب هذه المناورة التي لم يراها^(١) قبل هذه المرة فضلاً عن أن الإستحكامات التي أقيمت على عجل لم تكن كافية لمقاومة المصريين ومعلوم أن المهاجم يكون دائماً أشد من المدافع خصوصاً لو كان المهاجم أكثر انتظاماً من مقاومه.

كل هذه أمور أوقعت الضباط الألمان في حيرة عظيمة لتخوفهم، إن لم نقل لتحقيقهم من فوز المصريين، وفي يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٣٩ توفيت الخاتون الإنكليزية (ليدي ستافوب)^(٢) التي كانت من ألد اعداء الحكومة المصرية في

(١) في الأصل (لم يروها) المحرر.

(٢) هي امرأة إنكليزية شريفة ذات أطوار غريبة ولدت في لندن تحت المملكة الإنكليزية في ١٢ مارث سنة ١٧٧٦ وتوفيت في (جون) من جبل لبنان في ٢٣ يونيو سنة ١٨٣٩ وكانت بكر لولاد (كارلوس) ثالث لولات (استافوب) من زوجته (استير) ابنة (وليم بت أول شتام) وزير إنكلترا الشهير وبقيت عنده إلى أن مات سنة ١٨٠٦ فأوصى عليها الأمة الإنكليزية فعينت لها مرتباً سنوياً قدره ١٢٠٠ ليرة إنكليزية وبعد قليل تركت إنكلترا وطافت أوروبا ولم ترغب في الزواج مع ما لها من الجمال والبهاء وبعد أن طافت أوروبا سافرت إلى استانبول ثم قصدت بر الشام فوصلت للأنقية بعد أخطار عظيمة أحدثت بها أثناء سفرها ونجت منها بإذن الله وبعد ما تعلمت لغة العرب وعواندهم عازمت على الطواف والجولان في الأماكن التي يعز وصول الإفرنج إليها فشككت قافلة وحملت هدايا نفيسة إلى البدو فزارت أشهر مدن الشام ثم وصلت مدينة تدمر فاجتمع عليها كثير من قبائل البدو فأعجبهم جمالها ولطفها وشبهوها بزينوبيا الرومانية ملكة تدمر واشتهر عليها من ذلك الحين هذا اللقب الذي تعرف هي به في كتب الإفرنج ثم في سنة ١٨١٣ استوطنت في دير على مسافة ساعة من مدينة صيدا وبنت به لها ولأمن معها بيوتاً على الشكل الشرقي وكانت دائماً تلبس لبس أمير شرقي وتتخذ السلاح. وكان لها علاقات مع الباب العالي ولأمراء لبنان ومشايخ البدو في براري الشام وبغداد والجزيرة ثم انتقلت إلى

بلاد الشام وكثيرا ما ألفت الدسائس وفرقت المال والسلاح على سكان الجبل لمحاربة المصريين، اختطفها أيدي المتون قبل أن تشاهد انتصار المصريين في واقعة نصيبين وعلى أى حال لو لم تمت في تلك الليلة لماتت في اليوم التالي مما كان يصيبها من الحزن والكدر لعدم نوالها بغيتها القلبية وهي انخزال المصريين في ساحة الوغى الأمر الذى صرفت لأجله ما لها وحياتها، فأتت غير مأسوف عليها من المصريين ونصرائهم، هذا ومما زاد في تخوف الضباط الألمان ما كان للجيش المصرى على العثماني من المميزات منها أن الجيش المصرى لم يكن مؤلفاً إلا من جنس واحد وهو الجنس المصرى وجميعهم مدربون على الأعمال الحربية وعلى النظام الأوربى ما عدا بعضا من العرب الهنادى وكان جميع ضباطه حائزين رتبهم بالاستحقاق والأهلية والكل واثقون برئيسهم إبراهيم باشا لما نالوه من النصر أكثر من مرة تحت قيادته.

تلك صفات كانت معدومة من الجيش التركى لأنه كان مؤلفاً من ترك وأكراد وغيرهم من الأمم المكونة للدولة العثمانية وليس بينهم وحدة جنسية تربط بعضهم ببعض وأغلبهم غير منتظم والمنتظم منهم لم يكن مستعداً للقتال استعداداً كافياً لمقاومة جيش منتظم كالجيش المصرى وأما ضباطه فأكثرهم إن لم

بيت مرتفع بالقرب من قرية (جون) بلبنان وحصنته بأسوار منيعة لتكون فى مأمن من طوارق الزمان لا سيما وأن الأهالى نفروا منها لما تناقصت ثروتها ولم يمكنها أن توصلهم بالهدايا كما كانت تفعل قبل وأخذت من ذلك العهد فى التداخل فى الأمور السياسية وكان لها نفوذ عظيم بين قبائل البادية حتى إنه لما عزم إبراهيم باشا فى فتح سورية اضطره الأمر أن يطلب إليها أن تكون على الحياد ويقال أنه بعد سقوط مدينة عكا فى أيدي المصريين لوى إليها كثير من الفارين وكانت تتعاطى للتجيم وتعتقد صحة ما يجئ به مع غرابة ذلك وإجماع العلماء على فسادهم وفى السنين الأخيرة من حياتها لما بلغ أهلها فى انكسار ما كان من أمرها وسيرها فى غير الطريق الحسن وتدخلها فيما لا يعنىها قطعوا عنها المال فكثرت عليها الديون لأنها لم تقل شئ من مصروفاتها وبقيت مدة وحدها بعد أن مات من صاحبها من الإفرنج بدون كتب ولا جرائد ولا رسائل من أوروبا ولم يكن عندها صديق يوالىها ولا أنيس يؤنسها ولا سمير يسامرها ولا جليس يجالسها بل بقى لها فقط جماعة من الجوارى والعبيد السود وبضعة فلاحين سوريين يعتنون ببساتينها وخیلها ويحفظونها من الطوارق ولما كثرت ديونها اعتراها مرض عضال قضت به نجها ولم يكن عندها أحد من الإفرنج بل أحاط بها جماعة من خدامها وعند وفاتها حضر قنصل الإنكليز فى بيروت ومعه أحد القسيسين الأمريكانيين لدفنها فدفنت فى البستان المجاور لدارها وقصارى الكلام أنها حصلت بأعمالها على شهرة عظيمة فى الشرق وأذهلت أوروبا كلها وكان الأهالى عموما يسمونها بالست الإنكليزية وقد روى عنها قصص غريبة كثيرة تكاد تكون من الخرافات فضلا عن أنها لا يوثق بها وقد زارها كثير من الساتحين الأوربويين وكان من جملتهم الشاعر الفرنساوى الشهير (دى لامارتين) ذو المرتبة العالية والمعرفة السامية سنة ١٨٣٢.

يكن كلهم لم ينالوا وظائفهم بالاستحقاق والأهلية فضلاً عما لحقهم من الإهزام أمام الجيوش المصرية في واقعة (قونية) كما سبق ذلك في بابه. وفي ليلة ٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩ أراد حافظ باشا أن يهاجم المصريين تحت جناح الظلام طمعاً في أن يوقع الفشل بينهم لكنه لم يتم له مقصوده لأنه بعد أن ألقى بين خيام المصريين قليلاً من القل، انتبهوا من رقادهم فلم يكن إلا قليل حتى صدّوا مهاجمة الترك وألزموهم بالرجوع إلى معسكرهم فعادوا منهزمين بعد أن خضبوا الأرض بدمائهم وملأوا الودية بأجسامهم ولم يقتل من المصريين إلا التز اليسير وكان المجروح منهم قليلاً، وحدث في هذه الواقعة أن بعض الشاميين هربوا من الجيش المصري وألتجؤوا إلى العسكر العثماني وحاربوا معهم في صفوفهم وكذلك أورتطان من ألابي الحرس الثالث أرادتا الانضمام للترك فلحقهما إبراهيم باشا في سيرهما وأعادهما إلى مركزهما ولم يرغب مجازاتهما مجازاة شديدة خوفاً من تدمير باقي الشاميين في هذا الوقت الذي يلزم فيه أن يكون الجيش كله قلباً واحداً فقبل اعتذارهم بأنهم ضلوا عن السبيل في أثناء الحرب، واكتفى بتغيير ضباطهم بآخرين ممن يثق بهم واستمر الجيش بقية ليلة يتأهب للقتال لتصميم إبراهيم باشا على مهاجمة الأتراك في يوم ٢٤ يونيه.

وفي صبيحة هذا اليوم المشهود طلع إبراهيم باشا وقليل من الهنادي لاستكشاف مواقع الترك ليهاجمهم في موقع الضعف فتحقق له أنه لا يمكنه مهاجمتهم من الجناح الأيمن لإرتكازه على أخوار عميقة لا يمكنه اجتيازها تحت نيرانهم ولا من الوسط أيضاً لما أقامه الترك من المعازل عند تغيير وجهتهم وموقع الضعف هو الجناح الأيسر لعدم وجود موانع طبيعية أو صناعية تمنع تقدمهم إلا بعض أشجار من الزيتون متباعدة عن بعضها بحيث يتيسر المرور من بينها ولما كان إبراهيم باشا معسكراً بين الجيش التركي والفرات أي أمام جناحه الأيمن، فلمهاجمة الجناح الأيسر لزمه أن يمر بكل جيشه أمام جيش الترك إلى أن يصل إلى الجناح الأيسر ولا يخفى ما في مثل هذه الحركة من الخطر لأنه لو هاجمه الأتراك في أثناء مروره لوقع الفشل في صفوف المصريين وكان الفوز للعثمانيين

لكن أهمل حافظ باشا أن يأخذ بالرأى السديد وهو مهاجمته للمصريين أثناء سيرهم أمامه فلم يبد حراكاً بل اتبع رأى من كان معه من الضباط الأتراك المخالفين لرأى أركان الحرب الألمانين.

ولما اقترب الجيش المصرى من الجناح الأيسر لمح إبراهيم باشا هضبة مرتفعة مشرفة على مواقع الترك ولم يحتلوها فأمر في الحال سليمان باشا باحتلالها، فركض سليمان باشا بجواره وتبعه السوارى والطوبجية الراكبة وسار الكل مسرعين نحو هذه الهضبة التى كان احتلالها من أكبر دواعى انتصار المصريين، وعند ذلك انتبه الأتراك من غفلتهم واستيقظوا من نومتهم لما رأوا اتجاه المصريين نحوها وأدركوا أهميتها فأرسلوا عدة أليات من سوارىهم قصد احتلالها وإبعاد المصريين عنها ولكن لحسن حظ المصريين كان سليمان باشا قد احتلها مع عسكره قبل وصول الأتراك، فلما وصلوا إليه أرسل عليهم نيرانه وألزمهم العودة منهزمين.

ولما وصل الجيش المصرى بتمامه إلى الجناح الأيسر لم ينتظر إبراهيم باشا تجمع العسكر المعينين للهجوم، بل هجم مع قليل من الجند على الجيش التركى ليكون أول من دخل معاقلهم واحتل حصونهم ولكن لما كان المصريون المهاجمون قليلين والجيش التركى كثيراً وناره قوية وقع الرعب فى قلوب المهاجمين وامتنعوا عن التقدم ومازال إبراهيم باشا يهددهم ويحثهم على الإقدام فلم يقبلوا بل قفلوا عائدين. وكانت هذه أول مرة تفهقر فيها المصريون أمام الأتراك ولا لوم عليهم فى ذلك بل على قائدهم حيث لم يتأن وخاطر بحياته وجنده جأً فى نوال الشرف، ولما رأى سليمان باشا تفهقر الجند صوب عليهم نيران مدافعه حتى ألزمهم التقدم إلى الأمام مفضلين الموت مع الشرف على الحياة مع الخزى والتلف خصوصاً إذا كان الموت محققاً فى كلتا الحالتين، وبذلك تمكن إبراهيم باشا من أن يحارب ويناضل إلى أن وصل الجيش بأجمعه واشترك مع المقدمة فى الهجوم ولما اشتدت نار الوغى تزعزع الجناح الأيسر العثمانى وأخذ فى التفكك

وابتداً الأكراد بالهرب، ولم يلبث باقى الجيش أن حذا حذوهم وولى الكل الأدبار والتجؤا إلى الفرار وقتل في هذه المعركة خالد باشا أحد قواد الدولة العلية المشهورين وأركان حربه المدعو إبراهيم بك الذى تخرج في مدارس فرنسا الحربية لأنهما لم يتركا مكانهما حتى قتلا.

وأما الضباط الألمانىون وحافظ باشا ومن معهم من بقية الجيش فتقهقروا على غير نظام مسرعين بالفرار إلى مدينة مرعش، فعند ذلك اقتفى المصريون أثرهم وأبلوا فيهم بلاء حسناً ثم عادوا إلى المعسكر التركى فوجدوه على حاله حتى أن بعض الضباط الألمانىين ومنهم البارون (دى مولتك) تركوا ملابسهم وأوراقهم وغنم المصريون كل ما فى المعسكر من خيم ومؤون وذخائر ومن المدافع ١٦٦ ومن البنادق ٢٠ ألف وقتل فى هذه الوقعة ٤٠٠٠ عثمانى ومن المصريين كذلك تقريباً، لكن قتل المصريون من الأتراك فى حال تبعهم لهم ما يبلغ خمسة أسداسهم فقد قال البارون (دى مولتك) فى كتابه على الشرق أن فرقة بكير باشا التى كان يبلغ عددها ٥٥٠٠ لم يبق منها إلا ٣٥٠ نفساً وأن فرقة محمود باشا لم يبق منها إلا ٧٥ نفساً وأما السوارى فلم يقتل منهم إلا القليل لأنهم بادروا بالهرب ابتداءً، فأرسل إبراهيم باشا لوالده يبشره بهذا الفوز العظيم الذى خلص مصر وأنقذها من التهديدات التى كانت تتوارد عليها ومما زادها شرفاً أنها قاومت رجال الدولة العلية.

ولا يخفى ما ترتب على هذا النصر من الفوائد الجمة كتوطيد ملك محمد على باشا فى بلاد الشام وبلاد الجزيرة وإيقاع الرعب فى قلوب سكان تلك الجهات الذين كفوا عن إثارة الخواطر وبث الدسائس لتحقيقهم عدم قيام الدولة العلية بمساعدتهم، وكان عقب هذه الواقعة موت السلطان محمود خان الثانى فتوفى فى يوم ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ الموافق أول يوليو سنة ١٨٣٩.

ولما مات وحضر الأطباء لتشخيص مرضه الذى كان سبباً لموته اختلفت آراؤهم فيه فمنهم من قال أنه توفى بداء السل الرئوى ومنهم من قال أن موته

منسب عن اضطراب عصبي ومنهم من قال غير ذلك، وكان له من العمر أربع وخمسون سنة ومكثت خلافته احدى وثلاثين سنة، وخلفه على الملك بعده ولده السلطان عبد المجيد خان الأول وكان عمره إذ ذاك ١٧ سنة. هذا وبعد أن أتاح الله النصر لإبراهيم باشا توجه بنفسه للإستيلاء على المعسكر المحصن الذي كان قد أقامه الأتراك في (بلا جيك) على ضفة الفرات اليمنى ووجه قواده لاحتلال ملطية وقونية ثم سافر في ٢٧ الشهر ليحتل مدينة (عين تاب) التي فتحت أبوابها للأتراك، فوصلها وبعد أن احتلها بدون مقاومة وعفا عن مشايخها سافر إلى مدينة قيصرية ليربح عساكره ويتقدم لفتح بلاد الأناضول.

وفي ٢٩ منه وصل إليه الموسيو (كابي) وكان قد أرسله المارشال (سولت) وزير فرنسا الأول إلى محمد علي باشا ونجله إبراهيم باشا ليخبرهما بأن أوربا جميعها حتى فرنسا عازمة على منع القتال بينه وبين الباب العالي وحسم الخلاف الواقع بينهما بالطرق الحبية السلمية وكان سفره من باريس في ٢٨ مايو سنة ١٨٣٩ ووصله إلى الإسكندرية في ١٣ يونيو فقابل محمد علي باشا وأخبره بالمأمورية التي كلف بها وطلب منه أمراً لولده إبراهيم باشا بعدم الإبتداء بالحرب وعدم اجتياز جبل (طوروس) لو حصل الحرب قهراً عنه وانتصر هو فيه، فأجاب إلى ذلك محمد علي باشا ظاناً أن فرنسا كما أنها تلزمه بعدم الحرب لابد أن تساعد له لو تعدى الباب العالي عليه وأعطى الموسيو (كابي) الجواب المطلوب فسافر إلى اسكندرونة ومنها إلى حلب مستبشراً بنجاح مأموريته ولكن لسوء حظه لما وصل حلب بلغه خبر انتصار إبراهيم باشا في (نصيبين) فسافر لوقته إلى هذه الجهة ليمتنعه عن اجتياز جبل (طوروس) فلم يجده فيها فاستفهم عنه ف قيل له أنه قام لتميم انتصاره باحتلال مضائق الجبل وأنه وجه قواده للإستيلاء على مدينتي (قونية) و(ملطية) الواقعتين فيما وراء الجبل.

فحار الموسيو (كابي) في أمره وأيقن بتداخل الدول وخصوصاً روسيا وانكلترا والنمسا لصد إبراهيم باشا عن أملاك الدولة العلية لو قصد التقدم إلى

مركز الخلافة العظمى، فطار بجناح السرعة إلى (قَيْصَرِيَّة) فقابل إبراهيم باشا أمامها وفاتحه بما أرسل لأجله من إيقاف سير العساكر المصرية نحو الأناضول فاستشاط الباشا غيظاً وقال إن هذا الأمر مستحيل وكيف يجوز لقائد حائز على النصر والغلبة أن يقف بطريقة ولا يتم انتصاره لكن تيسر للموسيو (كابى) أن يصد إبراهيم باشا عن مشروعه ويقنعه بعدم استمرار القتال ويمنعه من التقدم إلى بلاد الأناضول فوعده بعدم احتلال مدينة (قونية) ولم ينش عن احتلال (ملطية) وما جاورها من البلاد قائلاً أن احتلال هذه المدينة ضرورى لحفظ بلاد الشام من هجمات الأعداء.

فلم يقبل الموسيو (كابى) ذلك بل أظهر لإبراهيم باشا ضرورة عدم الخروج عن حدود الشام خوفاً من أن تعتبر الدول الأروباوية ذلك تعدياً على أملاك الباب العالى وتتداخل بينهما وربما أجبرته بالقوة على الرجوع وأن الجواب المرسل إليه من والده يمنعه عن اجتياز جبال (طوروس) فلم يدعن إبراهيم باشا لذلك بل عزم في نفسه على احتلال ملطية وأمر جيشه بالتأهب للسفر، ولكن لم يلبث الموسيو (كابى) أن عاود الكرة وألح عليه بالتنازل عن هذا المشروع لما يترتب عليه من الضرر وبعد اللتيا^(١) والتي قبل إبراهيم باشا ذلك وأصدر أوامره إلى قواده بذلك واكتفى باحتلال مدينتى مرعش وأورفه.

تسليم قبطان باشا الدوناغمة التركية إلى محمد على باشا:

وقد حدثت في خلال ذلك مسألة هيجت الخواطر في أوروبا وهى أن أحمد باشا قبودان الدوناغمة التركية سافر إلى الإسكندرية وسلم الدوناغمة المذكورة برجالها ومدافعها إلى محمد على باشا وذلك أنه في أثناء شهر يوليو سنة ١٨٣٩ صدرت الأوامر من قبل إلهذه الدوناغمة قبيل واقعة (نصيبين) بالخروج من بوغاز الدردانيل قصد محاربة الدوناغمة المصرية، لكن كانت كل من فرنسا وانكلترا

(١) هكذا في الاصل (المحرر).

أرسلت دونانمة من طرفها لمنع انتشار الحرب بين الدونانمتين التركية والمصرية ولذلك لم يحصل بينهما قتال.

ولما تولى السلطان عبد المجيد أراد أن يحسم الخلاف بينه وبين محمد علي باشا بالطرق السلمية لما تراءى له من أن ذلك أولى من استمرار القتال وسفك دم العباد فعين من يدعى عاكف أفندي للسفر إلى مصر للإتفاق على هدنة معينة يمكن في خلالها إجراء المخابرات والإتفاق على طريقة مرضية للطرفين، وكلف عاكف أفندي المذكور، أن يأمر أحمد باشا قبودان بالرجوع إلى القسطنطينية فلما انتهى هذا الخبر إلى أحمد باشا وكان قد علم بموت السلطان محمود وتعيين خسرو باشا صدراً أعظم ظن أن استدعائه إلى إسلامبول لم يكن إلا لعزله أو لقتله لما بينه وبين خسرو باشا من الضغائن ولعدم وجود من يدافع عنه، لموت السلطان محمود حيث كان محبه وصديقه الوحيد، فصغا إلى ما وسوس له به وكيله المدعو عثمان باشا الإلتجاء إلى محمد علي باشا وتسليمه الدونانمة.

وفي يوم ١٤ يوليو سنة ١٨٣٩ أقلع بمراكبه وخرج من الدردانيل قاصداً ثغر الإسكندرية فشاهده الأميرال (لالاند) إذ كان بمراكبه موجودا بالقرب من البوغاز المذكور ولكن لما كانت أوامره لا تبيح له التعرض لها في سيرها بل منع القتال فقط، اكتفى الأميرال الفرنسي باتباعها ومراقبتها حتى إذا أرادت القتال منعها طوعاً أو كرهاً وفي أثناء السير اقتربت منه بارجة عثمانية تقل عثمان باشا وأشارت إليه بالإشارات البحرية أنه يريد الإجتماع بالأميرال فترل الأميرال بنفسه إلى البارحة ووجد عثمان باشا في انتظاره وبعد أن تحادثا ملياً عن موت السلطان محمود قال له عثمان باشا إن موته لم يكن عادياً بل هو ناشئ عن دسائس خسرو باشا و خليل باشا صهر السلطان، ولذلك قد عزم هو وأحمد باشا قبودان على السفر إلى جزيرة (كريد) للمخاطبة مع حافظ باشا قائد الجيوش البرية في الأناضول ومع محمد علي باشا وإلى مصر لإبرام تحالف بينهم على طرد الصدر الأعظم خسرو باشا وشيعته وتولية مهام الدولة إلى من يوثق

به من الرجال، فحصل للأميرال (لالاند) من هذا الكلام دهشة وتوجس خيفة من سوء عاقبة هذا المشروع ونتائجه الوخيمة فبذل جهده في إرجاعه عنه.

ولما لم يجد منه أذنًا صاغية وكانت الأوامر المرسلة إليه من حكومته لا تبيح له منعه نصحه بأن يسافر إلى جزيرة (رودس) التابعة للدولة العلية لأن جزيرة (كريد) كانت إذ ذاك تابعة لمصر ولا يجوز له أن يذهب لها فوعده عثمان باشا بذلك وأقلع إلى جهة الجنوب فظن الأميرال (لالاند) أنه مسافر إلى (رودس) ولذلك كف عن مراقبته وأرسل سفينة واحدة لمرافقته. وفي الحال أيضاً أرسل أحد ضباطه إلى إسلامبول لتبليغ سفير فرنسا ما حصل فوصل هذا الضابط في ٧ يونيو وأخبر السفير بسفر الدوناغة إلى جزيرة (رودس) كما كان يظن الأميرال (لالاند) فأخبر السفير في الحال الباب العالي لأخذ الاحتياطات اللازمة وكذلك أخبر باقي السفراء ثم بعد هذا بقليل وصلهم خبر وصول الدوناغة المذكورة إلى الإسكندرية فكان له تأثير مكدر بين رؤساء الدولة وسفراء الدول ذات الشأن لأن الدولة العلية بهذه الكيفية لا تثق بأحد من قوادها فكأنها لا جيش ولا دوناغة لها.

فأرسلت الدول إلى قناصلها بالإسكندرية لتطلب من محمد علي باشا إرجاع المراكب للدولة منعا لما عساه يحصل من إكراه الدول له على ذلك وألح عليه قنصل فرنسا كثيراً فلم يصغ لنصائحهم بل عزم على أن لا يردها للدولة مما لم تمنحه ولاية مصر وولايات الشام وآسيا الصغرى، التي احتلها بعساكره وتكون له ولذريته من بعده، وتضمن له الدولة ذلك وتعزل خسرو باشا من منصب الصدارة، وفي يوم ٢٤ يوليو عاد إلى القسطنطينية عاكف أفندي الذي كان قد أرسل لمصر لايقات تقدم الجيوش المصرية ومعه رسالة من محمد علي باشا يقول فيها أنه كتب لولده إبراهيم باشا بأن يقف بالنقط التي هو بها إلى أن تصدر له أوامر جديدة وأنه لم يزل مصراً على عدم قبول الصلح والطاعة للباب العالي إلا إذا منحه وذريته من بعده الولايات التي احتلها، وكيف يقبل خلاف ذلك

وساريم أفندي المندوب الأول للباب العالي كان قد عرض عليه ملك مصر
وولايي صيدا وطرابلس؟

تداخل الدول:

في يوم ٢٧ من يوليو اجتمع وزراء الدول ليتداولوا فيما يلزم إتباعه في
المسألة المصرية منعاً لإبراهيم باشا من الزحف على القسطنطينية، ولتداخل
الروسيا، لاسيما وأنه لا جيش للدولة لا براً ولا بحراً فقر رأيهم على إعطاء
محمد علي باشا مصر والشام ما عدا قسم (أطنه) وبلاد العرب بشرط أن يكون
للباب العالي حق الاحتلال وإدارة كل من دمشق و(أوريشلم) ومكة والمدينة
وأن يدفع والى مصر خراجاً سنوياً قدره ثلاثون مليوناً قرشاً تركيا (تساوى
ثلثمائة ألف جنيه مصرى تقريباً) وقرروا أيضاً أن يرسل إليه مندوبون لتبليغه
هذا القرار لكن قبل سفر هؤلاء المندوبين أرسل سفراء الدول إلى الباب العالي
لائحة مشتركة^(١) بتاريخ ٢٨ يولييه ممضاة من سفراء فرنسا وانكلترا والنمسا
والروسيا وبروسيا يطلبون منه أن لا يقرر شيئاً في أمر المسألة المصرية إلا
بإطلاعهم واتحادهم وأنهم مستعدون للتوسط بينه وبين محمد علي باشا لحل هذه
المسألة المهمة فأضطر الباب العالي أن يقبل هذا التداخل وأرسل إلى السفراء
يخبرهم أنه أوقف سفر المندوبين.

وكان الراغب أولاً في هذه اللائحة المسيو (دى مترنيخ) وزير النمسا الأول
أكبر ساسة عصره ليضع الدولة العلية تحت حماية الدول العظام أجمع، فعرض ما
بداله على وزارات باقى الدول فوقع لديهم موقع الإستحسان والقبول حتى
الروسيا نفسها، خوفاً من اتفاق باقى الدول ضدها وحماية الدولة العلية بالقوة
كما حصل في حرب القرم سنة ١٨٥٣.

فاجتمع سفراء الدول أول اجتماع عند الصدر الأعظم في ٣٠ يوليو سنة
١٨٣٩ وتداولوا فيما يجب إعطاؤه ل محمد علي باشا فأبدى سفيراً انكلترا

(١) فى الأصل (اشتراكية) المحرر.

والنمسا ضرورة إرجاع الشام للدولة العلية وعارضهم في هذا الرأي سفيراً فرنسا والروسيا وطلباً أن يمنح محمد علي باشا ملك مصر و ولايات الشام الأربع لكن انحاز سفير البروسيا إلى الرأي الأول فتقرر بالأغلبية، ثم طلب الموسيو (دى مترنيخ) أن يعقد مؤتمر دولي في مدينة (فيينا) أو (لوندرة) لإتمام المداولات بشأن المسألة المصرية فلم يقبل منه ذلك عند الكل سيما فرنسا وانكلترا فلم يقبلا ذلك ولم يملا لهذا الطلب لعدم ثقتهم بالمسيو (دى مترنيخ)، وكذلك روسيا لم تقبل تحويل مؤتمر دولي لتحديد علاقاتها مع الباب العالي بل أعلنت أنها مصرّة على التمسك بنصوص معاهدة (انكارا سكله سي) وهي حماية الدولة بعساكرها ومراكبها، وبالتالي احتلال معظم أملاكها بدون حرب لو تعدى إبراهيم باشا حدود الشام.

فعند ذلك طلبت كل من فرنسا وانكلترا من الباب العالي التصريح لمراكبها بالمرور من بوغاز الدردنيل لحمايته عند الضرورة من روسيا ومن العساكر المصرية وجاء الأميرال (ستوبفورد) بنفسه إلى القسطنطينية للحصول على هذا التصريح ولما علم باقي السفراء بهذا الطلب اضطربوا وخشوا حصول شقاق بين الدول المتوسطة وأعلن سفير الروسية بأنه إذا دخلت المراكب الفرنسية والإنكليزية البوغاز يقطع علاقاته السياسية مع الباب العالي ويسافر في الحال وكانت حكومته أرسلت له مركباً حربياً ليسافر عليها إذا اقتضى الحال ذلك، وكتبت النمسا إلى وزارتي (لوندرة) و(باريس) بأن طلبها هذا محل بسلم أوربا وأنها لو أصراً عليه تخرج من التحالف وتحفظ لنفسها حرية العمل. فلما علم الباب العالي بذلك خاف من تفاقم الخطب ورفض طلب حكومتي فرنسا وانكلترا وطلب منهما إبعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز.

فلهذه الأسباب وعدم الاتفاق بين وزراء الدول توقفت المخابرات إلى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٣٩ حتى عرض اللورد (بونسوني) سفير انكلترا لدى الباب العالي أن دولته مستعدة لإكراه محمد علي باشا على رد الدونامة التركية

بشرط أن يكون لها حق إدخال مراكبها إلى خليج إسلامبول لصد روسيا عند الضرورة، فلما علمت بذلك حكومة فرنسا أرسلت إلى الأميرال (لالاند) قائد أسطولها في مياه تركيا أمراً بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩ أنه لا يشترك مع مراكب انكلترا في أي حركة عدوانية ضد حكومة محمد علي باشا فعلم الكل أنه لا بد من حصول خلاف بين فرنسا وانكلترا بخصوص المسألة المصرية وأخذت الدول حذرهما مما عساه يحصل من الأمور التي تنشأ بسبب هذا الخلاف، فأعلنت النمسا بأنها لا ترغب التداخل لعدم نجاح طلبها المختص بانعقاد مؤتمر دولي في فيينا أو برلين وأعلنت بروسيا والروسيا بأنهما يقبلان كل ما تقرره الدول في هذا الشأن بشرط أن يكون موافقاً لرغبة الباب العالي وأن يكون قبوله لهذا القرار صادراً عن كمال الحرية التامة فكأن الدول قبلت ما تنفق عليه فرنسا وانكلترا بالإتحاد مع الباب العالي، ولكن لم يتم الإتفاق بين هاتين الدولتين لسعي انكلترا في إرجاع المصريين إلى حدودهم الأصلية وعدم قبول فرنسا ذلك رغبة في مساعدة محمد علي باشا.

وذلك أن فرنسا كانت تود أن تكون ولايتا مصر والشام له ولذريته وإقليماً أطنة وطرسوس له مدة حياته، وأما انكلترا فكانت لا تريد أن يعطى إلا ولاية مصر لكن رغبة في إرضاء فرنسا قبلت أن يعطى مدة حياته نصف بلاد الشام الجنوبي بشرط أن لا تكون مدينة عكا من هذا النصف، فرفضت فرنسا هذا الإقتراح وقالت كيف نجرده من كل فتوحاته خصوصاً بعد أن قهر الجيوش العثمانية في واقعة (نصيبين) وأنا لو جردناه منها لتركنا له باباً للحرب مرة أخرى وهو أمر لا تكون عاقبته حسنة لأن هذا شيء يوجب تداخل حكومة روسيا في أمر الدولة العلية بمقتضى العهودات، ولا تكون نتيجة ذلك إلا حرباً عامة فالأولى منعاً لسفك دماء العباد أن تعطى لمحمد علي باشا البلاد التي فتحها، لأنه أقوم بإدارتها وأحق بها لما تكبده من المشاق الصعبة والمصاريف الزائدة وبذل الأرواح، ولما علمت الدول بوقوع الخلاف بين فرنسا وانكلترا

أعلنت النمسا وبروسيا رسمياً أنهما ينحازان إلى إحدى الدولتين السقي لا تحرم الدولة من أملاكها، وبعبارة أخرى إلى انكلترا.

وأما الروسية فأرادت أن تنتهز فرصة عدم اتحاد الدولتين لتقرير نفوذها في الشرق وحق حمايتها للدولة العلية دون غيرها وأرسلت إلى لوندريه البارون (دي برونو) بصفة سفير فوق العادة فوصلها في أواخر سبتمبر سنة ٣٩ وعرض على حكومته بالنيابة عن قيصره أن الروسية مستعدة لأن تترك لانكلترا حرية العمل في مصر وتساعدنا على إذلال محمد علي باشا بشرط أن تسمح لها بإنزال جيش بالقرب من إسلامبول في مدينة (سينوب) الواقعة على شاطئ البحر الأسود ببر الأناضول لكي يتيسر لها إسعاف الباب العالي لو أراد إبراهيم باشا الزحف على القسطنطينية، فصفا اللورد (بالمرستون) إلى كلام سفير الروسية ومال إلى هذا الرأي ميلاً شديداً ولولا استقباح الرأي العام له قبله كل القبول وسلمه كل التسليم، لكنه لما رأى عدم موافقة الرأي العام لهذا المشروع اقترح على الروسية أن تعلن أولاً بتنازها عما تخوله لها معاهدة (انكارا سكله سي) من حق حماية الدولة العلية فرفضت الروسية ذلك وأجلت المخابرات بشأن تسوية المسألة المصرية إلى شهر يوليو سنة ١٨٤٠ لعدم اتفاق الدول على حالة مرضية لكل وافية بغرض الجميع ولتباينهم في الغايات والمقاصد.

وفي خلال هذه المدة أرسلت الروسية الميسو (برونو) ثانية إلى (لوندريه) ليطلب تعديل المشروع الأول، بأن يخول لكل من انكلترا وفرنسا الحق في إرسال ثلاث سفن حربية في بحر (ممره) للإشتراك مع الجيش الروسي في حماية إسلامبول لو هاجمها إبراهيم باشا فلم تفز الروسية بمرامها في هذه المرة أيضاً، هذا ولما علم محمد علي باشا بهذه المخابرات وتحقق أن الدول الأوروبية عموماً وانكلترا خصوصاً ساعون في إرجاع جيوشه إلى مصر وجبره على رد كل ما فتحه من البلاد، وأن فرنسا لا يمكنها مساعدته، فضلاً عن تعصب باقي أوروبا ومضادتها بأجمعها له أخذ في الاستعداد لصد القوة بالقوة بحيث لا يسلم

شبراً من الأرض التي صرف ماله ورجاله في فتحها إلا مضطراً وكلف سليمان باشا بتفقد سواحل الشام وتحصينها بقدر الإمكان سيما مدينتي (عكا) و(بيروت) وأمر بتعليم كافة الأهالي جميع الحركات العسكرية وحمل السلاح، لكي يسهل له حفظ الأمن الداخلي بواسطتهم وصد المهاجمين بواسطة الجيش المدرب على الحرب، ولزيادة جيشه استدعى من الأقطار الحجازية والنجدية الجيوش المصرية المحتلة لها وأخذ أيضاً في توفير الأموال من بعض وجوه مصاريقها وأطلق سراح محمد ابن عون شريف مكة الذي كان قد ألزمه الإقامة بمصر من مدة. وبالجملة تخلى عن بلاد العرب وتركها هملأً كما كانت لإحتياجه إلى المال والرجال لأنها كانت تكلفه سنوياً مبلغاً وقدره ٧٠٠٠٠٠٠ جنيه مصري تقريباً بلا فائدة، ثم أرسل جزءاً عظيماً من العساكر الواردة من بلاد العرب إلى الشام للإستعداد لكل طارئ يطرأ وأرسل إلى ولده إبراهيم باشا الأوامر المشددة بأن يجتهد في إطفاء كل ثورة جزئية يديها سكان الجبل من أى طائفة خوفاً من اشتداد الخطب في الداخل حين الإحتياج للإنتباه لما يأتى من الخارج.

ثم في أوائل سنة ١٨٤٠ عاودت النمسا الكرة وطلبت من الدول اجتماع مؤتمر في مدينة فيينا لتسوية هذه المسألة التي أقلقّت بال الجميع فقبلت الدول عقده في مدينة لوندور، لا فيينا، وطلبت فرنسا أن يكون للباب العالي مندوب خصوصى في هذا المؤتمر مراعاة له لكونه له السيادة العظمى على البلاد المتنازع بخصوصها.

فلما اجتمع هذا المؤتمر طلبت فرنسا إبقاء الشام كلها تحت يد محمد على باشا، فعارضتها الحكومة الإنكليزية في ذلك وأصرت على ما طلبته أولاً وهو أنه لا يعطى له إلا النصف الجنوبي منها لكنها قبلت أخيراً بناء على إلحاح فرنسا إدخال عكا ضمن هذا القسم بشرط أن تكون له مدة حياته فقط ولا تنتقل إلى ورثته بعد موته بل تعود إلى الدولة العلية، وقبلت روسيا والنمسا والبروسيا

ذلك، لكن لم تقبله فرنسا بحجة أن حرمان ورثة محمد علي باشا من بلاد صرف السنين الطوال عليها في فتحها لتركها لهم بعد موته مما يزيد في حنقه على دول أوربا وربما لم يقبل هذا القرار المجحف بحقوقه فلتتزم الدول بإكراهه وسفك دماء العباد ظلماً، الأمر الذي لم تجر هذه المخابرات إلا لمنعه فشددت انكلترا وخصوصاً اللورد بالمرستون وزيرها الأول، وأبت إلا رجوع ما يعطى لمحمد علي باشا من البلاد الشامية إلى الدولة العلية بعد موته، فمن عدم الاتفاق وتشتت الآراء وبعد الوفاق لم ينجح هذا المؤتمر وبقيت الحالة على ما هي عليه ثم لما تولى الموسيو (تيرس)^(١) رئاسة الوزارة الفرنسية في أول مارث سنة ١٨٤٠ لم يتبع خطة سلفائه في إنهاء المسألة المصرية بالإتحاد مع انكلترا بل أراد أن يضع لها حداً باتفاقه رأساً مع الباب العالي ومحمد علي باشا بأن يلزم الباب العالي أن يترك محمد علي باشا، ولايات مصر والشام له ولذريته، ويهدده بمساعدة فرنسا لوالى مصر إن لم يذعن الباب العالي لهذه المطالب.

فأرسل محمد علي باشا يخبره بأن لا يقبل مطالب انكلترا، بل يقوى مركزه في الشام ويتأهب للكفاح وأن فرنسا مستعدة لنجدته لو عارضته انكلترا.

(١) هو سيامسى شهير ولد في مرسيليا في ١٦ إبريل سنة ١٧٩٧ وتعلم الشريعة في مدارس مرسيليا واكس واشتغل بالمحاكم إلى سنة ١٨٢١ ثم سافر إلى باريس واشتغل بالتحرير في الجرائد وكتب تاريخ الثورة الفرنسية في ١٠ مجلدات طبعت من سنة ١٨٢٣ إلى سنة ١٨٣١ وكان من أكبر الساعين في قلب حكومة لويس العاشر في شهر يوليو سنة ١٨٣٠ ولذلك لما تولى لويس فيليب أريكة الملك بعد هذه الثورة عينه مأموراً في الخزينة ثم ولاء وزارة المالية ثم نظارة الداخلية في وزارة المارشال سولت الأولى في ١١ أكتوبر سنة ١٨٣٤ ثم صار رئيساً لمجلس النظر لأول مرة في ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٦ وعهدت إليه أيضاً نظارة الخارجية واستمرت وزارته إلى ٦ سبتمبر سنة ١٨٣٦ ثم عاد إلى منصة الأحكام في أول مارث سنة ١٨٤٠ فطلب تحصين مدينة باريس والقيام بتجهيزات عسكرية مهمة خوفاً من الإرتباكات الناشئة من تدخل الدول بين محمد علي باشا والسلطان ثم استقال لإختلافه في الرأي مع ملكه بخصوص المسألة المصرية وحينئذ ابتدأ في تاريخه عن القنصلية والإمبراطورية ثم في سنة ١٨٤٨ طعن في سياسة لويس فيليب الخارجية وساعد على عزله وانتخب عضواً في الحكومة المؤقتة وفي سنة ١٨٥١ عارض لويس نابليون في تأسيس إمبراطورية ثانية فسجنه لما أعاد الإمبراطورية من ٩ ديسمبر سنة ٥١ إلى ٧ يوليو سنة ٥٢ ثم في سنة ٦٥ و ٦٦ أخذ يندد بسياسة الإمبراطور وصرفه النفقات الباهظة في حرب إيطاليا وحملة المكسيك وفي سنة ١٨٧٠ كان ضد الحرب لتحققه من عدم استعداد حكومة فرنسا ولما حصل ما أتى به من تغلب البروسيا ألح بالدفاع عن باريس وسعى لدى الدول للمساعدة في إقامة هدنة فلما لم يفلح عاد إلى فرنسا وانتخب في مجلس نوابها ثم في ١٧ مارث سنة ٧١ تعين رئيساً للسلطة الإجرائية فتمكن من دفع الغرامة الحربية قبل ميعادها وخلص بذلك وطنه من احتلال الأجنبي وفي ١٧ أغسطس أطل مجلس النواب مدته ثلاث سنين ولقب بلقب رئيس الجمهورية ثم استقال في ٢٤ مايو سنة ١٨٧٣ لمعاكسة الأحزاب له وخلفه المارشال ماكما هون وله تأليف سياسية شهيرة واشتهر أيضاً في الخطابة وتوفي في سنة ١٨٧٩ واحتفلت الأمة بجنائزه احتفالاً عظيماً.

١- معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠

فلما علم اللورد بالمرستون بهذه المخابرات حث على الحكومة الفرنسية وبذل جهده في الاتفاق مع روسيا وبروسيا والنمسا لإرجاع محمد علي باشا إلى حدود مصر وإلزامه بالقوة إن لم يطع، ولقد نجح بالمرستون في مسعاه وأمضى بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ مع من ذكر من الدول معاهدة صدق عليها مندوب الدولة العلية مقتضاها (أولاً) أن يلزم محمد علي بإرجاع ما فتحه للدولة العلية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبي من الشام مع عدم دخول مدينة (عكا) في هذا القسم (ثانياً) أن يكون لإنجلترا الحق بالاتفاق مع النمسا في محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدولة العلية وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لإشتغال الجيوش المصرية في الداخل كي لا تقوى على مقاومة المركب النمساوية والإنكليزية (ثالثاً) أن يكون لمراكب روسيا والنمسا وإنجلترا معاً حق الدخول في البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها. (رابعاً) أن لا يكون لأحد الحق في الدخول في مياه البوسفور ما دامت القسطنطينية غير مهددة. (خامساً) يجب على الدول الموقع مندوبوهم على هذا الاتفاق أن تصدق عليه في مدة لا تزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق في مدينة لوندرة.

وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدق عليه من مندوب الدولة العلية مبين فيه الحقوق والإمتيازات التي يمكن منحها لمحمد علي باشا، وقبل إمضاء هذه المعاهدة ابتدأت إنجلترا في تحريض سكان لبنان من دروز ومارونية ونصيرية على شق عصا الطاعة وأرسل اللورد (بونسونبي) سفيرها لدى الباب العالي ترجمانه المستر وود إلى الشام لهذه الغاية وأعلم بذلك اللورد (بالمرستون) برسالة تاريخها ٢٩ يونيو سنة ١٨٤٠ محفوظة في سجلات المملكة. وبمجرد وصول المستر وود إلى محل مأموريته أخذ في نشر ذلك بين الأهالي ولقد نجح في

مأموريته وأشهر الجبليون العصيان وتجمعوا متسلحين وامتنعوا عن تأدية الخراج والمؤن العسكرية، لكن لم تتسع هذه الثورة الابتدائية لتداركها في أولها فأرسل المدد من مصر، واهتم كل من إبراهيم باشا وسليمان باشا وعباس باشا^(١) في إخمادها فأطفئت قبل أن يتعظم أمرها وعادت السكينة في كافة الأنحاء.

ومن ثم أخذ سليمان باشا في تحصين مدينة بيروت لعلمه أنها أول مينا معرضة لمراكب الانكليز وكذلك بنى القلاع لحماية كل الثغور ووضع بها المدافع الضخمة ولكن لسوء الحظ لم تجد هذه الإستحكامات نفعاً أمام مراكب الإنكليز والنمسا كما سيحيى.

ولما علمت الحكومة الإنكليزية أن المرحوم محمد علي باشا مهتم في إرسال العساكر والذخائر على طريق البحر إلى الشام أرادت أن تعارضه وتعاكسه، أما بأخذ دونانته أو تشتيتها وتفريقها ليتعذر إرسال المدد براً لوجود الصحراء الرملية الفاصلة بين مصر والشام من طريق العريش فأرسلت أوامرها في أوئل شهر يوليو سنة ١٨٤٠ إلى الكومودور (نابير) بأن يتوجه بمراكبه إلى مياه الشام ومصر لإستخلاص الدوناغة التركية لو خرجت من ميناء الإسكندرية وأسروا إحراق الدوناغة المصرية لو قابلها فلما علمت فرنسا بهذا الخبر أرسلت إحدى بوارجها البخارية إلى بيروت لتبلغ قائد الجيوش المصرية هذا الخبر المشؤم فرجعت في الحال المركب المصرية إلى الإسكندرية حتى إذا وصل الكومودور نابير لم يجدها فاغتاظ لذلك ويقال أنه قبل أن يبارح مياه بيروت أرسل إلى سليمان باشا كتاباً بتاريخ ١٤ يوليو يظهر له فيه تكدره من إجراءات القواد المصريين في الشام ومعاملتهم الثائرين بالقوة وأنهم أن لم يكفوا عن أعمالهم البربرية اضطر للتدخل وإنزال عساكره إلى بيروت فأجابه سليمان باشا بأنه لا

(١) هو عباس باشا ابن طوسون باشا بن محمد علي باشا الكبير ولد في جدة سنة ١٨١٦ حين كان والده ببلاد العرب لمقاتلة الوهابيين وتولى على الأريكة المصرية سنة ١٨٤٨ بعد موت عمه إبراهيم وقتل في ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤.

يقبل ملحوظاته ويعلمه بأنه لا يخاطبه من الآن فصاعداً، وإذا كان عنده ملحوظات مثل هذه فليدها لمحمد علي باشا.

ولم يتدئ شهر أغسطس سنة ١٨٤٠ إلا وقد ورد خبر معاهدة ١٥ يوليو إلى مصر والشام ووردت الأوامر إلى الدونانمة الإنكليزية بمحاصرة سواحل الشام وأسر المراكب المصرية، حربية كانت أو تجارية، فعاد ناير إلى بيروت بعد أن أخذ في طريقة كل ما قابله من المراكب فوصلها في ١٤ أغسطس، وأعلن العساكر المصرية بإخلاء بيروت وعكا في أقرب وقت ونشر في أنحاء الشام منشورات لإعلام الأهالي بما قرره الدول من إرجاع الشام لمصر ما عدا عكا وتحريضهم على العصيان على الحكومة المصرية وإظهار ولائهم للدولة العلية العثمانية.

وفي يوم ١٤ أغسطس بلغ خبر هذه المعاهدة رسماً إلى محمد علي باشا وأتت إليه بعد ذلك قناصل الدول الأربع المتحدة وعرضوا عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له ولورثته وولاية (عكا) له مدة حياته وأمهله ١٠ أيام لإعطاء جوابه، فطلب منهم كتابة بذلك فلبوا طلبه، ثم في اليوم التالي أفهموه أن فرنسا لا يمكنها مساعدته قط لتصميم الدول على تنفيذ ما اتفقت عليه ولو أدى ذلك إلى حرب أوربي لكنه أصر على عدم القبول والدفاع عن حقه إلى آخر رمق من حياته. وفي يوم ٢٦ أغسطس الذي هو غاية الميعاد المعطى له حضر إليه القناصل ومعهم مندوب الدولة وأخبروه أنه لا حق له الآن في ولاية (عكا)، وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر فقط له ولذريته فاحتد عليهم غضباً وطردهم من عنده قائلاً لهم كيف يجوز أن أسمح لكم بالمقام في بلادى وأنتم وكلاء أعدائى في هذه الديار، فانصرفوا وأعطوه عشرة أيام آخر لإبداء جوابه بحيث أن لم يجاب تكون الدول غير مسئولة عما يحصل له من الضرر وبعد انقضاء هذه المدة بدون أن يصل إليهم جوابه كتب القناصل بذلك إلى سفراء الدول بإسلامبول

فاجتمعوا عند الصدر الأعظم وقرّروا ياتحادهم أخذ مصر والشام من محمد علي باشا.

وفي أثناء هذه المدة كانت فرنسا، إتباعاً لرأى الميسو تيرس، تستعد للقتال مساعدة محمد علي باشا ولكن لسوء حظ الأمة المصرية كانت هذه الإستعدادات غير كافية ولا تتم إلا بعد ستة أشهر لعدم وجود السلاح والذخائر الكافية للحرب، لا سيما وأن فرنسا تكون في هذه الحالة مقاومة لأكبر دول أوربا ولما تحقق أهالي فرنسا أن حكومتهم لا تقوى على مساعدة محمد علي باشا فعلا بعد أن جرّأته على المقاومة ووعدته بالمساعدة هاج الرأى العام على الميسو تيرس المعضد لهذه السياسة، التي عادت على مصر بالضرر العظيم، حتى التزم بالإستعفاء في يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٤٠ لكن لم يجد استغفاره لمصر نفعاً لوقوفها بمفردها أمام أربع دول من أعظم الدول شأناً وأعلام مكانة وأكثرهم قوة إذ أرسلت فرنسا أوامرها لدونائمتها أولاً بالانسحاب إلى مياه اليونان ثم بالعودة إلى فرنسا وترك مصر والشام لمراكب انكلترا تحرق موانئها^(١) بمقدوفاتها الجهنمية وكان رجوع الدونائمة الفرنسية في ٩ أكتوبر سنة ١٨٤٠ أى قبل استعفاء الميسو تيرس بعشرين يوماً.

إطلاق المدافع على موانئ الشام:

هذا ولم تشترك الدول الأربع في محاربة محمد علي باشا بل قامت انكلترا وحدها بهذا العمل وساعدتها النمسا والدولة العلية ببعض من مراكبها وعساكرها البرية للترول إلى البر إذا اقتضى الحال ذلك، وأما دولة البروسيا فلم يكن لها مراكب إذ ذاك والروسيا لم ترد الابتعاد عن القسطنطينية ولما وصل إلى سليمان باشا بلاغ الكومودور نابير وعلم بمنشوراته للأهالي أعلن في الحال يجعل البلاد تحت الأحكام العسكرية وذلك خوفاً من قيام الجبلين إتباعاً للإنكليز، وأدخل في مدينة بيروت العدد الكافي من الجند وأرسل لإبراهيم باشا أن يحضر

(١) في الأصل (مينها) وقد اعتاد المؤلف على كتابة (مين) ليقصد بذلك موانئ (المحرر).

إليه بجيشه الذي كان معسكراً بقرب مدينة (بعلبك) ليشارك في المدافعة عن موانئ الشام فوصل إبراهيم باشا إلى بيروت وعسكر في ضواحيها وفي أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٤٠ وصل الأميرال (ستوبفورد) الذي كان يجول بمراكبه أمام الإسكندرية إلى مياه بيروت ليشارك مع (الكومودور نابير) في إطلاق المدافع على موانئ الشام وفي ١٠ منه وصلهما العساكر البرية وكانت مؤلفة من ألف وخمسمائة من البيادة الإنكليزية وثمانية آلاف بين أتراك وأرنؤد.

وفي يوم ١١ منه أنزلت هذه العساكر إلى البر في نقطة تبعد نحو ستة أميال في شمال بيروت ولم يتمكن إبراهيم باشا من منعهم لوجود هذه النقطة تحت حماية المدافع الإنكليزية وفي ظهر ذلك اليوم وبعد نزول هذه العساكر إلى البر أرسل إلى سليمان باشا بلاغ من الأميرالين الإنكليزي والنمساوي بأن يخلى مدينة بيروت حالاً فطلب منهم مسافة أربع وعشرين ساعة كي يتداول مع إبراهيم باشا في هذا الأمر الجلل، فلم يقبل طلبه وابتدى في إطلاق المدافع على المدينة واستمر الإطلاق حتى المساء وابتدى أيضاً في اليوم التالي قبل الفجر ولم ينقطع إلا بعد هدم أو حرق أغلب المدينة وأحرقت كذلك كل الموانئ الشامية قصد استخلاصها من محمد علي باشا وإرجاعها إلى الدولة العلية كما كانت، مع أن محمد علي باشا لم يأت بأمر يدل على رغبته في الخروج من تحت ظل الراية العثمانية بل لم يزل مؤكداً إخلاصه وولاءه للدولة ولم يطلب الإبقاء هذه الولايات له ولذريته مع تبعيتهم للباب العالي ودفعهم الخراج له اعترافاً ببقاء تلك التبعية، ولولا تقلب الأحوال بينه وبين السلطان لثم بينهما الاتفاق على أحسن وفاق وحقت دماء العباد ويدل على رغبة الطرفين في ذلك إرسال الباب العالي ساريم بك أولاً وعاكف أفندي ثانياً إلى محمد علي باشا لحل هذه المسألة.

ولا يخفى أن محمد علي باشا هو الذي خلص مصر من فئة المماليك الباغية ونشر بجميع جوانبها لواء الأمن وتسبب في ازدياد الزراعة وغو التجارة حتى

توفرت لمصر أسباب التمدن وتيسر بهذه الكيفية لقوافل التجارة الأورباوية المرور بين الإسكندرية والسويس بدون خوف من تعدى أحد عليها، وله الفضل أيضاً في استئصال شأفة الوهابيين من بلاد العرب وإعادة الأمن إلى طريق الحجاج واستخلص منهم مدينتي مكة والمدينة بعد أن استحال إذلالهم على أيدي العساكر الشاهانية، فضلاً عن أنه هو الذي فتح بلاد الروم، ولولا ما حصل لأعادها إلى الدولة العلية بعد ما يئست من رجوعها إليها وهو الذي أعاد الأمن إلى ربوع الشام بعد احتلاله لها ومنع تعدى البدو على الحضر كما أنه أبطل القتال المستمر الذي كان لا ينقطع دائماً بين الدروز والمارونية الأمر الذي لم يحصل قبل احتلاله ولا بعده^(١) وقد انحرف الأمير الكبير بشير عس عن موافقة إبراهيم باشا بعد أن حافظ على ولائه مدة، رغبة في أن يعطى له من لدن الباب العالي اسم أمير الجبل وينادى له بذلك على رؤس الأشهاد، فانعكس عليه أمره وعاد عليه شؤم خيائه فعزل عن إمارة الجبل وألزم بمفارقة الشام فانتبه من غفلته وندم على ما كان منه من الزلل حيث لا ينفعه الندم ثم أوصلته إحدى السفن الإنكليزية إلى بيروت فقابلته هناك الأميرال ستوبفورد وبعد أن عنفه على تذبذبه الذي حصل منه ونفاقه الذي أداه إلى أن يتبع الأقوى شوكة، وعدم حفظه للعهود، أمر بإرساله وتابعيه مع قليل من عائلته إلى جزيرة مالطة ولم يجبه إلى ما طلبه من إرساله إلى إيطاليا أو فرنسا فوصل هذه الجزيرة في أول نوفمبر سنة ١٨٤٠ وكان عمره إذ ذاك خمساً وثمانين سنة وأمضى ما بقي من عمره مفكراً في سرعة زوال النعمة وسوء عاقبة التذبذب وأن الأحوط للإنسان والأجدر به أن يحافظ على عهوده لأنه لو مات مع المحافظة عليها لمات بالشرف والمجد ولو عاش مع الخيانة والتلون لعاش مع الفضيحة والعار وتوفي في سنة ١٨٥٠ في قسطنطينية.

(١) لريد بذلك ما حصل في بلاد الشام من تعدى الدروز على المارونية بل وعلى كافة للمسيحيين من الطوائف الآخر سنة ١٨٦٠ وقتلهم إياهم وإحراقهم بيوتهم وفتحهم حرمة كنائسهم وعرض نساءهم ولولا حماية عبد القادر الجزائري لنصارى دمشق لقتلوا عن آخرهم الأمر الذي أوجب تدخل فرنسا واحتلال عساكرها البلاد للشامية مدة سنتين تقريباً ولولا نزاهة نابليون الثالث لصار هذا الاحتلال أبدياً.

إخلاء المصريين بلاد الشام:

هذا ولنقل بالإختصار، إن المراكب الإنكليزية والعساكر المختلطة التي أنزلت إلى البر في عدة مواضع تمكنت من أخذ جميع المدن الواقعة على البحر وإخراج المصريين منها حتى لم يكن لمحمد علي باشا بدّ من الإذعان إلى مطالب أوربا، وأنه من العبث المحض مقاومة الدول المتحدة فأصدر أوامره إلى ولده إبراهيم باشا بعدم تعريض عساكره للقتال والموت بلا فائدة وباستدعاء الجنود العسكرية في حدود الشام والإنجلاء عنها مع إتخاذ أنواع الإحتراس الكلى من العرب وسكان الجبل، فبلغ إبراهيم باشا هذه الأوامر إلى القواد جميعهم وأخذ الجنود في الرجوع من كل فج وصاروا يتجمعون حول قائدهم الأعظم الذى قادهم غير مرة إلى النصر والظفر وبعد ذلك قسم الجيش عدة فرق كل منها تحت إمرة أحد من اشتهر من القواد بالبسالة والتبصر في عواقب الأمور وصار الكل راجعين إلى مصر تاركين البلاد التي سفكوا فيها دمائهم وسيتركون فيها قبور إخوانهم.

وكان ابتداء الجيش في الرجوع إلى مصر في أواسط شهر ديسمبر سنة ١٨٤٠ ووصل الكل إلى القاهرة بعد أن ذاقوا مرارة النصب وتحملوا أنواع الذل والتعب وقاسوا شديد الوصب، مما تكل عن وصفه الأقلام ولا تحيط بنعته الأوهام ويكدر الأذهان فضلاً عن موت كثير منهم في الطريق بسبب مناوشات العرب الذين زادت همتهم وجراءهم لما تحققوا من عدم تمكن المصريين من العودة ورائهم واقتفاء آثارهم ومع ذلك فتمكن سليمان باشا من إرجاع مائة وخمسين مدفعاً بخيولها إلى مصر، وكثير من خيول السوارى التي هلك قسم عظيم منها بسبب العطش وشدة التعب.

وأما إبراهيم باشا وفرقة فلم يمكنهم العودة إلى القاهرة من طريق صحراء العريش لشدة ما لاقوه أثناء مرورهم في فلسطين من معارضة العرب لهم الذين سدوا عليهم الطريق واحتلوا جميع القناطر المبنية على الأنهر حتى اضطر لمحاربتهم

في كل يوم بل وفي كل ساعة، وأخيراً وصل مدينة غزة بعد أن استشهد في الطريق ثلاثة أرباع من معه وكثير من المستخدمين الملكيين الذين أرادوا الرجوع إلى وطنهم مع عائلاتهم، فلما وصل غزة كتب لوالده إشعاراً بقدومه وطلب منه إرسال ما يلزم من المراكب لنقل فرقة إلى الإسكندرية وما يلزم لمؤنتهم وملبسهم.

وفي أثناء هذه المدة عرض الكومودور نابير على محمد علي باشا أن الحكومة الإنكليزية تسعى لدى الباب العالي في إعطاء مصر له ولورثته، لو تنازل عن الشام وردّ الدونامة التركية إلى الدولة العلية فامثل لهذا الأمر وقبل هذه الشروط لحفظ مصر لذريته وتم بينهما الإتفاق في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠. ولم يقبل الباب العالي هذا الإتفاق إلا بعد تردد وإحجام وتداول عدة مخاطبات بينه وبين وكلاء الدول الأربع المتحدة المجتمعين بمدينة لوندرة بصفة مؤتمر وصدر بذلك فرمان هامبوني في تاريخ ٢١ ذى الحجة سنة ١٢٥٦ (١٣ فبراير سنة ١٨٤١) هذا مؤداه^(١).

أولاً: أن الولاية تكون لمن يختاره الباب العالي من أولاد محمد علي باشا المذكور ثم لأولاد أولاده المذكور وهلم جرا بحيث لا يكون لأولاد البنات الحق في الحكم مطلقاً.

ثانياً: يجب على من يعينه السلطان والياً على مصر أن يسافر بنفسه إلى القسطنطينية لإستلام فرمان التولية يده.

ثالثاً: أن الذى ينتخب والياً لمصر يعتبر كأحد وزراء الدولة في مخاطباته مع الباب العالي المراسلات السلطانية بحيث لا يكون له أدنى امتياز عنهم من هذه الحيثية مطلقاً.

(١) إن كافة التفصيلات الآتية مستمدة من مجموعة طبعت في بولاق سنة ١٨٨٦ ومشتمة على كافة للفرمانات والمحرفات الرسمية المختصة بمصر ابتداء معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠.

رابعاً: أن والى مصر يكون ملزماً بإتباع أحكام فرمان التنظيمات^(١) الذى أصدره السلطان عبد المجيد عند توليته، وكل ما صدر أو يصدره الباب العالى من القوانين واللوائح ويكون والى ملزماً أيضاً بالسير فى ولايته طبق المعاهدات المبرمة أو التى تبرم بين الباب العالى والدول الأجنبية أياً كانت بدون تغيير ولا تبديل، بما أن الحكومة المصرية لم تخرج من كونها ولاية عثمانية كباقي الولايات. خامساً: أن سائر الضرائب على اختلاف أنواعها يكون تحصيلها باسم الجناح السلطانى ويكون تحصيلها وتوزيعها بحسب القواعد المتبعة فى باقى ولايات الدولة العلية.

سادساً: أن ربع المتحصل من الضرائب يدفع إلى الخزينة الشاهانية والثلاثة أرباع الباقية يصرف منها ما يلزم لمصاريف الإدارة وجباية الأموال وما يلزم أيضاً للوالى وعائلته وثن الثبر^(٢) الذى يرسل سنوياً إلى مدينتى مكة والمدينة المنورة.

سابعاً: أن هذه الضريبة يصير دفعها مدة خمس سنين تبدأ من سنة ١٢٥٧ هجرية وبعد انقضاء هذه المدة يمكن تعديلها إما بزيادة أو نقصان حسب ما تستدعيه ثروة الحكومة والأهالى.

ثامناً: أنه لضبط المتحصل من الضرائب ومعرفة ما يخص الدولة بالتحقيق يلزم أن تعين لجنة من الدولة تقيم فى مصر لهذه الغاية وينظر فى تعيينها بعد، كما تقتضيه الإدارة الشاهانية.

تاسعاً: يكون لمصر الحق فى ضرب العملة من فضية وذهبية ونحاسية بشرط أن يكون ذلك باسم السلطان المعظم وأن لا تختلف العملة المصرية عن العملة العثمانية لا فى الشكل ولا فى الهيئة ولا فى العيار.

(١) هذا فرمان المعروف فى كتب الإفرنج بخط شريف الكلاخانة صدر فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٣٩ وتلى بجلسة حافلة حضرها وزراء وأعيان المملكة وقناصل الدول.

(٢) القمح (المحرر).

عاشراً: عدد الجيش المصرى يجب أن لا يتجاوز ثمانية عشر ألفاً مدة السلم أما فى حالة الحرب فيزاد هذا المقدار إلى الحد الذى تقرره الدولة بما أن العساكر المصرية ملزمة اذذاك بالاشتراك والمساعدة فى القتال مع باقى الجنود الشاهانية.

حادى عشر: أن مدة الخدمة العسكرية يجب أن لا تتجاوز خمس سنين ويكون جمع العسكر بطريق القرعة كما هو المتبع فى الدولة، وحيث أن الجيش المصرى كان يبلغ فى ذاك الوقت زهاء ثمانين ألفاً فيؤخذ منهم عشرون ألفاً ويصير إرجاع الباقى إلى بلادهم ويرسل أيضاً من هذا القدر ألفان إلى دار السعادة كى لا يبقى فى مصر إلا الثمانية عشر ألفاً المقررة.

ثانى عشر: حيث أن مدة الخدمة العسكرية خمس سنين فيؤخذ سنوياً من أنفار القرعة أربعة آلاف شاب يرسل منهم إلى دار الخلافة أربعمئة ويبقى الباقيون فى مصر.

ثالث عشر: أن من أذى مدة الخدمة المطلوبة من الجند يعود إلى بلده ولا يجوز إدخاله فى الجيش مرة أخرى.

رابع عشر: أن ملابس العساكر المصرية وعلامات رتبهم تكون مشابهة لجنس ولون ملابس العساكر الشاهانية.

خامس عشر: كذلك ملابس البحار وضباط البحرية وبيارق المراكب تكون مماثلة لما هو متبع فى بحرية الدولة العلية.

سادس عشر: لا يكون لوالى مصر الحق فى منح الرتب العسكرية للضباط البحرية والبرية إلا لغاية رتبة صاغ قول أغاسى بدخول الغاية فى المغيا.

سابع عشر: لا يكون لوالى مصر الحق فى إنشاء سفن حربية إلا بعد الحصول على إذن صريح من الدولة العلية.

ثامن عشر: حيث أن حق الوراثة على ولاية مصر لم يمنح ل محمد على باشا وعائلته إلا بهذه الشروط فلو أدخلوا ياحدها، سقط حقهم وصار لجلالة السلطان الحق فى تولية من يشاء.

ولقد منحه الباب العالي أيضا ولايات النوبة ودارفور وكردفان وسنار مدة حياته بدون أن تنتقل إلى ورثته كمصر، بمقتضى فرمان شاهاني أصدر في اليوم الذي أصدر فيه فرمان الأول أعني في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وكلف أن يقدم حساباً عن هذه الولايات سنوياً إلى دار الخلافة العظمى، وأن يمنع ما كان متبعاً في السودان من إغارة الجند على قرى الأهالي وخطف بناتهم وصبياتهم لبيعوها ويستولوا على ثمنها خصماً من ماهياتهم ومرتباتهم، وأن تمنع كلية عادة خصى بعض هؤلاء التعيسى الحظ لإستخدامهم في السرايات بصفة حرس على الحرم (أغاوات)، وأن يحفظ للضباط الموجودين رتبهم ويرسل إلى الباب العالي قائمة بأسمائهم من الرتبة التالية لصاغ قول أغاسي فما فوق ليصدر أمره بتثبيتهم في وظائفهم.

فقبل محمد علي باشا كل هذه الشروط ولو عن غير رضا ثم طلب من الدول أن تساعد في تخفيف بعضها وتغيير البعض الآخر فقبلت ذلك وأرسلت إلى الباب العالي لائحة بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٨٤١ طلبت منه بها أن يعامله على حسب ما هو مدون بملحق معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وبلائحة ٣٠ يناير سنة ١٨٤١ فتنازلت الحضرة السلطانية بمقتضى فرمان تاريخه ١٩ إبريل سنة ١٨٤١ بتحويل فرمانها الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ وهاك أهم ما فيه من الشروط:

أولاً: أن حق الوراثة يكون للأكبر سناً بين أولاده وأولاد أولاده الذكور مع بقاء الشرط الملزم لمن يستحق الولاية بهذه الكيفية بالسفر إلى مقر دار الخلافة العظمى لإستلامه فرمان بيده.

ثانياً: أن ما تدفعه الحكومة المصرية للدولة العلية صاحبة السيادة بصفة خراج لا يكون ربع إيراد الحكومة قبل خصم مصاريف الجباية والإدارة بل يصير تقديره فيما بعد مع مراعاة حالة الحكومة المصرية.

ثالثاً: أن يكون للوالى حق في منح الرتب لغاية رتبة أمير ألاى بدخول الغاية في المغياء، أما ما فوق ذلك فلا يكون إلا بإذن من الباب العالى.

ولما أقرت الدول على هذا التحويل بمقتضى لائحة تاريخها ١٠ مايو سنة ١٨٤١ أصدرت الحضرة الشاهانية فرماناً آخر فى ١١ ربيع آخر سنة ١٢٥٧ الموافق أول يونيو سنة ١٨٤١ مؤيداً لما فى فرمان السابق وفى غرة جمادى الاولى سنة ١٢٥٧ (٢٠ يوليو سنة ١٨٤١) صدر فرمان آخر يجعل مقدار ما تدفعه الحكومة المصرية إلى الدولة العلية سنوياً ثمانية آلاف كيسه^(١).

* * *

وبذا انتهت المسألة المصرية ونال الباب العالى مرغوبه من إرجاع الحكومة المصرية إلى حدودها، ورجوع الشام إلى الحكومة العثمانية فعاد هذا القطر إلى ما كان عليه من الفوضى وعدم الإتفاق بين الشعوب العديدة النازلة به المختلفة المذاهب والعقائد والعوائد حتى لا تمر سنة إلا ويحصل به ما يخل بالراحة العمومية بين الدروز والنصارى الأمر الذى كان امتنع كلية فى المدة التى كانت البلاد فيها تابعة للحكومة المصرية أى من سنة ١٨٣١ إلى أواخر سنة ١٨٤٠ وما كان ذلك إلا لحسن إدارة الحكومة المصرية وشدة بطش إبراهيم باشا ومن تحت أمره ومعاملتهم الأهالى بالعدل والقسطاس بدون نظر إلى دياناتهم وجنسياتهم ولو استمرت تبعيتها لمصر مدة نصف قرن فقط لزال ما بين الأهالى من العداوة والبغضاء وساروا باتحاد تام فى طريق التقدم.

هذا ولما وصل محمد على باشا كتاب ولده إبراهيم باشا بطلب ما تقدم أرسل إليه كل ما يلزم لإرجاع الجند ومن معهم من المستخدمين الملكيين

(١) واستمر دفع الخراج بهذه الكيفية لغاية سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٥م) ثم زيد مقداره إلى مائة وخمسين ألف كيسه أعنى ٧٥٠٠٠٠ جنيه عثمانى بمقتضى فرمان صادر بتاريخ ١٢ محرم سنة ٨٣ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ عقب تنازل الدولة العلية لمصر من مدينتى سواكن ومصوع ومديرية الناكه وتغيير ترتيب الوراثة فى خديوية مصر فى عهد الخديوى السابق إسماعيل باشا بأن حصرت الوراثة فى الأكبر من أولاده ثم لولاد الأكبر ثم فى إخوته عند عدم وجود ولد له ثم لولاد الإخوة على هذا الترتيب.

وعائلاتهم ولما أخذ العساكر في التزول إلى المراكب أرسل إليه الكومودور نابير بأن يترك في مدينة غزة كل من بجيشه من السوريين ليرجعوا إلى بلادهم وجباهم لما أن الشام قد انسلخت عن مصر وأعيدت إلى الحكومة العثمانية فالتزم بتركهم وكان لذلك تأثير محزن في قلوب المصريين لما علموا أن كل أتعابهم وما سفكوه من دمائهم وما فقدوه من إخوانهم في ميادين القتال لم يعد على وطنهم بشئ بل ذهب أدراج الرياح ولكنهم تسلوا عن ذلك بما نالوه من الشرف وأكسب وطنهم فخراً مخلداً ومجداً مؤبداً.

ومن غريب المصادفة وأعجبها أن رجوع إبراهيم باشا مع جيشه إلى الإسكندرية وافق يوم خروج الدونامة التركية من ميناء الإسكندرية في ٢٣ يناير سنة ١٨٤١ بعد أن مكثت بها ستة أشهر تقريباً والتزم محمد علي باشا بردها إلى الدولة العلية بمقتضى الوفاق الذي أبرم بينه وبين الكومودور نابير في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠، فكان لهذا التصادف وقع محزن في قلب محمد علي باشا لضياح أتعابه هدرأ وهباء منشوراً، لكنه علم أنه يلزمه ومن الواجب عليه أن يفرغ جهده ويبذل همه في ترقية مصر وإصلاح شؤونها فإنها لو اعتنى بأمرها لدت أضعافاً مما ينتج منها وهي على هذه الحالة.

ولم يظهر محمد علي باشا ألماً مما أصابه من ضياح ولا يتي الشام وكريد اللتين صرف فيهما الأرواح العزيزة والأموال النفيسة بل أظهر أن قصده الوحيد هو ترقية مصر وإدخالها في سلك الأمم المتقدمة، وأن الأحوال اضطرتة إلى فتح البلاد الشامية لا عن سبق إصرار ولتبليغ ذلك إلى الدول أمر باغوص بيك ناظر خارجيته أن يرسل لها منشوراً يقول فيه أن الله قد منّ على مصر بانتهاء الحرب طبق إرادته سبحانه وتعالى إذ لا يحصل في العالم شئ إلا كما قررت إرادته في الأزل وأبرزته قدرته إلى الوجود وأن جلالة السلطان المعظم قد منحته ولاية مصر له ولذريته إلى ما شاء الله وأنه يشكر الدول العظام على مساعدتهم إياه على نوال هذه الغاية، التي لولاها لما حصل عليها، وأنه سيفرغ ما في وسعه

لتخفيف أثقال الأهالي وتحسين المالية التي نصبت إيراداتها لما استلزمه الحرب من المصاريف الباهظة التي جاءت بغير جدوى وإصلاح الإدارة وتتميم ما ابتدئ به من الأشغال النافعة للرى الذى هو قوام الزراعة وفتح الخلجان لتسهيل الملاحة والتجارة ونشر العلم بين أفراد الامة ليكون منها رجال أكفاء يقومون بخدمة وطنهم حق القيام.

وفى أوائل شهر أغسطس سنة ١٨٤١ صرف الجيش المصرى، ولم يبق منه إلا القدر المعين فى فرمان الذى سبقت الإشارة إليه وبهذا اقتتعت الدول بخضوعه لأوامر الدولة العلية وأمرت قناصلها بالرجوع إلى الاسكندرية فرفع قنصل النمسا العلم فى ١٥ أغسطس وفى ٢٣ منه رفعت بقية الدول أعلامها ورجعت المياه إلى مجاريها وأهدى محمد على باشا إلى قنصل انكلترا الموسيو (برنت) حصاناً مطهماً وسيفاً مرصعاً.

وفى أوائل شهر أكتوبر من هذه السنة أرسل السلطان إلى مصر أحد ياورانه ليظهر لوالىها سروره من رجوعه عن المحاربة ودخوله تحت حماية الدولة العثمانية ويقدم له سيفاً هدية من الحضرة السلطانية مع أفخر نياشين الدولة وكتاباً من جلالة السلطان، ولما علم محمد على باشا بذلك أرسل ولده سعيد باشا^(١) لملاقاه الياور السلطاني عند نزوله إلى الاسكندرية فتوجه إليه وقابله هناك ثم وصلا إلى سراى شبرا من طريق البحر فى ١٠ أكتوبر وفى يوم ١١ منه صعد الياوران السلطاني إلى قلعة مصر فى موكب حافل يتقدمه آلاى من المشاة وأليان من السوارى مع موسيقاتهم وكان الإزدحام شديد المشاهدة هذا المندوب السامى الذى لم يحضر إلى مصر مثله منذ مدة. وقابله محمد على باشا فى ديوانه بغاية الأبهة والجلال تحفه يميناً وشمالاً أكابر حكومته مع كافة الضباط والقواد الذين

(١) ولد هذا الأمير سنة ١٨٢٢ وتربى تربية حسنة وتقلد وظائف مهمة وحارب تحت إمرة أخيه إبراهيم باشا فى بلاد الشام وصعد إلى أريكة الحكومة المصرية سنة ١٨٥٤ بعد قتل عباس باشا فى ١٤ يوليو سنة ٥٤ وتوفى سنة ١٨٦٣ وم أشهر أعماله مساعدته الموسيو دى لسيبس عند فتح برزخ السويس وتأسيس مدينة بورسعيد الواقعة على فم القنال من جهة البحر الأبيض المتوسط.

امتازوا في واقعة (نصيبين) وما قبلها وكان سليمان باشا من الحاضرين وواقفاً في أقرب موضع من سموّ الوالي فاندھش الياوران السامى من هذا الجمع العظيم والجيش الذى اشتهر بالمهارة والشجاعة، وقدم وقتئذ الهدية لمحمد على باشا وانصرف بعد أن قبلها منه بكل أبهة وجلال ثم بعد ذلك أخذ في تميم الإصلاحات التى عزم عليها الإيجاد التوازن فى المالية المصرية، فأصدر أمره بترع المدافع من المراكب الحربية واستعمالها فى التجارة كى يظهر لأوربا أنه اكتفى واقتنع بولاية مصر الخصبة التربة المعتدلة الهواء الغزيرة المياه وقد تم ذلك فى أوائل سنة ١٨٤٢ ولم يبق من هذه المراكب العظيمة إلا العدد الكافى للحكومة والأمة.

وفى أثناء هذه السنة زار الخديوى اقليم الفيوم وأبطل احتكار الجلد والصوف ولما عاد إلى المحروسة أبطل احتكار سائر الأصناف التجارية ما عدا القطن خوفاً من نضوب الخزينة، إذ ربح بيع القطن من أهم مواردها^(١) وكان عازماً أيضاً على التنازل عن احتكاره وجعل تجارته حرة لو سمحت خزينة الحكومة بذلك.

وفى ٩ يناير سنة ١٨٤٤ توفى باغوص بيك وزير خارجيته وكان لموته تأثير محزن عند محمد على باشا لما كان له عنده من المكانة العظمى لأنه كان يعتمد عليه فى الأعمال المهمة والمخابرات المدلّمة وخلفه فى منصبه أرتين أفندى.

ثم فى أوائل شهر أغسطس من هذه السنة خطر بباله أن يرسل لأوربا بائنين من أعضاء عائلته الكريمة ليكونا قدوة لمن أرسل قبلهم ولمن يرافقهم من شبان المصريين وسبباً لمراعاة الحكومة الفرنسية للإرسالية المصرية، وبعد أن بحث سموه فى هذا المشروع وتأمل فيه وتفكر فى نتائجه الحسنة وبعد المباحثة فى ذلك مع سليمان باشا قبل أن يرسل إلى مدينة باريس حسين بيك ثالث أولاده

^(١) إن الحكومة فى ذات الوقت كانت محتكرة أغلب محصولات الأرض وغيرها من معامل الدجاج ولما كن حرق الجير والجبس فكان الفلاح ملزماً ببيع متحصلات أرضه للحكومة بحسب الاثمان التى تقدرها وهى تبيعها داخل القطر وخارجه بالسعر الحاضر فكان يعود عليه من ذلك ربح عظيم.

والأمير أحمد بيك نجل ولده إبراهيم باشا، وبأن يرسل معهما أربعاً وثلاثين شاباً مصرياً وكلف سليمان باشا بانتخاب البعض من المدارس الحربية والمدارس الهندسية (مهندسخانة) فانتخب أحد عشر تلميذاً من مدرسة الطبوجية وستة عشر من مدرسة السوارى وسبعة من المهندسخانة وأرسل الجميع إلى مدارس باريس الحربية.

وفي ٢٥ من شهر أغسطس سنة ١٨٤٤ وصل فريق منهم إلى مدينة ليون وفي ٢٨ منه وصلها الأميران حسين بيك وأحمد بيك فقبولا بكل تبجيل وتكريم وتفخيم وتعظيم ونزلا بلوكاندة (أوربا) وزارهما فيها حاكم المدينة وأعضاء مجالسها وقضاها وسائر مأمورى الحكومة وقضيا بهذه المدينة يومين زارا في خلالها آثارها ومحلاتها العمومية وضواحيها اللطيفة وتنزها في هوى السون والرون اللذين يجتمعان في وسطها وكان يرافقهما في جولتهما إثنان من ياوران الملك لويس فيليب، كان عندهما الملك لملاقتهما عند نزولهما في مدينة مرسيليا^(١) ومرافقتهما إلى مدينة باريس الزاهرة وكانت مقابلة الأهالى لهما في جميع البلاد التى مرّا بها تظهر محبة الفرنسيين لهما ولعائلتهما، ولما وصلا إلى مدينة باريس قوبلا بأحسن مما قوبلا به في مدينة (ليون) وقابلهما الملك وأحسن وفادتهما حق الإحسان وتمتعا منه بالإمتنان.

زيارة الدوك دى موبانسيه لمصر:

ولإظهار ما حصل له من السرور لإختيار محمد على باشا مدينة باريس لتهديب أخلاق أولاده وثمره فؤاده وتوسيع عقولهم وزيادة علومهم، أرسل ولده الدوك (دى موبانسيه) إلى مصر ليتم دراسة فن التاريخ بزيارة آثار مصر

(١) مرسيليا مدينة واقعة على البحر الأبيض المتوسط أسسها الفينيقيون سنة ٦٠٠ قبل المسيح وكانت فى عصر الرومانيين مناصرة لمدينة قرطاجنة فكانت مراكبها تمر على كافة سواحل البحر المتوسط وتجوب عجايب المحيط الأطلنطيقى حتى جزائر بريطانيا وبحر بلطيق وخطها العرب مرارا كثيرة فى القرن الثالث عشر للمسيح ولقد زادت تجارتها بعد دخول الفرنسيين جزائر الغرب وفتح خليج السويس ولها مع مصر علاقات كثيرة.

القديمة منبع العلوم والمعارف ومهد الفنون واللطائف فوصل الأمير الفرنساوى إلى ثغر الاسكندرية فى صباح ٣٠ يونيه سنة ١٨٤٥ وكان فى انتظاره بالثغر الأمير سعيد باشا ابن سمو الوالى فلما علم بقدوم السفينة المقلة للدوك توجه إليها ليهنته بسلامة الوصول وكان ممن صحبه أيضا فى هذه الزيارة جاليس باشا المهندس الفرنساوى الذى أرسلته الحكومة الفرنسية لمصر سنة ١٨٤٠ لتحسين الثغر الأسكندرى من طوارئ الزمان ونوائب الحدثان.

وبعد ظهر ذلك اليوم بثلاث ساعات جاء سعيد باشا وأخبره أن والده محمد على باشا قد جعل سراى القبارى تحت أمره ويدعوه إلى التزول بها كى يحظى بزيارة جنابه العالى، فقبل الدوك منه ذلك وشكره على عظيم التفاته وحسن اعتناؤه ثم نزلا من السفينة الفرنسية التى حيثهما بإطلاقها واحداً وعشرين مدفعاً وجاوبتها السفن المصرية بمثل ذلك.

فوصل إلى سراية القبارى ومكث فيها برهة شرب فى خلالها القهوة والمرطبات ثم وفد على السراى محمد على باشا فى عربة تجرها ستة من أحسن الخيول العربية وتحف بها كوكبة من فرسان الممالك لابسين ثياباً فاخرة مزركشة بالذهب والحجارة الكريمة على أحسن نوع وأتم وضع، فقابل الدوك بأحسن مقابلة وشكره على تشريفه الديار المصرية ثم عاد بمثل ما جاء به من الإجلال والتعظيم.

وفى صبيحة اليوم التالى ردّ الدوك إلى الوالى الزيارة فى سراى رأس التين العامرة فقابلته الوالى وسائر ضباطه البرية والبحرية بدون أن ينقص منهم أحد إلا سليمان باشا فإنه كان مريضاً بالقاهرة مما كابده من الأتعاب أثناء عودته من الشام وفى مساء هذه الليلة صنع له سمو الوالى مأدبة فاخرة دعى إليها سراة القوم وأكابرهم وأعيانهم وسائر الموظفين من الفرنسيين وقدم لجناب الدوك الدكتور (كلوت بيك) مؤسس مدرسة الطب و(لنيريك) مؤسس مدرسة المهندسخانة وغيرهما من الفرنسيين الذين لهم الفضل الأعظم فى تأسيس

المدارس وبناء القناطر وكذلك كافة ما حصلت عليه مصر من التقدم في زمن المغفور له محمد علي باشا، ولقد صرف الدوك أسبوعاً كاملاً في مدينة الإسكندرية قضاءه في زيارة الاستحكامات والإستباليات والسفن الحربية وسرّ كثيراً من السفينة المسماة (بنى سويف) أكبر سفن المصريين فكان فيها مائة مدفع وألف ومائة جندي وكان قائدها سعيد باشا.

ثم ركب النيل ومعه سعيد باشا وعباس باشا فوصلوا إلى مصر ونزلوا بسرّاي شبرا في يوم ٨ يوليو وكان بانتظارهم هناك إبراهيم باشا وبعد أن استراح الدوك قليلاً ركب في عربة مع إبراهيم باشا وسارا إلى القلعة حيث كانت معدة لإقامة محمد علي باشا فوصلها في الساعة ١٠ مساءً وكان مرورهما بين صفوف الأهالي والعساكر يتقدمهم جم غفير من حاملي المشاعل وفي يوم ٩ منه طاف الدوك في أنحاء القاهرة للتفرج على ما بها من الآثار العربية، فشاهد كافة المساجد القديمة وقبور الخلفاء، وعند الأصيل توجه إلى مصر القديمة وعاد سليمان باشا وكان طريق الفراش فسّر كثيراً من تنازل نجل ملك فرنسا إلى زيارته ثم شارف مقياس النيل بجزيرة الروضة (النيل) وفي يوم ١٠ منه أقيمت صلاة احتفالية في الكنيسة الفرنسية تذكراً لعيد جلالة ملكة فرنسا (ماري آميلي) والددة الدوك فحضرها مع كل ضباط الدونانمة التي رافقته إلى الإسكندرية.

وفي مساء ذلك اليوم زار الأمير عباس باشا وتوجها معا على طريق البر إلى مدينة السويس واستراحا أثناء السير في السرّاي التي بناها عباس باشا في الصحراء وبعد أن شارفا المدينة والمينا ذهب الدوك إلى جبل طود سينا لزيارة الأماكن المقدسة هناك وعادا إلى القاهرة. وأظهر الدوك رغبته في السفر على طريق النيل إلى مصر العليا وزيارة آثار مدينة طيبة فقبل له أن السفر إلى هذه الجهات لا يستحسن إلا في زمن الشتاء لما أن النيل يتدنى في الزيارة في شهر يوليو وأن الأولى العودة إلى مصر في أواخر الشتاء حين تكون مياه النيل قد

تناقصت فقال الدوك أنه لا يمكن ذلك لأنه ربما تشب نار الحرب في بلاد الجزائر في أوائل الربيع وأنه لا بد أن يحضرها، فسلم عباس باشا ما طلبه الدوك وأصدر أوامره المشددة بتجهيز ثلاثة بواخر نيلية فجهزت في أسرع وقت وعزم الدوك على السفر في ١٤ يوليو سنة ١٨٤٥. ففي صبيحة ذلك اليوم توجه الدوك إلى السراى بشبرا لوداع الأمير إبراهيم باشا فوجد عنده سليمان باشا الفرنساوى، وكان قد نقه من مرضه قليلاً وجاء لتأدية واجبات العبودية لابن ملكه وخالف تشديدات الأطباء عليه بعدم الخروج خوفاً من عود المرض إليه فقابلته الدوك أحسن مقابلة وأظهر له سرور الملك وسرور الأمة الفرنساوية كلها مما أتاحه الله للمصريين من النصر في بلاد الشام بحسن ترتيباته العسكرية وتنظيماته الحربية، وأن فرنسا تودّ وجود أحد أبنائها الأعزة في مثل هذا المنصب لأن هذا مما يعلى كلمتها ويحقق رغبتها في تقدم مصر التي كانت ولم تنزل في مقدمة البلاد الشرقية.

ثم عاد الكل إلى فرضة بولاق حيث تنتظرهم البواخر المعدة لسفر الدوك فنزل في الأولى مع بعض معيته وكان يخفق عليها العلم الملوكي الفرنساوى ونزل في الثانية الأمير سعيد باشا وحاشيته وفي الثالثة بقية معية الأميرين الفرنساوى والمصرى وكان العلم المصرى المنصور الذى تبعه المصريون في ساحة القتال غير مرة يرفرف فوق الباخرتين الأخريين.

وبعد أن ودعه الأمير إبراهيم باشا وسليمان باشا ومن كان معهما من الامراء وأكابر الأعيان أقفلت البواخر في الساعة ١٠ صباحاً وكان الجو صحوا والرياح رخوا فسارت تشق عباب البحر، ولم تنزل الأبصار شاخصة إليها حتى بعدت عن الأنظار ثم انصرف الجميع وعاد كل إلى محله مسرورا مما رآه من لطف الدوك وحاشيته ولم يلبث الدوك في سياحته طويلاً بل عاد بعد أن شارف المنيا وأسيوط ودندرة وآثار مدينة طيبة ثم سافر توطاً إلى فرنسا.

ولقد سرّ والده (لويس فيليب) لما بلغه ما لقيه ولده في الديار المصرية من حسن الملاقاة وكرم الوفادة فأهدى لسمو محمد علي باشا الجران كوردون من نيشان الليجيون دونور، وكان إرساله مع أحد مستخدمي نظارة خارجيته المسيو (دى منترو) فوصل المرسل إلى مصر في ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٥ واستقبله سمو الوالى بقاعة الإستقبال بسرّى القلعة العامرة وكان الإحتفال جامعاً لكافة أمراء مصر وقوادها البرية والبحرية الذين اشتهروا وحازوا قصب السبق في حروب الشام الأخيرة، ولم يشهد هذا الاحتفال سليمان باشا الفرنساوى لأنه كان مرافقاً لإبراهيم باشا في بلاد إيطاليا وكان قد ذهب إليها طلباً للشفاء من مرض باطنى ألّم به منذ مدة وكان الأطباء أشاروا عليه بالتوجه إليها لمداواته بالإستحمام بالمياه المعدنية.

٩ - رحلة إبراهيم باشا إلى أوروبا

سفر إبراهيم باشا إلى أوروبا:

وأما محمد على باشا فلم يكن سروره بهذه الهدية صافياً، بل كان يشوبه الكدر مما ألم بأكبر أولاده الأمير إبراهيم باشا من المرض الداخلى الذى أنهك قواه حتى تحيرت الأطباء فى علاجه وفى آخر الأمر أشار عليه الدكتور (اللمان) طبيبه الخاص به بأن يسافر فى أوائل شهر سبتمبر سنة ١٨٤٥ إلى حمامات (سان جيتانو) بالقرب من مدينة بيز^(١) بإيطاليا، فسافر إليها وبعد أن استمر وداوم على الإستحمام فى مياهها المعدنية مدة بدون فائدة، أشار عليه الأطباء مرة ثانية بالتوجه إلى مياه فرنیه الواقعة على جبال البيرنية الشامخة الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا فكتب إبراهيم باشا لوالده بذلك وطلب منه إخبار حكومة فرنسا بحضوره إليها فانشرح (لويز فيليب) ملك فرنسا لحنى شجاع مصر وفاتح مورة والشام الذى عم ذكره جميع الأقطار إلى بلاده، ولقد أمر والد الأمير سليمان باشا بمرافقته لولده الأعز فى هذه السياحة كي يكون له دليلاً ومرشداً فى هذه البلاد التى لم يسبق له توجه إليها، فسر بذلك لما أنه يؤد أن يرى وطنه العزيز بعد أن غاب عنه مدة ٢٥ سنة فسافر إلى (بيزا) ومنها إلى (فلورنسا) مع إبراهيم باشا وحاشيته ومنها إلى (ليفورن) فجنوة^(٢) وقابله شارل البريت^(١) ملك سردينيا فرحب به وأضافه أربعة أيام متوالية.

(١) هى فرضة واقعة على البحر المتوسط وهى قديمة العهد جداً وكانت فى القرن الثالث عشر للميلاد من أعظم بلاد إيطاليا تجارة ولها امتياز التجارة فى القسطنطينية وأنطاكية وسائر موانئ الشام والروم ثم تعطلت تجارتها بسبب تداخلها فى الحروب الدينية بين البابا وإمبراطورية ألمانيا ولم تعد بعد ذلك إلى ما كانت عليه من التقدم فى أنواع التجارة والملاحة ثم فتحها نابليون الأول وصارت تابعة لفرنسا من سنة ١٨٠٧ إلى سنة ١٨١٤ ومن ذلك العهد تبعت بلاد التوسكان فى تقلباتها السياسية وهى الآن دخلت ضمن مملكة إيطاليا.

(٢) هى مدينة قديمة واقعة على البحر المتوسط يقال إنها أسست قبل الميلاد بسبع مائة سنة وبعد أن حكمها الرومان مدة ودخلها غالب طوائف المتوحشين الذين أغاروا على بلاد إيطاليا فى القرن الخامس واستقلت فى القرن العاشر وصارت جمهورية تجارية كانت تعادى جمهورية البندقية واستمرت كذلك إلى آخر الجيل الخامس عشر حيث بلغت ذروة المجد والغنى ثم أخذت فى الإنحطاط شيئاً فشيئاً لتتأزع أغنيانها فى السلطة وفى سنة ١٨٠٥ احتلها نابليون الأول وصارت تابعة لفرنسا إلى سنة ١٨١٤ حيث أعطاها مؤتمر فيينا إلى ملك سردينيا وهى الآن ضمن مملكة إيطاليا.

وفي أثناء إقامة إبراهيم باشا في مدينة جنوه سافر سليمان باشا إلى مدينة طولون^(٢) من أعمال فرنسا، لإجراء الترتيبات اللازمة لإقامة أميره حين قدومه إلى أرض فرنسا فوصلها في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٤٥ وكان في انتظاره هناك مأمور الحكومة وجم غفير من الأهالي أتوا من كل فج لمقابلة هذا الشجاع الفرنسي الذي تجرع غصص الفاقة في فرنسا وخرج منها فقيراً وإن لم يكن حقيراً، وعاد إليها بعد خمس وعشرين سنة مكلاً بالنصر والظفر ومتحصلاً على رضا سمو أميره وافتخار كافة ضباط الجيش المصري به حيث قام بجميع ما يلزم للوطن العزيز بالذمة الصادقة والهمة العالية.

فبعد أن أجر المحلات اللازمة لإقامة أميره وحاشيته قضى مدة انتظاره في التفرج على استحکامات المدينة من جهتي البر والبحر وعلى ما بها من الترسانات والسفن الحربية وجميع الأعمال الفنية، وبينما جميع الأهالي منتظرون سمو الأمير المصري المنصور متشوقون لرؤيته إذ وصل إليها من طريق البحر في صباح يوم ٢ نوفمبر، تنقله إحدى سفن مصر الحربية، وأدت التحية لهذا الأمير بارجة الأدميرال بطلقها أحداً وعشرين مدفعاً ورفعها العلم المصري على أعلى صواريخها وكذلك كافة السفن الفرنسية رفعت العلم المصري ثم أطلق من إحدى الطوابي البرية واحد وعشرون مدفعاً وأرسلت الأخبار تَوْاً إلى باريس بالتلغراف لإخبار الملك بقدوم سمو ضيفه فأرسل الملك تلغرافاً يهنئه بسلامة وصوله وقد حيته أيضاً بإطلاق المدافع السفينة النابليانية المسماة بأوزانيا التي كانت راسية بطولون، وأما سفن الدول الأخرى فاكتفت برفع أعلامها مع

(١) ولد هذا الملك في سنة ١٧٩٨ وتربى في فرنسا حيث كان عقله يميل إلى حب الحرية الفرنسية وفي سنة ١٨٢١ تولى ملكاً على مملكة سردينيا وأنخل فيها بإصلاحات كثيرة وأحدث فيها منافع عديدة وساعد تقدم الصناعة والفلاحة ولبطل استعباد الأهالي وفي سنة ١٨٤٨ ساعد طابلي الحرية من الإيطاليين على محاربة النمسا فانتصر عليها في عدة مواقع ولكنه انهزم في واقعة نوفار الشهيرة وفي ٢٣ مارس سنة ١٨٤٩ تنازل عن الملك لولده فيكتور عمانويل وانتقل إلى البورتغال وتوفي هناك بعد قليل في مدينة لوبورتو.

(٢) هي من أحصن موانئ فرنسا الحربية المنبئة للكتنة على البحر المتوسط وبها مرسى دولنمة هذا البحر ويبلغ عدد سكانها نيفاً ومائة ألف نسمة وتجارتها قليلة.

العلم المصرى على جميع صواريتها وكان دخول السفينة المقلّة لسموه المينا في الساعة ٨ صباحاً وعند دخولها ذهب لتهنئته على السفينة حاكم المدينة البحرى ليتلقى من سموه الأوامر، وبعد أن مكث في الواور ثلاث ساعات للإستراحة من مشاق البحر نزل إلى البر في الساعة الحادية عشرة وكان في انتظاره على الرصيف الماركيز دى لافاليت مندوباً من قبل جلالة الملك والحاكم البحرى وكثير من الضباط البرية والبحرية، وكان الألاى الثالث من المشاة البحرية مصطفاً على جهتي طريق الترسانة والألاى التاسع عشر من المشاة البرية مصطفاً أيضاً من باب الترسانة إلى سراى الحكومة المعدة لإقامة سموه، وكان في مقدمة الموكب فرقة من الجندرمة يتبعها ضباط البر والبحر ثم سمو الأمير إبراهيم باشا وعن يساره سليمان باشا وهما لابسان أفخر الملابس الشرقية المزركشة بالذهب، وخلفهما عدد كثير من الخدم السودانيين حاملين الشبكات المحلاة بالحرير والتراكيب المنمنمة، ومر سموه بهذه الهيئة بين صفوف العساكر والأهالى والكل يقابلونه بالتهليل والتفخيم والتكريم والتعظيم.

ثم في اليوم التالى سافر سليمان باشا إلى مدينة مرسيليا فبورفاندر، فبرنيان، ففرنيه لإستعداد المحلات اللازمة لإقامة الأمير وتابعيه وبعد تأدية هذه المأمورية عاد الباشا إلى مدينة برنيان وكان قد دعاه الجنرال الكونت دى كاستيلان قائد الفرقة الفرنساوية العسكرية في هذه الجهة ليشهد المناورات التى عزم الكونت على عملها إكراماً له ثم بعد أن حضر هذه المناورات عاد إلى مدينة بورفاندر لانتظار أميره.

وفي يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٤٥ بارح سموه مدينة طولون قاصداً مدينة مارسيليا فوصلها عند ظهر ذلك اليوم، ولما وصل حيّته القلاع باطلاق مدافعها وعند نزول سموه إلى البر قابله الجنرال (كونت دوبول) قائد الحامية وسائر مأمورى الحكومة وكان نزول سموه في منزل أحد التجار المشهورين الذين لهم علاقات دائمة مع البلاد المصرية وهو منزل (اخوان باستري) وهناك زاره أكابر

البلد من تجار وأعيان ثم دعا سموه مأموري الحكومة إلى مأدبة أعدّها لهم، وبعد الفراغ من تناول الطعام ذهب إلى التياترو وقابله هناك جميع المتفرجين بالتهليل والتصفيق كما هي عادة الإفرنج عند إظهار استحسانهم أو سرورهم من أمر وبعد انتهاء التشخيص عاد سموه باليمن والإقبال إلى منزل باستري اخوان فقضى ليلته فيه إلى الصباح.

وفي اليوم التالي الموافق (٣٠ نوفمبر) زار المدينة ومرّ في أهمّ شوارعها فعند مروره من شارع بائعات الأزهار قدمن لسموه باقة من الزهور الجميلة فتعطف سموه بقبولها منهن.

وفي مساء الساعة التاسعة توجه (إلى البالو) الذي أعدّه الجنرال (كنت دوبول) إكراماً لسموه فمرّ في جميع غرف الرقص وصار يلاطف السيدات والمدموازلات برقيق لفظه وسليمان باشا يترجم لهن عباراته حتى انشرحن من ملاطفته وأعجبهن حسن التفاته إليهن وتعطفه السني جهتهن وعليهن.

وفي صبيحة أوّل ديسمبر سنة ١٨٤٥ زار سموه ما حوته المدينة من ورش وفابريقات وجميع الأماكن الصناعية وكان رحمه الله يتأمل بغاية الدقة إلى آلاتها اللطيفة الغريبة ويعجب من حسن صنعها العجيبة، ومما أدهش مهندسي هذه الفابريقات حدة ذكاء الأمير وقوة فكره وفهمه هذه التركيبات الميكانيكية حتى أنه أبدى لهم بعض ملحوظات لتحسين بعض الآلات مع عدم تعلم سموه العلوم الهندسية بل ولا غيرها من العلوم مطلقاً.

وفي يوم ٢ منه أولم وليمة فاخرة لأعيان تجار هذه المدينة وأصحاب الفابريقات وفي يوم ٣ منه في الساعة الرابعة مساءً أقلع من مارسيليا قاصداً بورفاندر بعد أن وزع الهدايا الثمينة على كل من احتفل بلقائه وأعطى ألفاً وخمسمائة فرنك إلى حاكم المدينة بقصد توزيعها على الفقراء، ووصل سموه إلى فرضة بورفاندر في ٤ منه وقضى يوم ٥ في سفينته وفي اليوم السادس تناول

طعام الظهر في وليمة أعدّها لسموه تجار المدينة وبعد انتهاء الوليمة سافر سموه إلى مدينة برينيان^(١) وكان وصوله إليها قبيل وقت الأصيل فقابلته هناك الجنرال كونت دي كستيلان مقابلة عسكرية واستعرض أمامه الجيوش العسكرية في هذه المدينة وضواحيها ثم تناول سموه طعام المساء عند الكونت في وليمة فاخرة عظيمة باهرة كان أعدّها لسموه ودعا إليها كل أعيان المدينة وضباط الحامية وفي يوم ٧ منه تناول طعام العشاء عند مدير الإقليم المدعو بالمسيو (فابس). وفي صبيحة يوم ٨ منه سافر سموه في عربة إلى فرنية ورافقه في طريقه الجنرال (كونت دي كستيلان) ولم يزل راكباً جواده حتى أمضى مسافة ٢ كيلو متر خارجاً عن المدينة ثم عاد بعد أن ودع سموه وداع إخلاص وولاء وكان الجنرال أرسل أوامره إلى مدينة فرنية باستقبال الأمير إبراهيم باشا بكل ما يليق بمقامه الرفيع من الاحترام والتجليل فسار سموه طول نهاره فيما بين جبال البرينية الشامخة مع جزء من ليله، وقبل أن يصل المدينة بمسافة فرسخين وجد عساكر الجند رمة مصطفى على جانبي الطريق وأهالي الجبال مجتمعون في الأودية وعلى قمم الجبال ينتظرون قدوم الأمير المصري متزينين بأفخر لباسهم حاملين أسلحتهم كما هي العادة المعتادة عند سكان الجبال.

وبمجرد ما أطلقت المدافع من قلعة (فيل فرانش) إيذاناً بقدوم سموه أطلق الأهالي بنادقهم في الهواء تعظيماً لمقام زائرهم الأفخم وبعد قليل أحاط بعربته جم غفير من الأهالي حاملين مشاعل متقدة ولم يزالوا مرافقين له ومتابعيه حتى وصل إلى المدينة فتابعوا إطلاق البنادق مهللين بأصوات الفرح والبشر، وكان بانتظاره عند تشريفه المدينة شيخ البلد وقسيسها فقابلاه وخطب كل منهما خطبة وجيزة هنا بها سموه على سلامة الوصول وأظهر في خلالها ما نال بلادهم من الشرف بتشريف جنابه الأكرم وختم كل منهما عبارته بطلب البقاء له من بادئ النسمات ومبدع الكائنات وشافي العلل والآفات، ثم مرت عربته من تحت

(١) هي مدينة حصينة لا تبعد عن البحر إلا مسافة ثمانية كيلومتر ولها أهمية حربية من الطبقة الأولى لوجودها بالقرب من حدود إسبانيا ومن الطرق المارة في مضائق جبال بيرينيه موصلة بين المملكتين.

قنطرة نصر أقيمت في أول شارع احتفالاً وتزييناً لجنابه وكان مكتوباً عليها هذه الكلمات إلى المنصور في قونية ونصيبين، وعند باب الحمام أقيم له قنطرة أخرى عليها هذه الجمل الأربع إلى نجل محمد علي باشا الأكبر إلى ممدن الشرق إلى صديق فرانسإ إلى الشجاع المصري.

ولما وصل سموه إلى الحمام توجه بلا توان إلى المحل الذي كان معداً لجنابه الرفيع في لوكاندة الحمام وأخذ الجمع في الإنصراف رويداً وقضى سموه في مياه قونية أربعة أشهر طلباً للشفاء فكانت صحته تتحسن يوماً عن يوم حيث أن الهواء وافقه سيما بملاحظة همة الدكتور لالمان طبيبه الخاص ولكنه سئم الإقامة في هذه الجهة المنعزلة وفضل مبارحتها عن الإقامة بها لولا تشديد طبيبه عليه، نعم كان يزوره أحياناً الجنرال كونت دى كستلان قائد أوردي برينيان وبعض من موظفى الحكومة في هذا الإقليم وما كانت هذه الزيارات القليلة تكفى لتسلية فقى أوائل شهر فبراير أذن له الدكتور لالمان بالتوجه إلى برينيان لو أراد بشرط أن يكون انتقاله في عربة تسير الهوينى فرضى سموه بهذا الشرط.

وسافر إلى المدينة في ٥ فبراير سنة ١٨٤٦ حتى وصلها في الساعة الحادية عشر بعد الظهر بدون أن يعلم الجنرال كونت (دى كستلان) وكان بجمعيته طبيبه الذى كان لا يفارقه أصلاً وبعد أن قضى سموه يومين عاد إلى الحمامات وفي ٤ مارت زار هذه المدينة مرة أخرى فقابله فيها الجنرال ورافقه عند عودته إلى خارج المدينة وكان هناك فرقه من جنوده وأركان الحرب تشتغل بوضع قنطرة من السفن على نهر يمر بالقرب من المدينة لمرور العساكر قصد التمرين فتم وضعه في أقل من القليل ولم يحتج إلى مضي وقت من الزمن ومر عليه الجيش بحضور سموه فسر من مهارتهم وسرعة حركاتهم وإتقان عملهم ثم عاد إلى قونية مصحوباً باليمن والإقبال ولما تم الشفاء لسموه في أوائل ابريل عزم على السفر إلى مدينتى باريس ولوندره وأخبر والده بذلك فكتب سمو الوالى رحمه الله إلى حكومتى فرنسا وانكلترا يخبرهما بقدوم ولده إليها بقصد السياحة.

فلما علم إبراهيم باشا بأن والده كتب إليهما وتحقق من ذلك بادر بالسفر مع حاشيته من فرنه في النصف الثاني من شهر إبريل سنة ١٨٤٦ من طريق بوردو، فمدينة تور حيث كان في انتظار سموه قطار حديدى خاص به فوصل إلى باريس الزاهرة في الساعة الأولى بعد ظهر يوم ٢٥ منه ولا حاجة إلى ذكر ما لقيه سموه أثناء الطريق في المدن العظيمة التي مر عليها من الإحتفالات بل نكتفى بأن نقول أنه قوبل أحسن مقابلة واحتفل بمروره بنوع لم يسبق في تاريخ الشرق من قبله.

وكان في انتظار سموه على رصيف المحطة الكولونيل (تيرى) أحد ياوران الدوك (دى مونبانسيه) من طرف جلاله الملك لملاقاته ومرافقته أثناء إقامته في عاصمة المملكة الفرنسية وكانت المحطة جامعة من الداخل والخارج لجماهير الأهالى بين نساء ورجال، ولم يتأخر أحد من التلامذة المصريين الموجودين هناك بل أتى الكل للتشرف بمقابلة نجل مليكهم وولى عهد حكومتهم فترل سموه من القطار وتبعته حاشيته والتلامذة المصريون وهنأه الكولونل (تيرى) بسلامة الوصول نائباً عن جلالة الملك وكافة أعضاء العائلة المالكية، وأخبره بأن الملك يدعو سموه للإقامة في سراى الإليزيه بوربون^(١) فقبل سموه ذلك وشكر الملك على ما كان منه من حسن القبول. وما ظهر من باقى حكومته من سروره بمقابلتهم في سائر الجهات التي مر بها، ثم ركب سموه مع حاشيته العربات الملكية التي أعدت لإنتظارهم وساروا تَوّاً إلى السراى بين صفوف الأهالى وكان كلما يمرّ على جماعة يصرخون بقولهم فلتحى مصر فليعيش إبراهيم باشا فليحفظ الله سموه واليها ولم يزلوا على هذه الحالة حتى وصل إلى السراى وكان الحفل الذي أعد لإقامة سموه من هذه السراى القديمة العهد هو الذى أقام فيه

(١) هى سراى فاخرة بناها الكونت وثريه سنة ١٧٢٨ ميلادية ثم اشتراها لويس الخامس عشر ملك فرنسا وأهداها لعشيقتة مدام دى بومبلاور سنة ١٧٦٥ ثم تدرجت ضمن أملاك الأمة لثناء الجمهورية الأولى ثم أعطيت لتأبليون لما تولى أريكة الإمبراطورية سنة ١٨٠٤ وصارت من تلك العهد تابعة لكل ملك يتولى وهى الآن معدة لمسكن رئيس الجمهورية لثناء مدة تعيينه والذي يسكنها الآن هو المصير سادى كارنور رئيس الجمهورية الفرنسية حالياً.

الإمبراطور نابليون بعد عودته من جزيرة البه والسريير الذى أعدّ لنوم سموه هو الذى كان معداً لنوم الإمبراطور.

ولقد قضى سمو إبراهيم باشا يومى ٢٥ و ٢٦ قبل أن يقابله الملك مقابلة رسمية وكان سموه يطلع على مباني المدينة متخفياً ثم في يوم ٢٧ احتفل الملك وأولاده وزوجاتهم بمقابلته بحضور الملكة والبرنسيس اديلايد في سراى اللويلرى^(١) في قاعة المقابلات الإحتفالية وكان جلالة الملك متحلياً بكسوة رئيس الجيوش وكذلك نجله الدوك دى نيمور وأما البرنيس دى جوانفيل فكان لابساً ملابس فيس أميرال بحرى والدوك دى موباسيه كسوة أميرالاي طوبجى.

وكان حاضراً عند الإستقبال كل من المارشال سولت الملقب بدوك دلماسيا رئيس النظار والمسيو جيزو ناظر الخارجية وقبل مجئ إبراهيم باشا ببرهة حضر إلى السراى الملوكية سفير الباب العالى المدعو سليمان باشا وكان حضوره في الساعة الأولى بعد ظهر ذلك اليوم وعند قدومه أقبلت العربة الملوكية المقلّة لسمو الأمير إبراهيم باشا يتقدمها خياله من خيالى اسطبلات الملك ويتبعها ثلاث عربات آخر ملوكية. وكان مع سموه الكونيل تييرى المعين لمرافقته وفي العربات الأخر سليمان باشا الفرنساوى وغيره من حاشية الأمير، ولما وصل سموه إلى قاعة الإستقبال قدمه سفير الباب العالى إلى جلاله الملك فصافحه وشكره على ما لقيه نجله الدوك (دى موبانسيه) من الإكرام وحسن المقابلة أثناء سياحته في القطر المصرى وقد روى أن الملك قال أثناء مقابله سليمان باشا الفرنساوى أجذك المركيز دى سيف؟ فقال له الباشا لا بل إن والدى كان أحد طحاني مدينة ليون، فردّ عليه الملك بقوله أن ذلك مما يزيدك شرفاً ونبلاً وبعد أن تكلم الملك قليلاً مع إبراهيم باشا والحاضرين من حاشيته عاد سمو الأمير إلى السراية بنفس الإحتفال الذى جاء به.

(١) إن البانى لهذه السراية هي كترين دى مديسيس سنة ١٥٦٤ ولم يتم بناؤها إلا في عهد الملك لويز الرابع عشر وقد سكنها ملوك فرنسا لو رؤساء جمهوريتها تبعاً لتقلب الحكومات إلى أن أحرقها نازرو الكومون في ٢٤ مايو سنة ١٨٧١ ولم تبين ثنية بعد.

وفي مساء ذلك اليوم عاد سموه إلى سراي الملك لتناول طعام المساء على مائدة جلاله الملك ولما حضر الأمير والمدعوون قام الملك في الساعة السادسة والنصف إلى قاعة الطعام وجلس إبراهيم باشا عن يمين جلاله الملكة أمام زوجها الأفخم وكان المدعوون من أكبر رجال المملكة بين أمراء وقواد ووزراء ثم تجاذب الملك والحاضرون أطراف الحديث أثناء الأكل وكانت جلاله الملكة تلاطف ضيفها برقيق ألفاظها وتسأله عن حالات عمومية في الشرق إلى أن انقضى الطعام في نحو الساعة ثمانية ونصف مساء وعاد سمو الأمير إبراهيم باشا إلى مقره بسراي الإليزيه بصحبة الكولونل تييري ومن كان معه من حاشيته.

وفي صبيحة يوم ٢٨ منه توجه سموه إلى سراي الإنفالييد^(١) لزيارة قبر الإمبراطور نابليون الاول وصحبه في هذه الزيارة الدوك دي موبانسيه والكولونل تييري وسليمان باشا، فقابل سموه على باب السراي الدوك دي ريجيو حاكمها والضباط من كهول الجيش الفرنسي حاملي السلاح تعظيماً لجنابه العالي فزار سموه السراي بجميع أركانها وأثنى على الحكومة الفرنسية التي خصصت هذا البناء الشاهق لمن يعجز عن الكسب من شجاعها إما لتقديمه في السن أو لإصابته بفقد أحد أعضائه في الدفاع عنها وعن شرفها، ثم نزل بموكبه الحافل إلى القاعة المبنية تحت السراي وبها محفوظة جثة الإمبراطور التي احتفل بإرجاعها من جزيرة سانت هيلان (وقد دفن بها) في ١٥ ديسمبر ١٨٤٠ وبعد برهة خرج منها إبراهيم باشا وتوجه لزيارة المدرسة الحربية وبعد ذلك تزه قليلاً في منتزه غابة بولونيا ثم قصد سراي الدوك دي موبانسيه لتناول العشاء في مأدبة خصوصية أعدها الدوك إكراماً لزيارته وقياماً ببعض واجبه.

(١) تأسست سراي الإنفالييد سنة ١٦٧٠ في عهد لويز الرابع عشر ملك فرنسا الذي بلغت مدة حكمه ثلاثاً وسبعين سنة لأنه ولد في سنة ١٦٣٨ وتولى سنة ١٦٤٣ وعمره خمس سنوات وتوفي في أول سبتمبر سنة ١٧١٥.

وفي يوم الخميس الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٨٤٦ ذهب سموه في الساعة ٣ بعد الظهر إلى سراى لوكسنبورج للتفرج في دار التحف فسر لما رآه فيها من الصور الجميلة خصوصاً اللوحة المشهورة التي رسم فيها المسيو هوراس فيرنيه مقتل المماليك بقلعة مصر المحروسة.

وفي يوم الجمعة أول مايو توجه صباحاً لمقابله الملك الذي كان يستقبل أكابر الدولة لمناسبة عيد دولته الفخيمة فأهدى الملك إليه بعد المقابلة نيشان (اللعجون دونور) من درجة جران كوردون فشكره سمو الأمير على هذه الهدية التي دلت على ما بين مصر وفرنسا من المحبة والوفاق الخالصين من كل شائبة، ثم دخل سموه مع جلاله الملك إلى قاعة الإستقبال العمومية وشهد مرور وفود المهنيين مع اختلاف ملابسهم بين ملكية وحربية على اختلاف أجناسهم وأشكالهم، وكان بجانب سموه الدوك دي موبانسيه فكان يعرفه اسم كل من مرّ من أمامهما ولما وقع نظره على المسيو تيرس، الذي كان وزيراً لفرنسا في سنة ١٨٤٠ ولم يقدر على مساعدة الحكومة المصرية على المقاومة وعدم قبول الشروط التي عرضتها عليه الدول، كما مر ذلك في بابه، تغير وجه سموه واستشاط غضباً وود أنه لم يوجد في هذا الإحتفال حتى لا يرى وجه هذا الرجل الذي بسوء سياسته أوجب الويل للأمة المصرية.

وبعد انقضاء رسوم التشريفات المملوكية عاد سموه إلى سرايته وفي المساء توجه سموه لتناول الطعام في مأدبة أعدّها له المارشال سولت وزير فرنسا الأول وبعد انتهاء الوليمة توجه سموه مع جناب الوزير وسائر المدعوين إلى السراية المملوكية لسماع نغمة طقم الموسيقى، الذي أعدته بلدية باريس احتفالاً بعيد جلاله ملكهم وعند منتصف الليل شاهد سموه بحضور الملك وسائر أعضاء العائلة المملوكية السوارىخ وحرائق البارود التي أحرق على شاطئ نهر السين كما هي العادة في المواسم والأعياد فسر سمو الأمير من هذا المنظر البهيج الذي لم يسبق لسموه رؤيته في الديار المصرية.

وفي يوم السبت الموافق ٢ منه زار سموه سراى محكمة الإستئناف العليا وحضر إحدى جلساتها وكان مترجمه الخاص يترجم له ملخص أقوال الأبوكاتية ويعبر لسموه عما تصدره القضاة من الأحكام ويشرح له كيفية ترتيب المحاكم في فرنسا وكيفية سير الأحكام بها، فشهد سموه بصلاحيه هذا الترتيب للأمم المتقدمة في الحضارة ووعد من معه بإدخاله في الديار المصرية حينما ينتشر التعليم ولو قليلاً بين أبنائها ليعلم كل ماله من حقوق وما عليه من الواجبات^(١) وبعد أن استراح سموه يومى الأحد والإثنين توجه في يوم الثالث ٥ مايو سنة ١٨٤٦ إلى قلعة (فنسین)^(٢) ليحضر المناورات العسكرية التى أمر الملك بإجرائها احتفالاً بسمو زائره وكان فى انتظاره هناك الدوك (دى نيمور) والدوك (دى موبانسيه) أنجال الملك وأيضاً خمسة عشر ألف جنسدى لإجراء مناورة تمثل واقعة نصيبين ولما وصل سموه صدحت الموسيقىات العسكرية بأنغامها الحربية وتحركت العساكر بغاية الانتظام كأنهم شخص واحد وكان سموه متحلياً في هذه الحفلة بنيشان (اللجيون دونور) وراكباً جواداً عربياً فتوجه مع أنجال الملك وكل القواد المدعويين إلى هضبة عالية كانت تشخص مركز العثمانيين ليشاهد هجوم الفرقة المعينة للإستيلاء على هذه الهضبة وبعد أن هجمت هذه الفرقة مرتين تمكنت بمساعدة الطوبجية من احتلالها كما حصل في واقعة نصيبين.

فسر سموه من نظام العساكر الفرنسية وتدرّبهم على الحركات العسكرية وشهد بأن هؤلاء الجند لو وجدوا من يحسن قيادتهم لا يهزمون أمام أى عدوّ كان لأنهم مستوفون عدة وعدة، ولما انتهت المناورة فى نحو الساعة الرابعة بعد

(١) لقد حقق سمو خديويينا المعظم محمد توفيق الأول ما تمناه ووعد به جده الكريم قبل الآن بنحو خمس وأربعين سنة بإنشاء المحاكم الأهلية وتعميمها فى كل البلاد المصرية مما كان سبباً فى أمن الإنسان على ماله وروحه ومن ألا تعبث بحقوقه أيدى الإعتساف وتتلاعب بها أهواء الأغراض ولذلك حق على كل مصرى أن يشكر سمو خديويينا الأعظم ومليكننا الأكرم على من أولانا من المنز والمزايا التى لولا ما جبل عليه سموه من الخصال اللطيفة والسجايا الشريفة ما تخلصنا من ربة الذل ولا حصلنا على المطلوب إلا بعد مرور السنين والأجيال وهيئات هيئات فالحمد لله قد ساوى بين الجليل والحقير فى الأحكام بالنقّة والإحكام فجزاه الله عن الرعية خيراً ووقاه ضيراً ولازال ممتعاً بأنجاله وأشباهه ورجاله ولحزبه.

(٢) هى قلعة تبعد عن باريس بنحو ستة كيلومترات بناها لويس لوجست ملك فرنسا سنة ١١٨٣ وحوصرت غير مرة بدون أن يتمكن الأعداء من دخولها لمناعتها وكان يحبس فيها من يخشى هربه من أعداء المملكة وهى الآن مدرسة الطوبجية وصارت مستودع المدافع ومهمات.

الظهر زار سموه قشلاقات العسكر وفي الساعة السادسة تناول الطعام في مأدبة أعدّها لسموه ضباط الجند وكانت قاعة الطعام مزينة بالسيف والبنادق يتخللها قليل من الأزهار ولم يعد سموه إلى باريس إلا عند الساعة العاشرة يرافقه في عربته الملوكية سليمان باشا الفرنساوي والكولونيل (تيرى) ياورانسه وفي اليوم السادس منه زار سموه المجمع العلمي (انستيتوت) الكتبخانة الملوكية وفي السابع شارف محل الضربخانة وفي الثامن زار الإستبالية العسكرية وخصص اليوم التاسع منه للإطلاع على ما تحويه الكتبخانة من الكتب العربية فلما أطلع عليها اندهش مما وجدته فيها من الكتب النفيسة التي ربما لا يوجد لبعضها نسخ أخرى في غيرها من الدول سواء كان في الشرق أو في الغرب وتعجب من اهتمام الدول الأجنبية باللغة العربية أكثر من اهتمام أهلها بها.

وفي اليوم الحادى عشر منه حضر سموه الإحتفال بتوزيع الجوائز على التلامذة المصريين الموجودين إذ ذاك بباريز وكان جمعية سموه المارشال (سولت) رئيس الوزراء والدوك (دى موبانسيه) فسر جنابه من تقدم التلامذة خصوصاً نجله أحمد بيك لأنه كان ماهراً وفي المعارف وافرأ وفي يوم أربعة عشر زار جناب الأمير مدرسة الصنائع والفنون وتفقد كل ما بها من الآلات الميكانيكية وأبدى لأساتذتها بعض ملحوظات استدلوها بها على ما لسموه من توقد الفكر وشدة الذكاء الطبيعي ثم في اليوم التالى شرف سموه مجلس الأعيان (سناتو) بهيئة احتفالية يتقدمه جمع من الفرسان وحضر الجلسة بتمامها واستحسن نظام الحكومة الشورية التي منها تستمد القوة الحاكمة آراء الأمة بواسطة مندوبين ينتخبون بالإنخاب العمومى لينوبوا عن الأمة في إبداء آرائها واقتراح ما تريده من الإصلاحات أو التغييرات، فلما رأى ذلك ودّ أن يكون بمصر مجلس ينوب عن أهلها لإنارة حاكمها وإرشاده لما يلزم للأمة من الإصلاحات لولا أنه حال دون ذلك عدم تقدم الأمة في معارج التمدن والتهديب السياسى.

وفي أحد وعشرين مايو سنة ١٨٤٦ شرف سموه محل الخواجات (كريستوفل) المشهورين بإتقان صناعة البلور وكذلك شرف غيره من المحلات الصناعية مما دل على شغف جنابه بالاطلاع على المواد الصناعية والبحث عن أسباب تقدمها بين الأمم الأجنبية وانحطاطها في الشرق، مع أنه لما كانت الدولة العربية في أوج تقدمها في سائر فروع الصناعة وامتيازها بانتشار العلوم بين أهلها، كانت تلك الأمم الغربية التي تدهشنا الآن باستيفائها الأشياء العلمية واختراعاتها الصناعية في حالة التوحش والخشونة البربرية.

وفي يوم ٢٥ منه حضر سموه استعراض حامية مدينة باريس في ميدان (شان دي مارس) وكانت مؤلفة من خمسة وعشرين ألفاً من المشاة وستة آلاف من الخيالة والألأى الخامس من الطوبجية، وصحبه في هذا الإحتفال العسكرى الدوك (دي نيمور) وسليمان باشا وغيره من الضباط المصريين الذين رافقوه ولازموه في هذه السياحة.

سفر إبراهيم باشا إلى انكلترا:

وبعد هذه الإحتفالات والمقابلات عزم سموه على السفر إلى بلاد الإنكليز قبل عودته إلى الديار المصرية فأعدت له الحكومة الفرنسية قطاراً خاصاً لركوبه إلى مدينة (دييب) الواقعة على شاطئ بحر المانش الفاصل بين فرنسا وانكلترا وباخرة حربية لنقله إلى البر الإنكليزي وفي أول يونيو ودع سموه جلاله الملك وجميع أعضاء عائلته.

وفي صبيحة اليوم الثالث منه عزم سموه على مبارحة باريز فركب مع من معه العربات الملوكية وتوجه إلى محطة (سان لازار) في موكب حافل بين صفوف الأهالي و صفوف المودعين، حتى وصل المحطة باليمن والإقبال وكان هناك في انتظاره فرقة من الجند مع الموسيقى لتأدية مراسم الوداع وودع سموه من قبل جلاله الملك أكبر ياورانه، وبعد قليل سار القطار قاصداً مدينة (دييب) على

طريق روان^(١) ولم تستوقفه هذه المدينة مع ما لها من الشهرة التاريخية والآثار القديمة بل سار تَوّاً إلى مينا (ديب) فلم يجد الباخرة التي كانت بانتظاره لعدم تمكنها من الدخول إلى المينا بسبب جزر البحر بل كانت في فرصة صغيرة بالقرب من مينا ديب تدعى (ترييور) فتوجه إليها سموه وفي الساعة السادسة من يوم ٤ يونيو أطلق الربان البحار للسفينة فشقت عباب البحر بسرعة عجيبة ووصلت مينا (بورت سماوث)^(٢) في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي وقد احتفل الإنكليز بإبراهيم باشا عند نزوله إلى البر احتفالاً باهراً وكان في انتظاره على المينا الأميرال (تشارلس أوجل) حاكمدار المينا وجميع ضباط الحامية ورئيس البلدية وقد عين الماجور (كولنود ديكسن) من الطوبجية لمرافقته أثناء إقامته في بلاد الإنكليز وإنما انتخب لتضلعه في اللغة العربية وليستغنى سمو الأمير به عن ترجمانه ثم توجه بصحبه الأميرال إلى ديوان البحرية (أدميرالتي) وبعد أن استراح برهة ركب سموه إلى المنزل الذي أعد لإقامته وحاشيته.

ولما وصل سموه حضر رئيس وأعضاء البلدية بملابسهم الرسمية والتمسوا مقابلته فأذن لهم بذلك ولما استقر بهم الجلوس قام الرئيس وخطب خطبة هنا بها جنابه بسلامة الوصول، وشكر فيها والده على تسهيل التجارة بين إنكلترا ومستعمراتها الهندية حتى في أثناء الحرب بينها وبين مصر فتشكر له سموه بعبارة وجيزة عن هذه الزيارة وما قاله من المدح في حق والده.

وبعد أن أقام سموه يوماً في (بورت سماوث) سافر قاصداً مدينة (لندن) عاصمة بريطانيا العظمى فوصلها في يوم ٨ يونيو سنة ١٨٤٦ قبل الظهر وتوجه تَوّاً إلى (أوتيل ميفار) الذي كان استأجره سموه لإقامته مع حاشيته وفي الساعة

(١) هي مدينة عظيمة تبعد عن باريس بمسافة ١٣٧ كيلومتراً وبها آثار قديمة أشهر ما فيها كنيسة بنيت في القرن الثالث للمسيح عند ابتداء انتشار الديانة المسيحية بفرنسا ومما يجعل لها شهرة تاريخية لا تمحوها الدهور محاكمة الفتاة (جان دارك) وتنفيذ الحكم عليها بالإعدام حرقاً سنة ١٤٢١ بمعرفة الإنكليز الذين كانوا في هذه الأعصر الوسطى في حرب دائم مع فرنسا.

(٢) هي أعظم موانئ إنكلترا وواقعة على بحر المانش وبها ترسانات مهمة وحياض متسعة لتعمير المراكب الحربية ويقال أن ميناها تسع كافة سفن إنكلترا الحربية وبها مدرسة بحرية ويبلغ عدد سكان هذه المدينة زهاء مائة ألف أغلبهم من عائلات النوتية وكانت تعرف عند الرومانيين بالمينا الكبرى (بورتوس مجنوس).

الثانية بعد الظهر حضر اللورد (ابردين) وزير الخارجية وقابله مقابلة سرية استمرت مدة طويلة لم يعلم ما قيل في خلالها ثم زار سموه الكولونيل (كاميل) الذي كان قنصلاً في مصر ثم حضر السير (روبرت بيل) الوزير الأول والدوك (دي ولنجتون) قاهر (نابليون الأول) في واقعة (وترلو) والبرنس (جورج دي كامبردج) وأخيراً الكومودور (سير تشارلس نابير) الذي اشتهر بضربه سواحل الشام كما مر، وقيد الكل أسماءهم في دفتر المقابلات لأن سمو الأمير إبراهيم باشا لم يمكنه مقابلتهم نظراً لما تحمله من مشاق الأسفار.

وفي اليوم التالي الموافق ٩ منه ذهب سموه وضباطه إلى سراي (باكنجهام) لمقابلة البرنس ألبرت^(١) زوج جلاله الملكة فيكتوريا، وجريا على ما هو متبع في المقابلات الانجليزية لم يؤذن بالدخول مع إبراهيم باشا لمقابلة البرنس ألبرت لأحد من الضباط المصريين، لكن بطريق الإستثناء أذن لسليمان باشا بذلك فقابلهما البرنس بكل بشاشة وترحاب وهنأ سمو الأمير إبراهيم باشا على وصوله وتمنى استمرار علائق المحبة والمودة بين الحكومتين الإنكليزية والمصرية وبعد انتهاء المقابلة ذهب الأميران معا إلى ميدان (سانت جيمس بارك) لحضوره استعراض الجند، فوجدا بالباب الدوك (ولنجتون) وأركان حربه فقدمهم البرنس ألبرت إلى إبراهيم باشا وسليمان باشا ثم توجه الجميع بين صفوف الأهالي إلى محل الاستعراض وكان الأمير إبراهيم باشا يستجلب أنظار الحاضرين بكسوته الإرجوانية المزركشة بالذهب ونيشان (الليجيون دونور) وبعد انتهاء الاستعراض عاد الأميران إلى سراي (بوكنهام) والمتفرجون يصفقون سروراً واحتفالاً إلى أن وصلا إلى السراي فعاد إبراهيم باشا إلى الفندق.

(١) ولد هذا البرنس سنة ١٨١٩ وهو ابن البرنس ارنس دوك سكس كويور وتذهب في ألمانيا ثم تزوجته الملكة فيكتوريا سنة ١٨٤٠ ورزقت منه ثمانية أولاد ولم يتدخل قط في الأعمال السياسية بل اجتهد في استمالة الأهالي إليه بمساعدته كلفة المشروعات الأهلية وحمايته لأرباب الفنون والصناعات ثم منحه البرلمان الجنسية الإنكليزية وتعين قلد مارشالاً وعضواً في المجلس الخصوصي وتوفي سنة ١٨٦١ مأسوفاً عليه من أهله ونويه وجميع من عرفه.

وفي يوم ١١ منه توجه سموه لحضور الإحتفال المعدّ لتوزيع الجوائز على كل من حاز قصب السبق في ميدان الفنون اللطيفة وبعد عودته قدم له سليمان باشا المسيو (أوكونل) زعيم الارلانديين^(١) وبعد أن زارا كثيراً من اللوردات ووزراء الدولة الإنكليزية سافر من لندن في الساعة الخامسة من ظهر ذلك اليوم قاصداً (برمنجهام) و (منشستر) وغيرهما من المدن الصناعية أو التجارية للبحث عن أسباب ثروة الأمة الإنكليزية وإدخال بعض هذه الصنائع لمصر خصوصاً ما توجد فيها مادته الأصلية مثل القطن والحرير وغيرهما.

ولا حاجة لنا بذكر تطواف سموه بالتطويل خوفاً من الإطالة، وكفيماً أن نقول أنه ساح كافة بلاد بريطانيا واسكوتلاندا وارلاندا الشهيرة ثم عاد إلى لوندرة في اليوم الخامس من شهر يوليو سنة ١٨٤٦ وبعد أن قضى يومه وليلته في الإستراحة، خرج مع بعض حاشيته وطاف خفية في أهم شوارع المدينة ثم الحارات التي يسكنها الفقراء وتعجب من وجود كثير من الفقراء في ضنك شديد بين أفراد هذه الأمة التي بلغت أعلى الثروة وأعلى الغنى، يسكنون أماكن لا تليق بسكنى البهائم مع وجود القصور الباذخة بجوارها مما يزيد في إظهار حقارة هذه المساكن الرثة، وعند عودته وجد العربات الملوكة في انتظاره ليتوجه إلى سراى باكنجهام لمقابلة جلاله الملكة فكتوريا فذهب تَوّاً إلى السراى وقابل الملكة مقابلة خصوصية استمرت ساعتين من الزمن ثم عاد ثانياً إلى السراى في نحو الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم (٦ يوليو سنة ٤٦) لتناول العشاء على المائدة الملوكة فكانت الملكة تلاطفه في أثناء الطعام وتسأله عن صحة والده وعن حالة بلاده وتشكره على مساعدة حكومته للتجارة الإنكليزية وتمنت دوام المحبة بين حكومتها والحكومة المصرية.

(١) ولد هذا الرجل الشهير سنة ١٧٧٥ من عائلة عظيمة وتعلم فن المحاماة وقيل محامياً سنة ١٧٩٨ فذاع صيته ودخل في الجمعيات الساعية في تحرير أرنلدة وطنه وفي سنة ١٨٢٨ انتخب عضواً في مجلس العموم ولكنه لم يقبل لعدم قبوله أداء اليمين القانوني لمخالفته لمذهبه الكاثوليكي ولم يدخل مجلس العموم إلا في سنة ١٨٣٠ بعد ما تغيرت صورة اليمين واشتهر بعد ذلك بخطاباته وكتاباتة طلباً لفصل أرنلدة عن الحكومة الإنكليزية وتوفي سنة ١٨٤٧.

وفي صبيحة اليوم السابع سافر من طريق نهر التيمس الذي يمر بمدينة لندن إلى مدينة (جرينويتش) حيث زار المستشفى البحري المقام هناك لإقامة من يصاب من البحارة الإنكليزية بعاهاات تمنعه عن الإكتساب وكان تأسيس هذا المستشفى في سنة ١٦٩٦، وهو أشبه شئ بسرأي الأنفاليد بفرنسا التي مرت الإشارة إليها.

وفي مساء ذلك اليوم أعدت له شركة الهند الشرقية^(١) مأدبة فاخرة قام في ختامها أحد أعضائها وشكر الحكومة المصرية على مساعدة هذه الشركة في جميع أعمالها وفي يوم ١١ يوليو صنع حاكم مدينة لندن (اللورد مايور) مأدبة عظيمة لإبراهيم باشا في دار الحكومة (مانسن هوس) ودعا إليها نخبة رجال الحكومة وكان من جملتهم اللورد جون رسل فألقى في ختام المأدبة خطاباً مطولاً أبان فيه ما يعود على مصر من مصافاة انكلترا واتخاذها خليفة.

وفي يوم ١٣ أولم لسموه اللورد بالمرستون، وكان المدعوون قليلين وقابل اللورد سموه من الباب كما قابله اللورد مايور وفي انتهاء الوليمة قال اللورد بالمرستون مقالة أنيقة لم يخرج فيها عن موضوع خطاب اللورد جون رسل.

عودة إبراهيم باشا إلى مصر:

وكانت هذه الوليمة خاتمة الإحتفالات التي أقيمت في بلاد الإنكليز إكراماً للأمير إبراهيم باشا وحاشيته ففي الساعة السابعة ونصف من صباح يوم ١٤ منه قصد سموه محطة السكة الحديدية بين صفوف المودعين وبعد أن قام له بواجب الوداع كل من حضر، وخصوصاً القائم بأشغال الدولة العلية المدعو

(١) أسس هذه الشركة بعض تجار لندن سنة ١٥٦٠ قصد تبادل التجارة مع البلاد الهندية وفي سنة ١٦٢٤ منحها البرلمان الإنكليزي حق احتكار التجارة في هذه البلاد ثم أبطله كلية في سنة ١٨٢٣ وبعد أن استحالته هذه الشركة من تجارية إلى سياسية واشتغلت بإدارة البلاد الواسعة التي فتحتها إدارة مستقلة تحت حماية مراقبة الحكومة الإنكليزية واشتغلت من ثم في فتح ما بقي من هذه البلاد ففتحتها حتى جبال (همالايا) وفتحت جزءاً غير قليل من بلاد الهند الصينية ثم ألغيت هذه الشركة سنة ١٨٥٨ عقب ثورة الجنود المؤلفة من سكان البلاد وصارت من ذلك العهد تابعة للحكومة الإنكليزية كباقي المستعمرات.

أديب أفندى، سافر سموه على القطار البخارى إلى فرضة (جبرت) فوصلها في نحو الساعة الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم ثم ركب الباخرة الإنكليزية (افنجز) وسافر تَوّاً إلى بوغاز جبل طارق مُستعداً العودة إلى وطنه بجرّاً وكان معه كثير من العمال الإنكليز الماهرين في صناعة الأقمشة القطنية لإستخدامهم في الفابريكات التى أنشأها والده في مصر ومقدار عظيم من الآلات الميكانيكية، وعدد وافر من الطيور الداجنة كان اشترأها من جمعية لندن الحيوانية لإستكثارها في القطر المصرى.

ولما وصل سموه أمام مدينة لسبون (لشبونة) عاصمة البرتغال أراد أن يتّزل إلى البر لمشاهدة المدينة وزيارة ملكها وكان ذلك في ٢٣ يوليو سنة ١٨٤٦ لكن لمناسبة وضع الملكة غلاماً وإقامة صلاة احتفالية في كنيسة لسبون الكاتدرائية لم يتيسر للأمير إبراهيم باشا مقابلته في سرايته، لأنه كان توجه إلى الكنيسة لحضور الإحتفال فتوجه الأمير إليه هناك للتفرج ثم ركب البحر وسار إلى جبل طارق ورسا قليلاً بمينا كادكس (قادس) بإسبانيا والبوغاز، ثم استمر في سيره إلى أن وصل جزيرة مالطة^(١) فحيته الحامية الإنكليزية بإطلاق مدافعها من قلاعها ومن سائر السفن الراسية في الميناء. وفي الساعة التاسعة من صبح اليوم الخامس من شهر أغسطس سنة ١٨٤٦ رست السفينة المقلّة لجنابه في مينا الإسكندرية فقابلته أخوه سعيد باشا الذى كان وقتئذ حاكم المدينة وجميع القناصل ومأمور والحكومة وزينت المدينة إجلالاً لجنابه السامى ثم في اليوم التالى سافر إلى القاهرة على طريق النيل فوصلها متمتعاً بالصحة التامة متفكراً فيما رآه في سياحته من عجائب الأمور وفيما يمكن إدخاله في مصر من الصنائع والفنون لإستغنائها عن واردات أوروبا وزيادة رفاهية سكاتها.

(١) هذه الجزيرة صغيرة لا يزيد طولها عن ٢٨ كيلومتراً ويبلغ عرضها ١٦ كيلومتر وهى ذات أهمية عظيمة حربية من الدرجة القصوى لوقوعها فى منتصف البحر المتوسط بين جبل طارق والإسكندرية ولأهمية مركزها تتازعها الأمم من فينيقيين وقرطاجيين وعرب وغيرهم إلى أن وهبها شارلكان امبراطور ألمانيا وملك إسبانيا فى القرن السادس عشر لإحدى طوائف الرهبان المعروفة بشغالية مالطة وبقيت معهم إلى سنة ١٧٩٨ فاحتلها بونابرت أثناء مجيئه إلى مصر ثم دخلها الإنكليز سنة ١٨٠٠ وثبت تملكهم لها بمعاهدة فيينا سنة ١٨١٥ ولم تزل تابعة لهم إلى الآن وقد حصنوها حتى صارت من أهم نقطتهم الحربية الواقعة على طريق الهند.

هذا ولم يكن والده محمد علي باشا بمصر حين عودته بل كان قد توجه إلى القسطنطينية في شهر يوليو من هذه السنة ليقوم بواجب العبودية إلى سدة الخلافة العظمى، وليظهر لأوروبا أنه ما زال محافظاً على الولاء لجلاله السلطان الأعظم أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وليزيل ما كمن في صدور أكابر الدولة ووزرائها من الكراهة والبغض له.

ثم عاد منها بالتحية والإقبال في صبح ١٤ أغسطس سنة ١٨٤٦ إلى الإسكندرية وأطلق من قلاعها مائة مدفع وواحد ايذاناً بوصول سمو أمير البلاد وممدن العباد.

ولما عاد إبراهيم باشا إلى مصر عاد له المرض واشتد عليه وهو مريض الإسهال (الدوسنتاريا) فأمره الأطباء بالسفر إلى جزيرة مالطة ومنها إلى شواطئ إيطاليا الشهيرة بجودة الهواء فسافر في شهر أكتوبر سنة ١٨٤٧ وبارح الإسكندرية في ٩ منه.

وفاة إبراهيم باشا ووالده:

وفي أثناء هذه المدة ظهرت على محمد علي باشا علامات الهرم وضعفت قواه الجسمية والعقلية، فأشارت عليه الأطباء أيضاً بالسفر خارج القطر لترويح النفس ولإستراحته من أتعاب الإدارة وأوصاب الحكومة فأذعن لمشورهم وسافر من الإسكندرية في أوائل فبراير سنة ١٨٤٨ قاصداً جزيرة مالطة فأحسن الحاكم الإنكليزي مقابلته وأكرم وفادته وسافر منها قاصداً مدينة نابولي حيث كان هناك ولده إبراهيم باشا، وفيها وصل إليه خبر ثورة أهالي فرنسا على ملكهم لويز فيليب وعزلهم إياه ومناداتهم بالجمهورية، فحزن لذلك محمد علي باشا لما كان بينهما من علائق المودة والمحبة وثقل عليه المرض وازدادت قواه العقلية ضعفاً حتى التزم الأطباء المرافقون له بإرجاعه إلى الإسكندرية فوصلها في

أواخر شهر مارث سنة ١٨٤٨ وتبعه ولده إبراهيم باشا فأقام والده بسرأي رأس التين ومعه أحذق الأطباء.

وعاد هو إلى مصر وعقد ديواناً تحت رياسته لإدارة أحوال الحكومة مسدة مرض والده وأرسل بذلك إلى دار الخلافة فورد في منتصف شهر يوليو سنة ١٨٤٨ مندوب يدعى مظلوم بيك من قبل الخليفة الأعظم ومعه أمر بتولية إبراهيم باشا مكان والده إلى أن يشفى فلم يحتفل احتفالاً كلياً بهذا المندوب لمرض أبيه وانتشار الوباء في أنحاء القطر. وفي أواخر شهر يوليو سنة ١٨٤٨ سافر إبراهيم باشا مع هذا المندوب إلى القسطنطينية للمثول بين يدي الحضرة السلطانية واستلام فرمان التولية من يدها الشريفة وكان سفر سموه إلى جزيرة رودس على إحدى الدوارع المصرية تحفزه الدوناغة المصرية بتمامها ومنها ركب سفينة عثمانية كانت في انتظاره فوصل إلى إسلامبول في ٢٥ أغسطس وتشرف بالمثول لدى السدة العلية ونال منها كل رعاية والتفات، لكنه لم يلبث أن عاوده المرض فأسرع بالرجوع إلى مصر إتباعاً لمشورة الأطباء فسافر من القسطنطينية في ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٨ على إحدى السفن العثمانية فأوصلته إلى جزيرة رودس، وكان في انتظاره السفينة المصرية (بنى سويف) فركبها ووصل ثغر الإسكندرية في ٩ سبتمبر سنة ١٨٤٨ وكانت قد خفت وطأة الوباء بعد أن أهلك عدداً عظيماً من الأهالي، وبعد أن زار والده في سراي رأس التين عاد إلى القاهرة وجمع بالقلعة ديواناً عظيماً من علماء البلد وأعيانها وقناصل الدول وتلا فرمان العلى الشأن المؤذن بتوليته على أريكة الحكومة المصرية وأطلقت المدافع ايذاناً بذلك واستبشاراً بما هنالك، واستمر سموه قابضاً على أزمة الحكومة والأحكام إلى أن اخترمته المنون في ليلة ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ وكانت ولادته في مدينة قوله سنة ١٧٨٩ فتولى بعده عباس باشا ابن أخيه طوسون باشا.

وكانت وفاة محمد علي باشا في يوم ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ عن ثمانين سنة قضاها في تحسين القطر المصري وتخليصه من أعدائه المماليك وفتح الكثير من البلاد وإجراء الإصلاحات مثل فتح المدارس وإنشاء الترعة والجسور وتأسيس الورش والفابريكات، فمات رحمه الله مأسوفا عليه من كل مصري حرّ الترعة وسنأتى في الباب التالى على بيان ما فعله من الإصلاحات، بدون اختصار مخل ولا تطويل ممل، ليحظى القراء بما لهذا الشهم العظيم من الأيادى البيضاء على وطننا العزيز الذى كان مضغة فى أفواه المماليك يستترفون ثروته ويضعفون قوته بفعلهم ما لا خير فيه، مما أتينا فى صدر هذا الكتاب على بعضه لأن استقصاء ما ارتكبه فى مصر من المظالم والمحرّمات يستلزم المجلدات الضخمة بل يتعسر حصره فعلى من يريد الوقوف على أعمالهم أن يطالع الكتب المطولة فى فن التاريخ فإنها كثيرة لا تحصى وأسمائها لا تستقصى.

١٠ - خاتمة

فيما فعله محمد على باشا من الإصلاحات والتأسيسات

أن أول ما شرع فيه محمد على باشا رحمه الله ممدّن مصر من الإصلاحات ليعيد إليها مجدها الأثيل تأسيس المدارس لبث العلوم والمعارف بين المصريين الذين هجر وطنهم العلم، فأخذ العزيز في إحياء المدارس بعد أن كانت فيها دوارس وأعاد العلوم إلى وطنها ومرباها ليستضاء بمسراها، فأسس مدرسة الطب بأبي زعل بناء على طلب الدكتور كلوت بيك الفرنساوى سنة ١٢٤٢ هجرية (١٨٢٦م) وأتى لها بالأساتذة من البلاد الأورباوية وذلك أن كلوت بيك أظهر محمد على باشا احتياج البلاد لتأسيس هذه المدرسة لتستغنى عن الأطباء الأجانب، وليوجد بمصر أطباء كافية للجيش البرية والبحرية وقدم له بذلك تقريراً إضافياً قال في آخره يجب أن يكون بمصر مدرسة طيبة تكون تلامذتها من الوطنيين المخلصين الذين يغارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم وارتقائه في سلم التمدّن والعمران، ويتوصل لذلك بإنشاء استبالية عمومية يتعلم فيها مائة وخمسون شاباً ممن لهم إلمام بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة ومبادئ الحساب ويلزم أن تدرس لهم اللغة الفرنساوية وأنواع الطب بفروعه سيما الجراحة وتكون مدة الدراسة أربع سنوات يختبر التلامذة في آخر كل سنة منها، فسر الباشا من هذا المشروع وأصدر أوامره بتأسيسها وجعلها تحت رئاسة كلوت بيك.

وجعل أيضاً مدرسة للطب البيطرى وولى رياستها للموسيو هامون الفرنساوى، ومدرسة المهندسخانة ورئيسها (لامبريك) الفرنساوى، ومدرسة للموسيقى، وأخرى لتعليم الصنائع والفنون، وهذا كله غير المدارس الابتدائية والتجهيزية التى أنشئت فى أنحاء القطر المصرى ومدرسة الألسن بناء على طلب

العالم الفاضل رفاعة بيك فقد جاء في الخطط المصرية لعلى باشا مبارك في ترجمة
البيك المذكور ما نصه:

عرض رفاعة بيك للجناب العالى أنه في إمكانه أن يؤسس مدرسة لتعلم
اللغات الأورباوية ويمكن أن ينتفع بها الوطن ويستغنى عن الدخيل فأجابته إلى
ذلك ووجه به إلى مكاتب الأقاليم ل ينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع
فأسس المدرسة وفي المدة المعينة امتحنت التلامذة في اللغة الفرنسية وغيرها من
العلوم المدرسية، فظهرت نجابة التلامذة، ثم شكل بها قلم ترجمة ترجم فيه كثير
من الكتب. وكان بهذه المدرسة قسم تجهيزى خاص وهو أيضاً تحت رياسته
وكان معلموها من تلامذه مدرسة الألسن فنبغ منها رجال بارعون في
الإنشاءات العربية نظماً ونشراً وفي العلوم العربية كذلك، ثم ألغيت هذه المدرسة
مع غيرها من المدارس في مدة المرحوم عباس باشا.

وأنشأ أيضاً مدرسة لتعليم الزراعة العلمية والعملية ببلدة قديمة تدعى (نبروه)
من مديرية الغربية، وأتى لها من البلاد الأورباوية بالمعلمين وآلات الفلاحة
المستعملة في بلادهم وجعل فيها من شبان المصريين ٤٠ تلميذاً لدراسة فن
الزراعة الذى عليه مدار الثروة في سائر البلاد وإتقان هذا الفن النفيس علماً
وعملاً، وكذا صناعة استخراج السمن والجن من اللبن واعتنى العزيز بتلك
المدرسة وذهب إليها بنفسه وكان يودّ نجاحها، لكن الأهالي والحكام كانوا لا
يرغبون في هذه الإصلاحات وينسبون إليها عدم الفائدة وأنها لا تساوى ما
يصرف عليها ومع ذلك لم يحصل لهمته فتور حتى كثر اللغط بزيادة مصاريفها
وعدم ظهور نتيجة منها ولما رأى ناظرها المسيو (جران جان) عدم رضا الأهالي
عنها، استقال من وظيفته وخلفه فيها شخص أرمنى تربى في فرنسا فتبع أهواء
الأهالي وعوائد المزارعين فاضمحلت المدرسة بالكلية وكان ذلك داعياً إلى نقلها
لشبرا الخيمة لتكون تحت نظر الموسيو (هامون) ناظر المدرسة البيطرية، فأجتهد
في تربيها وإتقان التعليم فيها على أسلوب المدارس الفرنسية، لكن لم يمتنع

المعارضون عن معارضته ولم ينتظروا حسن النتيجة فاضمحل حالها ودرس أمرها ولم تأت بالثمرة المطلوبة.

وأسس أيضاً المدارس الحربية منها مدرسة المشاة (بيادة) وكانت بمدينة دمياط ومدرسة الخيالة بسراى مراد بيك الكبير ورئيسها المسيو (فاران) من ضباط الجيش الفرنسي ومدرسة الطوبجية بمدينة (طره) بالقرب من القاهرة ومؤسسها الكلونيل (سيجيرا) الإسبانيولى.

ولم يكتف العزيز بإنشاء المدارس فى كافة أنحاء القطر المصرى وتأسيس المدارس العليا بالعاصمة، لعلمه أنه يكون بهذه الطريقة دائماً محتاجاً لمعلمين من الأجانب ما دام لم يكن لديه من المصريين من يقوم مقامهم فى المستقبل فتكون مصر بسبب ذلك ملزمة باستخدام الأجانب فى حكومتها، اضطر إلى إرسال عدد عظيم من شبان المصريين إلى أوربا عموماً وباريس خصوصاً لتلقى العلوم بها لما اشتهرت به مدارسها من اتساع المعارف ودقة التعليم. ولا يخفى ما كان فى ذلك من مخالفة عوائد الأهالى الذين لم يفقهوا ولم يعلموا ما ينجم عن هذا المشروع من تقدم وطنهم بالنفع العميم فأخذوا يندبون حظ أولادهم الذين ساعدتهم الحظ الأوفر بدخولهم فى جملة من اختير للسفر وصاروا يستعملون كل الوسائط لحرمان أولادهم من ثمرة التعلم والتعليم لكن لم يفد بكاؤهم ولا انتخابهم شيئاً، بل صمم العزيز على إخراج مشروعه من حيز الفكر إلى حيز العمل مراعيّاً فى ذلك منفعة البلاد والعباد متيقناً أنهم يكونون عوناً له وللمن يسمو أريكة الولاية من بعده على الإصلاح والتقدم فى سبل الفلاح بقلب ثابت وعزم شديد.

فأرسل فى أوائل سنة ١٨٢٦ أربعين تلميذاً وفتحت لهم مدرسة خصوصية عهدت إدارتها إلى المعلم الشهير الموسيو (جومار) فقام بما عهد إليه خير قيام، ورتبها ونظم دروسها وعين لها مهرة الأساتذة وخص كل واحد من التلامذة بفنّ معلوم لشدة إتقانه، فقد جاء فى كتاب الموسيو (هامون) نقلاً عن تقرير

تقدّم من الموسيو (جومار) إلى محمد علي باشا سنة ١٨٢٨ أنه خصص من التلامذة اثنين للعلوم السياسية، وكان يدرس لهم قانون حقوق الملل والاقتصاد السياسي وأكثر اللغات الأوروبية المستعملة في السياسة، ويسوحن بلاد أوروبا للوقوف على عوائد أهلها ونظامها الداخلي والخارجية وحالتها الاقتصادية وأربعة للإدارة العسكرية وثلاثة للبحرية يدرسون العلوم الهندسية للدخول في إحدى المدارس الحربية أو البحرية، وثلاثة أيضاً للعلوم الميكانيكية يتعلمون الهندسة العملية ويتدربون في المعامل والفابريكات ويتعودون على بعض الأشغال اليدوية، وكذلك فرقة لفن الطبجية والإستحكامات وخص منهم عدداً عظيماً لدراسة الكيمياء الصناعية لاسيما ما يتعلق بالصباغة وعمل الزجاج والقيشاني وصناعة السكر، ل يكونوا مدربين على المعامل التي أنشئت بمصر كما سيجي، وفريقاً لصناعة الطبع والرسم والحفر في الحجر والخشب لأعمال الخراط الجغرافية والرسومات اللازمة للكتب العلمية وبعضهم للزراعة العملية التي هي من أهم العلوم والفنون بالنسبة لمصر واتساع أرضها وخصوبتها.

وكانوا يبحثون عما يمكن إدخاله في القطر المصري من الأشياء التي توافق تربتها من أنواع الثمار ويشغلون أيضاً بالتاريخ الطبيعي وقليل من علم البيطرة، ومنهم من تخصص لدرس المعادن وكيفية استخراجها وذلك للبحث عما عساه يوجد بمصر من المعادن وخصوصاً الفحم الحجري والحديد حيث كان محمد علي باشا باذلاً جهده في استكشافهما في مصر، لعلمه أهمهما روح الصناعة والتجارة والملاحة وبهما تقدّمت الأمة الإنكليزية عن غيرها من الأمم وصارت ملكة البحار.

ثم في سنة ١٨٣٢ أرسل أيضاً إلى باريس ١٢ تلميذاً من مدرسة الطب لإتمام دروسهم وأرسل غيرهم إلى أن بلغ عدد من أرسل من المصريين إلى سنة ١٨٤٢ مائه تلميذ.

ثم أنشأ العزيز للوازم الخيالة وتحسين نوع الخيل في القطر المصري اصطبلات لتربية الخيول واستنتاجها وقد قال الموسيو (هامون) الذي كان ناظراً على مدرسة البيطرة والإصطبلات في زمن المغفور له محمد علي باشا في كتابه الذي ألفه على مصر أنه لما تولى العزيز على مصر، لم يكن بها من الخيل إلا القليل غير الكافي بمحاجات الزراعة والجند لكن لما اجتهد رحمه الله في شأن إنماء الزراعة وتوسيع نطاقها والأخذ في تجنيد القدر العظيم من العساكر الخيالة جمع سموه عدة من جياذ الخيل ذكوراً وإناثاً وأنشأ لها اصطبلات بقرب القاهرة ثم نقلها بجوار سراية شبرا، فلم تحصل الثمرة المقصودة بل كان نتاجها يموت أو يتعيب من كثرة الأمراض، ولما كان المسيو (هامون) المذكور ناظراً على مدرسة البيطرة بأبي زعبل أمره العزيز بالتوجه إلى اصطبلات شبرا وتفقدتها وتحرير تقرير عما يراه لازماً لها من الإصلاحات حتى تأتي بالنتيجة التي أنشئت لأجلها، فتفقدتها وقدم للعزيز تقريراً بما رآه لازماً لها من التحسينات فكلفه الباشا بإجراء كل ما يجده موجباً لنجاحها فتولى إدارتها وبنى لها محلات جديدة مستكملة للشروط الصحية ورتب لها كافة ما يلزم لها من المأكول والمشارب، فتجت وكثر عدد خيولها وأنشأ اصطبلاً آخر بقرب (نبروه).

ثم لما رأى الأعيان والأمراء وأعضاء عائلة الباشا رغبته في تكثير الخيل واعتناؤه بأمرها رغبوا فيها وأكثروا من اقتنائها وتنافسوا في تخيرها، فسمو إبراهيم باشا السر عسكر كان له اصطبلات بجوار قصر النيل وفيها أربعمائة فرس تقريباً جميعها من الصافنات الجياذ، وكذا كان لعباس باشا اصطبلات بالقرب من المطرية أغلبها من كرائم خيل العرب وكذا كان عند كثير من الأمراء والأعيان اصطبلات وفيها خيول جيدة، فكان لأحمد باشا يكن اصطبل فيه نحو ثلاثين فرساً وأيضاً لما كان إبراهيم باشا ببلاد الشام أرسل إلى مصر العدد الكثير من إناث الخيل الشامية ففرقت في البلاد المصرية.

وكذلك أنشأ للوازم الجيش عموماً معامل لصناعة البارود والبنادق وسبك آلات المدافع وعمل الأحذية والملابس الضرورية للجيش حتى أصبح جميع لوازم الجندي من سلاح ولباس يصنع بالقطر المصري على نفقة الحكومة تحت ملاحظة الأوروبيين الذين استخدموا لهذه الغاية الجلييلة.

ولم يكن اهتمام العزيز محمد على باشا بالبحرية أقل من اهتمامه بالعساكر البرية فأنشأ بمينا الإسكندرية ترسانات لصناعة السفن التجارية والحربية، وكان الرئيس عليها رجلاً وطنياً يقال له الحاج عمر وكان من الخداقة والنباهة على جانب عظيم لكن لما دمرت أغلب السفن المصرية في واقعة ناوارين الحربية وشرع العزيز في عمل دونانمة أخرى استحضر من فرنسا المهندس الحاذق الماهر الموسيو سريزي بيك لتعميق الترسانة ليكون بها من المياه ما يكفي لحمل السفن الكبيرة المزمع على إنشائها ثم أخذ في تأسيس ورش مخصوصة لقتل الحبال وصناعة الحديد وعمل الصواري والقلوع وكافة ما يلزم للسفن وفي أثناء هذه الأعمال جمع من جهات الأرياف العدد الكافي من شبان الأهالي لتعلم هذه الصنائع تحت مراقبة معلمين من البلاد الأجنبية فاختص كل فريق بفرع من فروع مصالح السفن حتى أتقنها.

وكانت نتيجة ذلك إتمام عدة سفن في أقرب وقت بين حربية وتجارية مع الإتيان، بحيث أنها عادت أحسن السفن الأوروبية واستغنت الحكومة بذلك عن شراء سفن من الخارج، نعم كانت الحكومة تشتري كافة ما يلزم لها من حديد وأخشاب من البلاد الأجنبية بأثمان فاحشة لعدم وجودها في بلاد مصر وشدة الإحتياج إليها.

ولم يكن ذلك داعياً لفتور همة محمد على باشا بل استمر على إنشاء السفن بمصر ولم يصغ لكلام التجار الذين كانوا دائماً يشبطونه عن إنشائها ويدون له مالا مزيد عليه من الصعوبات وكثرة المصاريف، ويدخلون عليه بكل حيلة لينثني عزمه عن هذه الوجهة الشريفة المبدأ والغاية، وصارت بذلك الدونانمة

المصرية تعادل أو تفوق دونائمة الدولة العلية وأحسن السفن الحربية المصرية السفينة المسماة بالحلّة الكبرى والمنصورة والإسكندرية، وكل منها يحمل مائة مدفع، وأما مصر وعكا فإنهما يحملان ٩٨ مدفعاً هذا سوى السفن الصغيرة التي تقل حمولتها عن هذا المقدار وكان عدد من بها من الجند والبحرية نيفاً وخمسة عشر ألفاً بخلاف الصانعين بالترسانة وكان عددهم لا ينقص عن ٤٠٠٠. وبالجملّة فقد بلغت مصر في مدته درجة لم تبلغها قط منذ ولاية الرومانيين عليها فكانت قوّتها البرية والبحرية على ما جاء في كتاب كلوت بيك تزيد عن ٢٧٦ ألف جندي منها ١٣٠ ألفاً من الجنود المنتظمة و ٤١ ألفاً من الباشبوزق و ١٩ ألفاً وخمسمائة من البحرية والباقي من عساكر الرديف وتلامذة المدارس الحربية.

وغير ذلك كان له اعتناء كلي بإنشاء الإستحكامات اللازمة لحفظ سواحل مصر من إغارة الأجانب عليها كما حصل في سنة ١٨٠٧ فأحضر لذلك المهندسين الحربيين من الأجانب، وكلفهم باختيار المواقع المهمة من جميع السواحل المصرية اللازمة لإنشاء استحكامات بها فأست طبق رغبته العلية وأحضر لها المدافع اللازمة وعين لحفظها العساكر الكافية، فتحصنت بذلك مصر وازدادت قوّتها أضعافاً حتى قاومت الدولة العلية وبذلك انتصرت مراراً على غيرها، كما سبق ذكر ذلك في محله، وزيادة على ذلك مال كثير من قوادر الدولة العلية للإنحياز إلى مصر لما شاهدوا في عزيزها من الكفاءة والقدرة على أجل الأعمال وأنفعها وسلم أحمد باشا فوزى قبودان الدونائمة الشاهانية دونائمه إليه بما فيها من الجند وكانت مركبة من ٩ سفن كبيرة وستة عشر سفينة صغيرة تحمل ستة عشر ألفاً من الجند البحريين و ٥ آلاف جندي برى، فبذلك يظهر جلياً أن الديار المصرية اكتسبت بحسن تدبير عزيزها قوة يمكنها بها أن تقاوم أكثر من دولة حتى اضطرت الدول ليأمنوا على أنفسهم من صولة الديار المصرية أن يتعاهد بعضها مع بعض بإرجاع مصر إلى حدودها الأصلية، كما

رأيت في هذا الكتاب، وفي ذلك أكبر شاهد على قوة فكر العزيز وسعة عقله وعلوّ همته ومكانة شهامته وحسن تدبيره.

ومن إنشاءات محمد علي أيضاً فابريقات الغزل ونسيج القطن والحرير والكتان والصوف فكان للقطن خاصة ١٨ فابريقة وكانت في أهم مدن القطر، كالمصورة ودمياط ورشيد، إذ كان ينسج فيها قلع السفن والمخلة الكبرى وشبين الكوم وقلوب وزفتى وميت غمر في الوجه البحري وبنى سويف وأسيوط، وبهما أكبر فابريقات الصعيد ثم في المنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا بالوجه القبلي، وأكبر الفوريقات فورية بولاق مصر التي كانت تسمى بفورية مالة لكثرة وجود المالطية بها وكان رئيسها المسيو (جوميل) الفرنسي الذي اجتهد في نشر زراعة القطن في القطر المصري، وأقدمها الخورنفس بمصر التي أنشئت سنة ١٨١٦ وأنشأ العزيز عدة فوريقات آخر لغزل الكتان وأنشأ أيضاً الميضة بين بولاق وشبرا لتبيض مقاطع الكتان وبصم أقشة الشيت وكان يصمم بها أيضاً المناديل فترغبها النساء كثيراً وفيها أيضاً أنوال النسيج الحرير وقد جعل بها ٢٠٠ نولا لنسيج المقصب وغيره وأحضر لها صناعات من إسلامبول فأتقنت صنعته وصار ما ينسج بمصر يضاهي في الرقة وحسن الصنعة ما يصنع في بلاد الهند ونحوها.

وأنشأ بالقاهرة فورية لقتل حبال المراكب وغيرها من التيل وقد كان هذا النبات مفقوداً من مصر فأوجده بها وأنشأ في بولاق فورية الجوخ أحضر لها في مبدأ الأمر رجالاً فرنساوين أداروها مدة وتربى تحت أيديهم جماعة من شبان المصريين، ولم يكتف محمد علي باشا بذلك بل أرسل جملة من الشبان إلى فوريقات سيدان وليون من أعمال فرنسا المشهورة بصناعة الجوخ فتعلموا تلك الصنعة وأتقنوها ثم عادوا إلى مصر واستخدموا بفورية بولاق فحسن الجوخ وصار يستعمل في ملابس العساكر، وكان ينسج بها أيضاً أحزمة وسجاجيد للزوم العسكر ثم أنشئت فورية بمدينة فوه لعمل الطربوش تحت إدارة رجل

مغربى وجلبت لها الشغالة من تونس فنجحت حتى صار المتحصل يوميا ستين دوزينة.

ومن إنشاءاته فوريقات السكر بالصعيد فأنشأ واحدة في الزيرمون وأخرى بساقية موسى وأخرى بالروضة، ومن ذلك إدخال زراعة النيلة بالقطر المصرى فجلب لها عدداً من مزارعى بلاد الهند لتعليم الأهالى وانتشرت زراعتها بالبلاد وكان أغلب محصولها يستعمل فى المصايف التى أنشأها بشبرا وغيرها من بلاد الوجه البحرى والقبلى وأنشأ أيضاً معاصر الزيت فكان منها فى الوجه البحرى مائة وعشرون معصرة لعصر زيت الكتان والسمن وفى القاهرة أربعون لزيت القرطم وعدد عظيم فى الوجه القبلى لاستخراج زيت الخس خصوصاً فى مديرية إسنا وأخرى لزيت السلجم فى أحميم وما جاورها.

ولشدة اعتناؤه رحمه الله بإصلاح أحوال مصر ورفاهية أهلها لم يكتف بإنشاء المعامل والفوريقات بل وجه اهتمامه لإيجاد المواد الأصلية لهذه الصنائع بالبلاد المصرية، فأمر بالإكثار من زراعة القطن والتيل والنيلة وكافة النباتات التى لها دخل فى الصناعة، ثم عن له أن يدخل تربية دود القز إلى الديار المصرية حتى تستغنى به البلاد عما يأتى لها من الشام وغيرها فأمر بإنشاء عدة سواقى وتوابيت بالمحل المعروف برأس الوادى (شرقية) وأن يزرع شجر التوت اللازم لتغذية الدود وذهب بنفسه إلى هذا الإقليم للإسراع بإنشاء السواقى وإقامة الأبنية اللازمة لسكن المعينين من الفلاحين لتعهد الأشجار بالسقى والخدمة، فلم يمض إلا قليل من الزمن حتى كان بها ألف ساقية وغرست أشجار التوت لتربية دود القز والحرير كما هو حاصل فى بلاد الشام وجبل السدروز ثم استحضر العزيز من هذه الجهات كثيراً ممن لهم إلمام ودراية بتربية دود القز وصناعة الحرير وجمع لهم عدداً وافراً من أهالى الشرقية الخالين عن العقار، لتعليمهم وسكنوا فى كفور بنيت لهم وزين هذا الوادى بالسواقى والأشجار حتى صار أهلاً للسكنى بعد أن كان قفراً وعراً وفضاء متسعاً.

وقال كلوت بيك في كتابه على مصر أن جميع ما غرس من شجر التوت بجهة الوادى يبلغ ثلاثة ملايين شجرة في جهات متعددة تبلغ مساحتها عشرة آلاف فدان وكان مقدار الحرير المتحصل سنة ١٨٣٣ تسعة آلاف وتسعمائة وخمسة وسبعين أوقية، وكان لذلك أماكن وخدم أتى بهم العزيز من الخارج وتعلم منهم الأهالي وبلغت دواليب الحرير مائتى دولار ثم اضمحل ذلك بعده حتى كأن لم يكن ولا يستعمله الآن إلا القليل من الأهالي. اهـ.

ثم أحضر رحمه الله من بلاد أوروبا عدداً وافراً من أغنام أوربا المعروفة بالمرينوس وذلك لتحسين جنس الأغنام المصرية وتحسين صوفها فإن صوف الغنم المصرية على ما جاء في كتاب هامون الفرنساوى بسبب طوله وخشونته وصلابته كان غير جيد لعمل الجوخ والطرايش والثياب الرفيعة فكان العزيز يشتري سنوياً من صوف غنم أوروبا بقيمة ثمانمائة ألف فرنك.

ووزعت الأغنام الأوربية في مديرية البحيرة وجعل لها مدير خاص بها وعين لها رعاة من العرب ولكن لقلة المراعى بهذه المديرية ووجود أغلبها على حافات الترع وفي مواطن الأرض الرطبة تولدت فيها الأمراض، ومع ذلك لم يكن لها ما يقيها حر الصيف وبرد الشتاء حتى مات منها كثير، ثم ذهبوا بها إلى الصحراء لكثرة مرعاها عن غيرها فكان يتعلق الرمل بأصوافها وجلودها فيضر بصحتها وجودة صوفها فلذلك لم تحصل منها الثمرة المقصودة، ثم كلف العزيز الموسيو هامون بالنظر في أحوالها وترتيب ما يوجب صحتها وتحسين صوفها وإكثار نتاجها وأمره بتوزيعها في المديرية البحرية بحيث لم يبق في مديرية البحيرة إلا ألف وخمسمائة رأس منها وصدرت أوامر أيضاً ببناء مراحات بسبرباى ومحلة روح والمنصورة وغيرها، فنظر الموسيو هامون في أمرها وسن لها لائحة تتبع في كل جهة وأهم ما بها أن عدد المراح الواحد لا يزيد على ألف ويكون له ناظر أوروبوى وكاتب ليقيد ما يموت وما يولد وجنس الذكر والأنثى وأن يميز

البطون بعضها عن بعض بعلامات تعرف بها كتاج أول بطن يعلم بخرقه في الأذن اليمنى ونتاج البطن الثانية في اليسرى إلى غير ذلك من العلامات.

ولرغبته في تحسين الأغنام في كافة أنحاء القطر من تلك الأغنام اشترى من العرب أربعة آلاف رأس وقدرها من الأهالي ووزع في الجهات جملة من ذكور الأغنام المرينوس واستمر الحال على هذا المتوال، وقد قال الموسيو هامون في كتابه أنه وجد منها في القطر المصري سنة ١٨٣٧ ميلادية سنة ١٢٥٣ هجرية ٧٥٤٨ رأساً، ومع بذل الإجهاد والاهتمام لم يتم غرض العزيز من تلك المصلحة لعدم قيام المستخدمين بما عينوا له على الوجه المطلوب، فإنه لم يحصل من صوفها بعد عشر سنين من تجزئتها إلا نحو ستمائة أوقة مع كثرتها وكثرة مصاريفها ولم يستغن عن شراء الصوف من البلاد الخارجية ثم لم يزل حال الأغنام في الإضمحلال حتى لم يكن منها الآن إلا آثار قليلة في بعض جهات الوجه البحرى. اهـ.

وأما اهتمام محمد علي باشا بأمور الري الذي عليه مدار الزراعة في القطر المصري فإنه كان عظيماً جداً ولا شك أنه أدرك بقريحته الوقادة وفطنته النقادة أن مدار سعادة مصر بالأصالة هي الزراعة ولا يسوغ لها أن تتوقع ثروة إلا إذا كان من محصولها الزراعى وأن حياتها متعلقة بنيلها، إلا أن أرض مصر أقرب للتلف من غيرها اذهى تابعة للنيل وجوداً وعدماً فإذا أغمض النيل عنها عينه سنة من السنين أو حجب عنها فيضانه المزوج بالطمي المنصب الذي هو بالنسبة لأرض مصر بمثابة السماد كانت السنة سنة جذب كما أنه إذا أغرقها بمائه الزائد عن الحاجة كان الضرر أعم والخطب أدهى وأهم، وحسبك في ذلك ما جاء في القرآن الشريف في سورة يوسف عليه السلام من ذكر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، فالآية قد جاءت في وصف مصر على وجه التحقيق وقوله تعالى "فما حصدتم فذروه في سنبله" يرشد إلى الإحتياط والإحتراس ولذلك كان حكماء ملوك مصر يحتاطون في سنى الخصب فلا يخرجون الزائد

عنهم لغيرها من البلاد، ويعتنون كل الإعتناء بحفظ مجرى النيل وتنظيم القناطر والجسور والترع والخلجان واستمر الحال كذلك حتى وقعت مصر في قبضة المماليك فكانوا لا ينظرون لعمارها بل يأخذون كل ما طاب لهم وراج في كل عام حتى صارت مصر خراباً وأهمل أمر النيل وترعه حتى كانت الأراضي تفسد في كل عام في كثير من الأقاليم، إلى أن هجمت جيوش رمال البراري على وادي النيل ولو بقي حكم إبراهيم بيك ومراد بيك عشرين سنة لفسدت جميع أرض مصر الزراعية ومن فيها، ولما قيض الله لمصر المرحوم محمد علي باشا أدرك أهمية النيل بالنسبة لمصر وأخذ في إحياء موائها فوجه اهتمامه أولاً إلى إيصال الماء إلى مدينة الإسكندرية لرى ما بينها وبين فرع رشيد من الأراضي.

وصدرت أوامره السنية سنة ١٢٣٣ هجرية الموافقة سنة ١٨١٩ ميلادية بحفر ترعة المحمودية وأن تعمق حتى تجرى صيفاً وشتاء وأن توسع بحيث يسهل لجميع سفن النيل منها الوصول إلى المدينة بأنواع المحصولات في زمن قريب بلا كبير مصرف ولا مشقة مع حصول تمام النفع للأهالي وحيواناتهم ومزروعاتهم. وكانت قبل ذلك تجارات القطر لا تصل إلى الإسكندرية إلا من ثغر رشيد أو دمياط وذلك مستوجب لكثرة المصرف وزيادة المشقة جداً فإن سفر البحر المالح لا يخلو عن الخطر وكانت لا تخلو سنة عن غرق بعض السفن والبضائع والآدميين. ولأهميتها جمع لها عدد عظيم من الأهالي من جميع مديريات القطر حتى تمت في أقرب وقت مع الأبنية اللازمة لها وقد بلغ ما صرف عليها إلى تمامها ٣٠٠ ألف جنيه، على ما نقله كلوت بيك، وهذا بالنسبة لما ترتب عليها من المنافع شيء يسير كما هو مشاهد وجعل فيها فمها عند ناحية العطف وكان ذلك سبباً في اتساع عمارة تلك الناحية وكثرة خيراتها، إذ كانت مرسى للسفن التجارية وجعل مصبها بالقرب من الإسكندرية وقد حصل منها منافع جمة وفوائد عديدة، كأحياء غالب الأراضي التي بجوانبها من العطف إلى الثغر، بعد أن كانت ميتة غير صالحة للزراعة ولما اتسع نطاق الزراعة بسببها اتضح عدم كفاية مياه المحمودية بجمعها واحتيج إلى تركيب وابورات العطف، ثم إنه عند

تمام حفرها جعل في فمها وفي مصبها قناطر كانت مانعة لسفن النيل والسفن الآتية من الخارج من الدخول فيها فكانت التجارة تنقل مرتين عند فمها وعند مصبها وبالعكس.

ولما علم العزيز بأن وجود القناطر ينشأ عنه المصاريف الباهظة التي توجب تأخير تجارة القطر المصري فضلاً عن المشقة وكان غرضه درء المضار وتذليل الصعوبات، أمر جنابه العالي بإزالة تلك القناطر وصنع هويسات على فمها ومصبها وذلك في سنة ١٨٤٢ الموافقة سنة ١٢٥٨ هجرية، وسميت هذه الترعة بالمحمودية نسبة إلى السلطان محمود الثاني سلطان القسطنطينية.

وقد شرع العزيز محمد علي باشا في إنشاء كثير من الترع والجسور والقناطر لتعميم الري وأتم أغلبها، ومن أكثر هذه الأعمال فائدة وأكبرها عائدة إقامة القناطر على فرعى النيل المقتربين عند شلقان وذلك أن هذين الفرعين يتكون منهما مثلث وهو الجزيرة المسماة بالدلتا ومنهما تروى عدة مديريات وهي القليوبية والشرقية والدقهلية والمنوفية والغربية والبحيرة إلا أن انتفاع تلك المديريات منهما لا تكون تاماً إلا في زمن فيضان النيل، أما في زمن التحريك فميا ههما تنصب في البحر المالح ولا تعود منهما على الزراعة أدنى فائدة ولذلك استصوب المرحوم محمد علي باشا إقامة قنطرتين عليهما من أمام شلقان إلى بر المناشى إحداها على البحر الشرقي والثانية على البحر الغربي، وأن تكون القنطرتان على استقامة واحدة من البرين وأن يبنى رصيف على رأس الجزيرة يكون ابتداءه من الشاطئ الغربي من فرع دمياط وانتهاءه إلى الشاطئ الشرقي من فرع رشيد وأن يكون هذا الرصيف عالياً جداً بحيث لا يرتفع إليه الماء في زمن الفيضان، وأن يعمل لهذه القناطر عيون بأبواب محكمة تقفل وتفتح بحسب الإقتضاء لحبس الماء وإرساله عند اللزوم، وأن يعمل أيضاً لمساعدة القناطر ثلاث ترع (رياحات) كبيرة تكون فوهاقها من فوق تلك القناطر وإحدى هذه الترع تكون معدة لرى القليوبية والشرقية والدقهلية بغاية الراحة وفوهاقها من

الشاطئ الشرقى قبلى شلقان، والترعة الثانية تكون فوهتها من وسط رأس الجزيرة أعنى من منتصف الرصيف وتكون معدة لرى المنوفية والغربية، والترعة الثالثة يكون مأخذها من فوق القناطر الخيرية ببر المناشى وتكون معدة لرى مديرية البحيرة، وأن يعمل هذه الترعة الثلاثة قناطر وعيون بحسب ميزانية الأرض وأن يعمل لها أبواب تقفل وتفتح عند اللزوم فإذا فتحت القناطر الخيرية والرياحات على هذه الكيفية ترتب منه أنه فى وقت فيضان النيل تفتح القناطر الخيرية وقناطر الترعة الثلاث لتصريف ما زاد من مياه النيل عن لزوم الرى وفى أيام التحريق تقفل الأبواب المذكورة قفلاً محكماً فترتفع المياه أمام القناطر المذكورة فتصب فى الرياحات وبذلك تزيد فيها المياه أيام التحريق ويتسع بذلك نطاق الزراعة الصيفية.

ولذلك أمر محمد على باشا ببناء هذه القناطر، وعند وضع أول حجر من أساسها احتفل احتفالاً رسمياً وكان ذلك على ما جاء فى كتاب موسيو (وانترينيه) فى يوم ٩ إبريل سنة ١٨٤٧ بحضور جتتمكان وقناصل الدول وجم غفير من أعيان الاهالى والتجار الوطنيين والأجانب، وعندما تنازل رحمه الله بوضع الطين على الحجر الأول بيده الطاهرة أطلقت المدافع إيذاناً بالإبتداء بهذا الفعل العظيم الذى يعود على مصر بما لا يقدر قدره من الفوائد وانتشر البشر والسرور فى أنحاء القطر بين الاهالى واستبشروا بالسعادة والرفاهية بسبب هذا البناء، الذى لو لم يكن لمحمد على باشا إلا هو لكفاه فخراً جميلاً ونبلأً جليلاً واستحق من المصريين الشاء عليه والإخلاص له ولعائلته الكريمة وحاشيته العظيمة.

ومن منشآته رحمه الله تلغرافات الإشارات، رتبه الموسيو (ابرو) بمساعدة الموسيو (كوست) بين مصر والإسكندرية فى سنة ١٨٢١ ميلادية بشاء على أوامر عزيز مصر، وذلك لتصل إليه أخبار جيوشه المشتغلة بقتال اليونان فى أقرب وقت وقد جعل لهذا التلغراف ثمانى عشرة محطة بنيت فيها الأبراج العالية

وأتى لها بالنظارات والآلات من بلاد أوربا، وقد تم هذا المشروع حتى وردت الأخبار من الإسكندرية إلى القاهرة وبالعكس في مسافة لا تزيد عن أربعين دقيقة.

* * *

وبالجملة أصبحت مصر ذات بهجة ونضارة وزهرة وغضارة بل أصبحت مدينة السلام ودارة الاستسلام ومناراً للعلم وعلماً للحق، فانسق النظام واستتب المرام والتأمت الحال بعد أن استحال وأخصب القطر وأثرى، فزالت فاقته وانتشرت إفاقته واستوفر أسباب التقدم بعد أن أوشكت أركان التمدن أن تهدم، حيث العزيز (برّد الله مضجعه) برّد الغليل وشق الغلة وآسى القطر بحكمته وأزال العلة فأسرع لمصر الصفاء وتزلف لها غبّ غيبة وجفاء، وفنى في فنائها الروع وأحييت بها السكينة فأسكنت الربوع وأبىد الظلم والميل ونشر لواء العدل الظليل وسوى بين الحقير والجليل، والوضيع والأثيل والدخيل والأصيل، وأحكمت بين مختلف الأقوام غرى التآلف وبثت روح الإخاء والتحالف، ومنحت المنح وأجزلت الجوائز وحفظ العزيز العُرف لذويه وأغضب قلوب أهل الإلحاد وموازريه وكان جميل صنعه وجميل مصطنعه سُلماً، إلى ملتسمه وبلاغاً لمبتغاه، فهادنته صروف الزمان وتخطته حوادث الحداث ولوت عنه عوادي الملوان وغفر للذهر هفواته وعفى عنه من زلاته بعد أن انتهى لجنابه حلّ الأمور وعقدّها وفتحها ورتقها، وعانى المشقات بعوالى الهمم وحمى وطيس الحروب واحتدم، وطهرت البلاد من العائين ووطد أركان الأمن باستئصال جرائم المفسدين وملّك المقسطين أزمة الأحكام وقد هامت الظالمين بصمصام الانتقام حيث كانت لهم سطوات وصولات ووقعات وبطشات فكانوا أحكموا أسباب الوقاحة وقطعوا أوصال السماحة ومدّوا أطناب المظالم وأطنبوا في بث المحارم، وعمدوا إلى استعباد المصرى فكان عميداً وأثقلوا كاهله بالبلايا حتى صار سيره ونيداً، ولجّوا في غلوائهم واستمروا في جهالاتهم وهافتوا في ضلالاتهم وجمعوا في غواياتهم فكان تاريخهم نوادر مساءات وبوادر سوآت ولكن أبى الله

إلا أن مَرَضَتْ أهواؤهم وتصرّمت علاقاتهم وانبتت أواخيهم ورث عهد شوكتهم ووهن زمام صولتهم بمصاليات الجند وصناديد العزيز في ذلك العهد إذ أعملوا عوامل الفتك، وشحدوا أسنة البتك وإن شئت فقل كانوا حُمَاة الإنسانية وذادقها ورُعاة المروءة وكتبتها، كل ذلك بتدبير وإشارات العزيز كوكب عصره وفريد دهره والأقوام، ومنبعث العدالة والنظام ممدن مصرنا وعزيزها الأول وقد خلفه خلف أضاعوا بقية الفطائع وآثروا الحقائق فأودوا الشبهات بحججهم القواطع، فأصبح الناس يحمدون غيب السرى ويتناقلون صحف اليمن والأمان بلا امترا^(١)، حتى تبوأ أريكة الملك خير مملك على التحقيق، ألا وهو خديونا الداوري الأكرم (محمد باشا توفيق) فآتم للنظام مَعَدَّاته وشيد للعلم مناراته وأكمل للعدل منصّاته وأسبغ للإرتقاء لباناته، حتى أجمعت القلوب على محبته وولائه بما أفعمها سروراً من عواطفه السنية وآلائه وأنعشها بإبادة غواشي الدهر وبأسائه، فقد بلغ بمصر من المترلة غاية ليس وراءها مُطْلَع لناظر حتى ساوت سواها من الأمم المُعجبة بالمدينة في ميدان الرفاهة والتفاخر، سيما في عصر الوزارة الوطنية المحضة الرياضية أبيات النفوس العصامية حيث صرفت في بلوغ القطر أمنيته عنايتها وبذلت في تقدّمه جهدها المستطاع ورعايتها، وحفظت لأبنائه حقوقاً طالما ماطلها فيها السّهر وانتقت للهيئة الحاكمة رجالاً ازدهى بمآثرهم تاريخ هذا العصر غُذُوا بلبان الحكمة فأخاهم الإخاء وغنوا بالعدالة فصافاهم الصّفاء فمتع اللّهم مصرنا بشموس علا التوفيق وأنجاله الفخام وأمتعه بدوام وزارتها الحالية وأيدّ مناصب رجالها البررة الكرام، وأفض على قطرنا من قطرات فيوضاتك الإلهية وأمنحنا جميعاً من لحظات عنايتك الصمدانية ما يعضد آمالنا وينحج أعمالنا لنحظى بمرضاتك في الحال ولنفوز بتنزل رُحماك في المآل.

وإلى هنا أمسكت عنان البراع واقتصرت من الجُلّ على القُلّ بل على البعض من الكلّ وجعلت هذه العُجالة سهلة المآخذ لمن رام الإطلاع على مناقب جمعت

(١) هكذا في الأصل (المحرر).

شتاتها من مفرقات الرقاع ما بين غربية وشرقية، وعربية وأعجمية، وتحاشيت فيها عما غرب مبناه وعزب مغزاه، وليس قصدي أن يقال فلان ألف، وصار له في كتيبة الكتب مؤلف، وإنما هذه خدمة لوطني الأعز الأغر، حملني على القيام بها حبه الصادق الأبر، ومع ذلك أرجو إقالة عثاري عند العشور فيها على السقط، وادكر أيها المطلع (من ذا الذي ما ساء قط)، أحسن الله لنا خواتيم الأمور، بجاه خاتم المرسلين وصلى وسلم عليه وعلى إخوانه النبيين وآله وصحابه الأكرمين والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين ما جمع كاتب بين حرفين، وبلغ الكمال المطهر من التشيع والمين.. آمين.

* * *

تذييل: تقريظ الكتاب*

(يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة البهية ببولاق مصر المعزية الفقير
إلى الله تعالى محمد الحسيني أعانه الله على أداء واجبه الكفائي والعيني)

سبحان من جعل حوادث الأولين عبرة للآخرين وأحوال الماضين عظة
وإرشاداً للغابرين يتفكرون فيما كان لهم من معالي الأمور فيأتسون ويتدبرون ما
أخنت به عليهم الدهور فيتعظون، لهذا كان علم التاريخ من أجل العلوم التي لها
في نفوس العقلاء أعظم وقع والفنون التي بها للإنسان أكبر نفع، فاعتنى به
العقلاء ودوّن فيه النبلاء والفضلاء وكان ممن حذا هذا الحذو ونحا هذا النحو
الشاب النبيه النبيل، والفطن الأريب الجليل، الفائق بذكائه على أقرانه، الكامل
في أخلاقه وجميع شأنه ذو الطالع السعيد حضرة محمد بيك فريد نجل ذى
الكمالات التي لا تحصى والمزايا الحسنة التي لا تستقصى، صاحب الهمة العلية
والأخلاق البهية الذى زادت به روح الحكومة المصرية انتعاشاً، ذو السعادة
ناظر الدائرة السنية الآن أحمد فريد باشا أدام الله مجده وأكمل سعده، فإن
حضرة البيك حفظ الله طلعتة وأزهر نبعته ألف هذا الكتاب الذى كأنه
الجوزاء والثريا حسناً وفاق غيره بلطفه الأسنى المسمى (البهجة التوفيقية في
تاريخ مؤسس العائلة المحمدية العلوية) سفر أسفر لنا عن بعض آثار أصل هذه
العائلة الشريفة المرحوم محمد على باشا، ذى المزايا البارعة المنيفة، ونجمله البطل
الهمام إبراهيم باشا الأسد الضرغام ورجاله الفخام، وكشف لنا عما قاسوه من
المشاق المهولة والمصاعب الشديدة وقطعوه من كل عقبة كؤود في حضرهم
وأسفارهم البعيدة، حتى ذللوا في ملك مصر كل شامس وقيدوا كل شريد
وقربوا مما لم ينله غيرهم في إصلاح هذا القطر كل بعيد، قصموا كل صنديد
بسيف السطوة والجولة، وقطعوا كل جبار عنيد بسهام الجبرية والصولة حتى
غدت مصر بهم آمنة من صيال الصائل، لا تخشى اختلاس لص ولا اغتيال

* وضعنا هذا العنوان من عندنا لأنه يحوى على تقريظ للكتاب وأثرنا نشرها ليكون الكتاب كاملاً (المحرر).

الغائل، فيا له من كتاب ما أرق لفظه وأدق معناه، وما أطف تشييده وأمكن
تنبأه ولما بلغ من الحسن غايته ومن جودة التأليف نفايته، انتهض مؤلفه حفظه
الله لطبعه على ذمته، رغبة في عموم نفعه بالمطبعة الزاهية الزاهرة ببولاق مصر
القاهرة فانتهى طبعه بحمد الله على هذا الوضع اللطيف والشكل الظريف، في
ظل الحضرة الفخيمة الخديوية، وعهد الطلعة المهيبة البهية التوفيقية حضرة من
أجرى أمور رعيته على نهج السداد، فبلغوا من الثروة والرفاهية غاية المراد،
وسلك في إصلاح أحوالهم سبيل الرشاد، أدام اللهم سدته ملتئم الشفاء ومأمن
كل خائف أواه، وأطل بقاء حضرات أنجاله الكرام وأشباله الفخام، ملحوظاً
هذا الطبع بنظر من عليه جميل أخلاقه بمزيد اللطف يثني حضرة وكيل الأشغال
الأدبية محمد بك حسنى، وكان تمام طبعه وكمال ينعه في أواخر رجب الفرد من
هجرة سيد الأولين والآخرين صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين
كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

* * *

وقد قرّظه الأستاذ الفاضل الشيخ طه محمود قطارية الدمياطى أحد فضلاء
المصححين بهذه المطبعة مؤرخاً عام طبعه فقال:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اللهم) إنا نحمدك على نعمك ما ظهر منها وما بطن لاسيما نعمتي الإيمان
والأمان في الوطن ونصلى ونسلم على سيدنا محمد أفصح الناس لهجة، الذى
جاء للعيون بالقرّة وللوجوه بالبهجة وعلى آله مفاتيح النعمة وأصحابه مصابيح
الظلمة (أما بعد) فإن أقوى دليل على رسوخ قدم التمدن الآن بين المصريين وأن
الله زادهم بسطة في العلم وكساهم جلايب السعادة في هذا العصر التوفيقى
الذى أخذت فيه الأرض زخرفها وازينت ما نراه من اشتغال الناس كافة
بأسباب التقدّم وإكبابهم على وظيفتى التعليم والتعلم وتدوينهم للكتب في جميع
الفنون، اتحد في ذلك صنيعهم واستوى في سلوك هذه السبيل شريفهم
ووضيعهم، فكلهم على هذا المنوال ناسج ولهذا الباب والجزء، بعد أن كان حى

العلم بينهم مقبوراً وحى الآداب عنهم حجراً محجوراً، وظالماً أصبح الكاتب وهو فيهم شئ لا يذكر والمؤرخ أعز من الكبريت الأحمر، أما اليوم فإنك لا تشاء أن تمرّ في طريق إلا رأيته مزدحماً بشيوخ وشبان كلهم من ذوى العلم والعرفان، ومن سلك من أبناء مصر في هذا العصر هذه السبيل مؤلف التاريخ الجليل المسمى (البهجة التوفيقية) وهو الأمير ابن الأمير (محمد بك فريد) جاء في تاريخه هذا بما يشرح الصدور من أبناء عزيز مصر ومحى مواثم الحاج محمد على باشا رَوَّحَ اللهم رَوْحَهُ واجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحة، وأجزه عن المصريين خيراً، جمع فيه محاسن أعماله التي أخرج بها مصر وأهلها من ظلمات الجهالة والخوف إلى نور العلم والأمن واستأصل برأيه السديد وبأسه الشديد شأفة الطائفة العاسفة التي سلطها الله على مصر ما شاء أن يسلطها، ثم جعل حتفها على يد هذا الخديو الكبير، الذي لم يسمع الزمان له بنظير وهذه الأعمال الخيرية والهمة العلية العلوية هي التي بعثت هذا المؤلف الهمام لتأليف هذا التاريخ ونشره بين الأنام ليتدبر أولو الألباب إذا وقفوا على هذا الكتاب وليعرفوا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها إذا علموا أن مصر لم تكن لتصلح للسكنى قبل جدّ العائلة المحمدية كما يشهد بذلك آباؤنا والكتب التاريخية ومما زادنى سروراً أن مؤلفه "حفظه الله" قام بطبعه وتعميم نفعه.

ملحق

صفحات من الطبعة الأولى للكتاب

كتاب

(البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية)

تأليف

حضرة الـذكى الـالمى ذى القـول الـديد محـمد بك فـريد
وكـيل ذلـم قضـايا الدائـرة الـنية وأحد
أعضـاء الجمـعية الجـغرافـية
الخـديـويـة

ليس بـانـسان ولا عـالم * مـن لـم يـع التـاريخ فـي مـدنه
ومن درى أحوال من قد مضى * أنشأ أعمارا إلى عـمره

مجموعة ورق الطبع محفوظة أو افند

(الطبعة الاولى)

بالطبعة الاميرة بـيولاق مصر المحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل فن التاريخ عبقرى من اعتبر وبصر فان تأمل واذكر والصلاة والسلام من الملك السلام على نبينا محمد سيد ولد عدنان القائل حب الوطن من الايمان صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعترته وحزبه من خاضوا الفيا في والقنار حتى جاء تاريخهم من احسن الآثار (أما بعد) فأقول وأما التوكل على مولاي المبدئ المعيد عيده محمد فريد غفر الله له ولوالديه ولا رباب الحقوق عليه لما كان فن التاريخ فوائده ونعماته مهمة تعرب عما مضى من كوارث الازمان والافاق وتكشف عن وجوه الحوادث قناع الشبهات فلكثرة تشبهه وعظم رقبه كان له في الكتاب المبين أصل قوى متين قال الله تعالى يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم ومائزات التوراة والانجيل الا من بعده اقلنا تعقلون استدل على بطلان دعوى اليهود في ابراهيم أنه يهودى وبطلان دعوى النصارى أنه نصرانى بأن التوراة والانجيل اثبات لامن بعده ولهم الحجة البالغة والحكمة الدامغة اذ لولا التاريخ لخلعت الدول وماتت في الايام الاخر ذكر الاول عن لي مع قلة بناءتى وكساد صناعتى أن أؤلف في وطنى العزيز مختصر تاريخ وجيز يدل على فضل جنتكم كن محمد على باشا الكبير على الثان من دوا كبير مؤسس لدارنا المصرية وأنهم مهندسون لخطوطها النيلية على أحسن الوجوه كما يشهد له بذلك الوجوه بترد الله مفعبه وجعل في رياض النعيم مرتعه وحيث كنت عن تربي في المدارس الحديثة ذات الشهرة المرضية رأيت أن أعتنى بآليف هذا الكتاب قياما

لاوطن

وكرر هو الشريعة المصرية لما تراه بين السكان بدون شرط الى مستقنتهم ثم انه زعم ان كان
الاولى بالحكومة المصرية وقتئذ ان تراعى عوائد البلاد وطباع أهلها ثم تصلح كيفية
ضرب الاموال وتوزيعها على الأهالي شيئا فشيئا لكنه لا يجوز من جهة أخرى أن الامة
المصرية تقوم بكافة مصاريف الجيش والادارة مع ما هي عليه من الفاقة والفقرة المدفع
الناسي من تسلط الممالك عليها أحقابا لتواليه بل من العدل أن كل من الامتين الشامية
والمصرية يشترك في مصاريف ما يلزم للحكومة كما أنهم ما يشتركون في التمتع بخيراتهما
والاستغلال بظلال الأمن الشامل للولايتين وعلى كل حال لم تصادف الادارة المصرية في
تحصيل هذه الضريبة من الصعوبات ما لاقت في ادخال الشاميين في الخدمة العسكرية
فانه أدخل منهم في الجيش المصري ثمانية عشر ألفا ما بين دروز وموانه ومساين وغيرهم
من كل الشعوب والاجناس وهو الامر الذي ازدادت به كراهة الشاميين للادارة المصرية
وذلك لان الدولة العثمانية ما كانت تدخلهم في العسكرية كرجال كانت تكتفي بمن يدخل
باختياره من سكان جبل لبنان وكان يتدرج منهم سنويا في الخدمة العسكرية ألف لا غير
ومما كان سببا في زيادة كراهة الشاميين للامنة المصرية عدم الانتظام في أخذ الثيابان
كما هو جار الآن في مصر وسائر الدول المتقدمة بان يخدم الشاب مدة معينة ثم يعود الى
أوطانه ويكون أخذه بطريق القرعة مع المساواة بين كل الافراد بل كانت الطريقة
المتبعة في أخذهم أن يدخل الضابط المعين لذلك في القرى ويختطف الثبان بالقوة وربما
يتم له ذلك الا بعد مقاومة عنيفة يكون من ورائها أحيانا قتل بعض من الفريقين وان ذكر
أحد من كانوا في معية البرنس (دي جوانفيل) نجل (لويس فيليب) ملك فرنسا حين كان
سائحا في البلاد الشامية أثناء احتلال المصريين لها أن الحرس الذي كان معينا لحراسته
أثناء جولانه في جبال لبنان كان كلما يرى في طريقه شبايا قوى البنية صالحا للخدمة
العسكرية ضبطه وأرسله مع بعض الجنود الى أقرب ألى ليحمله به دون أن يعلم أقاربه بذلك
ولا غرابة في مثل هذا فان هذه الطريقة كانت متبعة في مصرنا أيام محمد علي باشا ومن
بعده ولم تطل الامن عهد قريب
واقعا المصريين اذذاك وعدم تماونهم في المجازاة على أقل عصيان بأشد العقاب لم يجبر

(خاتمة)

بسم الله الرحمن الرحيم في اقامة محمد علي باشا امن الاصلاحات والتاسيسات

ان اول ما شرع فيه محمد علي باشا رحمه الله عند مصر من الاصلاحات ليعيد اليها مجدها الاصيل تأسيس المدارس لبث العلوم والمعارف بين المصريين الذين هجروا وطنهم العلم فاخذ العزيز في احياء المدارس بعد ان كانت فيها ادوارس واعاد العلم الى وطنهم وامر ببناء لبيتنا بمصر اذ افسس مدرسة الطب بأبي زعبل بناء على طلب الدكتور كلوت بيك الفرنسي سنة ١٢٤٢ هجرية وأتى لها بالاساتذة من البلاد الاورباوية وذلك ان كلوت بيك أظهر لمحمد علي باشا احتياج البلاد لتأسيس هذه المدرسة لتستغنى عن الاطباء الاجانب وليوجد بصرا طباء كافية للجيش البرية والبحرية وقدم له بذلك تقرير اضافيا قال في آخره يجب ان يكون بمصر مدرسة طبية تكون تلامذتهم امن الوطنيين المخلصين الذين يغارون على بلادهم ويحبون تقدم وطنهم وارتقائه في سلم التمدن والعمران ويتوصل لذلك بانشاء اسبوعية عمومية يعلم فيها ماؤه وخمسون شابا من اهم الماهم معرفة اللغة العربية وقراءة وكتابة ومبادئ الحساب ويلزم ان تدرس اهم اللغة الفرنسية وانواع الطب بفروعه سيما الجراحة وتكون مدة الدراسة اربع سنوات يختبر التلامذة في آخر كل سنتينها فاسر الباشا من هذا المشروع وأصدر اوامره بتاسيسها ووجعها تحت رئاسة كلوت بيك

وجعل أيضا مدرسة للطب البيطري وولى رياستها اللوسيو دامون الفرنسي ومدرسة الهندسة خزانة ورئيسها (لامبيريك) الفرنسي ومدرسة الموسيقى وأخرى لتعليم الفنون والفنون وهذا كله غير المدارس الابتدائية والتجهيزية التي أنشئت في أنحاء القطر المصري ومدرسة الآلات من بناء على طلب العالم الفاضل رفاعة بيك فقد جاء في الخطط المصرية لعل باشا مبارك في ترجمة البيك نازك كورمانه

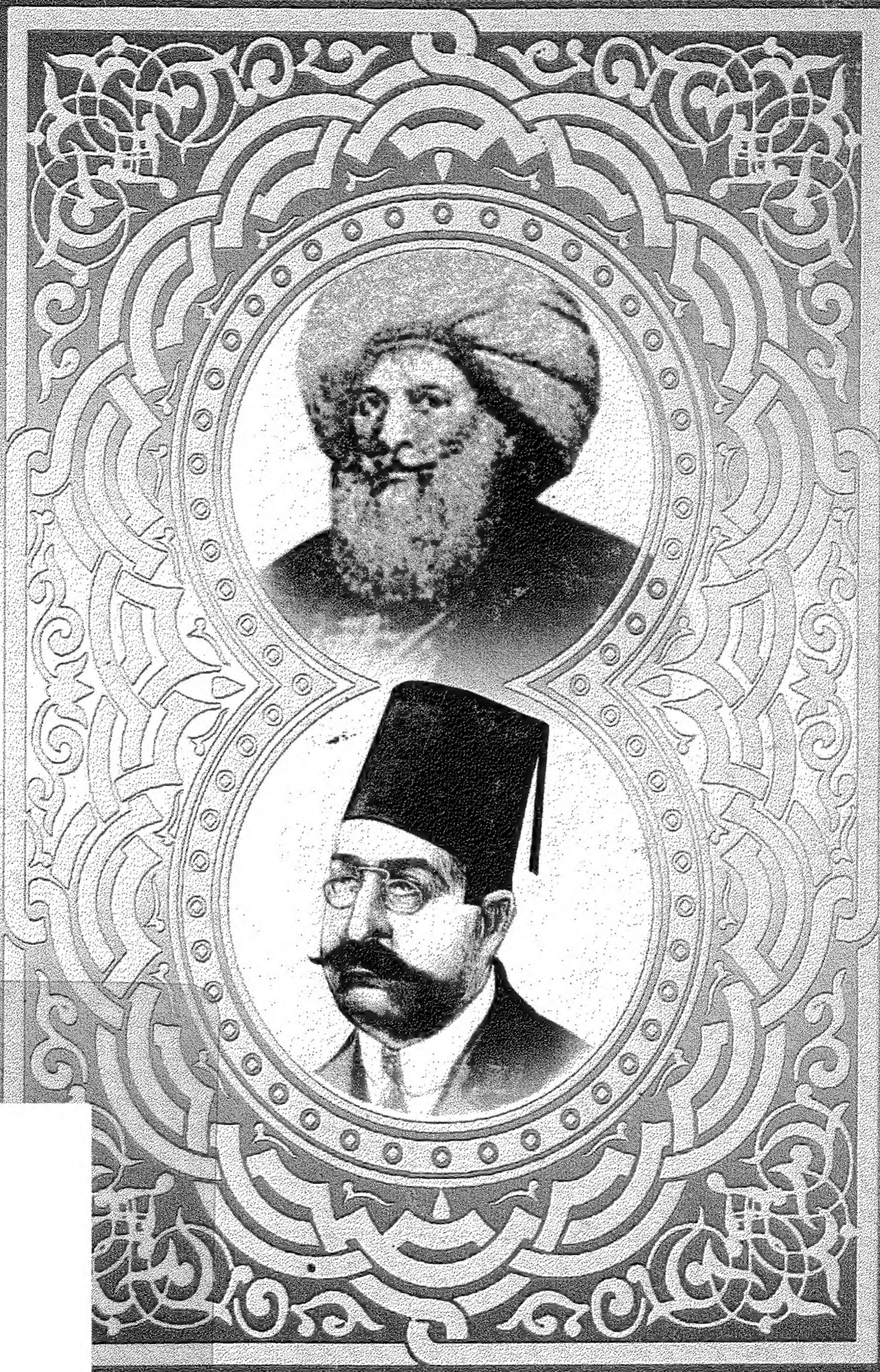
عرض رفاعة بيك للجناب العالي انه في امكانه ان يؤسس مدرسة لتعلم اللغات الاورباوية ويمكن ان ينتفع بها الوطن ويستغنى عن الدخيل فأجابه الى ذلك ووجه به الى مكاتب الاقاليم لينتخب منها من التلامذة ما يتم به المشروع فأسس المدرسة وفي المدة المعينة

فهرست كتاب البهجة التوفيقية

صفحة	صفحة
٧١	محمد فريد وكتابه عن محمد علي ٥
٧٢	نص كتاب البهجة التوفيقية ٢٧
٧٥	تقديم المؤلف ٢٩
٧٧	١- المقدمة: مجئ محمد علي إلى مصر وتوليته ٣١
٧٩	٤- ترجمة سليمان باشا الفرنساوي ٣٢
٩٠	وصول سليمان باشا إلى مصر ٣٧
٩٥	رجوع سيف إلى مصر ٤٣
٩٩	دخول سيف في الديانة الإسلامية ٤٤
١٠١	٥- فتح السودان
١٠٥	سفر ابراهيم باشا إلى السودان ٤٨
١٠٦	موت إسماعيل باشا ابن محمد علي باشا ٤٩
١١١	٦- حرب اليونان ٥٣
١١٩	حصار ناوارين ٥٨
١٢٤	فتح مدينة كلاماتا ٥٩
١٢٤	فتح تريبولتسا ٦٦
١٢٦	فتح مدينة ميسولونجي ٦٨
١٢٨	فتح العثمانيين مدينة أثينا ٦٩
١٢٩	تداخل الدول ٧٠
	مخرج محمد علي باشا إلى مصر
	تعيينه والياً على مصر
	٢- دخول الإنكليز مصر
	واقعة رشيد
	خروج الإنكليز من مصر ١٠ رجب سنة ١٢٢٢ (٤ سبتمبر ١٨٠٧)
	٣- حرب الحجاز
	واقعة القلعة
	سفر محمد علي باشا إلى الحجاز
	القبض على الشريف غالب
	تمرد لطيف باشا
	عصيان الجند بالقاهرة
	رجوع طوسون باشا إلى مصر
	حبس المعلم غالى

١٨٩	١٣١	واقعة ناورين البحرية
١٩٢	١٣٣	رجوع ابراهيم باشا إلى مصر
١٩٩	١٣٥	٧- حرب الشام
٢٠٢	١٣٩	حصار عكا
٢٠٥	١٤٠	وصول عبد الله بن سعود إلى القاهرة
٢١٤	١٤٠	انتصار المصريين بقرب حص
٢١٩	١٤١	فتح مدينة عكا
٢٣١	١٤٢	انتصار المصريين بقرب حلب
٢٣٥	١٤٤	واقعة بيلان
٢٣٧	١٤٦	واقعة قونية
٢٤١	١٥٠	تداخل الدول
٢٦٢	١٥٢	عصيان أهل الشام أول مرة
	١٥٥	عصيان الشيخ قاسم وأبو غوش
	١٥٨	سفر محمد علي باشا إلى الشام
	١٦٠	اقتفاء إبراهيم باشا أثر الشيخ قاسم
	١٧١	سفر محمد علي باشا إلى بلاد السودان
	١٧١	عصيان أهل الشام ثاني مرة
	١٧٤	واقعة نصيبين
١٨٩		تسليم قبطان باشا الدونانغة التركية إلى محمد علي باشا
١٩٢		تداخل الدول
١٩٩	٨- معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠	
٢٠٢	إطلاق المدافع على موانئ الشام	
٢٠٥	إخلاء المصريين لبلاد الشام	
٢١٤	زيارة الدوك دي موبانسيه لمصر	
٢١٩	٩- رحلة ابراهيم باشا إلى أوروبا	
٢٣١	سفر ابراهيم باشا إلى انكلترا	
٢٣٥	عودة ابراهيم باشا إلى مصر	
٢٣٧	وفاة ابراهيم باشا ووالده	
٢٤١	١٠- خاتمة: إصلاحات محمد علي باشا	
٢٦٢	ملحق: صفحات من الطبعة الأولى	
	الفهرس	

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة